الصاوى محمد الصاوى



فاتح العالم

مكتبة النافذة


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

الصاوى محمد الصاوى

جنكيز خان

فاتح العالم

مكتبة النافذة

دار الكتب المصرية

الفهرسة اثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الصاوى ؛ الصاوى محمد

جنكيز خان :فاتح العالم /الصاوى محمد الصاوى

الجيزة :مكتبة النافذة ؛2011 ص؛س

تدمك 1-291-436-977-978

1-المغول والتتار

2-جنكيز خان ؛1167 -1227

الطبعة الأولى :2012

رقم الايداع :20014/ 2011

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

الناشر

مكتبة النافذة

1 ش المستشار حسن دياب (برج مكة 3) المنشية

(ميدان الساعة) _ إمتداد الثلاثيني

الطالبية _ فيصل _ الجيزة _ مصر

هاتف: 37241803 _ فاكس: 37241565

محمول: 0123595973

Email:alnafezah@hotmail.com

إهداء

إلى عُشَّاق التاريخ، وإلى من أرَّختُ لهم

إلى كل من نَهلتُ من عِلمهِ، أو استفدت من تجاربه.

إلى كل من نظر في أحدٍ من كُتبي،

من أهل المغرب والمشرق، فشكر جهدي، وتَحاشى مَذمتي.

إلى كل من شَجَّعني وآذَرَني،

وكل من ساهم في إخراج هذه الكُتب إلى النور.

وإلى روح والديَّ،

وإلى أبنائي وزوجتي، وأحفادي.

وإلى أنصارِ الحقِ والعدلِ في المشرقِ والمغربِ جميعاً

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلي اللهم على سيدنا محمد وآله والتابعين بإحسان إلى يوم الدين. وبعد،

فهذا أول كتابي لي عن إمبراطوريات الشرق، أختص به أول دولة التتار، ومؤسسها جنكيزخان، ولكن لكي نتكلم عن التتار، لابد في البداية نتكلم عن الدول الإسلامية المجاورة لتلك البقعة، التي انبعثت منه هذه الفئة من البشر التي علت في الأرض، فهاجت وماجت، واكتسحت أمامها القوي والضعيف من بلاد العلم الإسلامي وغيره، حتى وصلت آسيا الصُّغرى، وحاربت بايازيد الأول أحد أهم ملوك العثمانيين، فأسرته واحتلت بلاده، ولو أرادوا لأخذوا أوربا بأثرها، ولغيروا تاريخ وخريطة العالم بأثره.

لقد ظهرت تلك الدولة الغريبة الأطوار، في زمان هو بالضبط زمانها، ففي وقت الضعف تطفوا الشوائب، وتتأسد الحشرات، وتسود الفئات الخاملة، والتي لم يكن لها من قبلُ من الأمر شيئاً، فتصول وتجول ثم تأتي الصحوة، وينتبه الغافلون، فتهدأ تلك الفورة، وتَرجع الأمور إلى نِصابها.

فبينما كانت الدولة الإسلامية في أشد أوقات تشرذمها، واقتتال أهلها مع بعضهم البعض، طمعاً في الحكم، وغفلة عن الدين، ظهر أمر تلك الشعوب المغولية، فانتشرت وتطورت وأرعدت وسادت في زمنٍ قياسي، ليس بالقصير، ولكنه بالنسبة لم تحقق من سيطرتها وتملكها لتلك المساحا الشاسعة من العالم، وما وقع منها من تخريب ودمار، يعد في عمر الزمان قصير.

وكما تحالفت الأسباب لظهورهم، فقد جاء نفاد أمرهم، وذهاب أسطورتهم على يد مملوك من مصر، أخلص النية هو ورجاله لله، فكانوا سبباً في عتق العالم من هذا التوسونامي البشري المُخرب، لقد توقف زحف المغول، وذهب الروع عن

لعله بتوفيق الله لهذه الفئة الصادقة، التي تكاتفت من أجل الذب عن دينها وعرضها وأهلها. فكسروا تلك الشوكة الحادة التي كسحت أمامها الأخضر واليابس. وما راعت حُرمة ولا دين، وما تَركت صغيراً ولا كبيراً، ولا رجل ولا امرأة ولا طفل. لقد وصفها الكُتاب والمؤرخون بكل نقيصة، وهي أهلاً لذلك، وكان الزمان يَسمح بذلك، وكانت الظروف كلها مواتية لأفعالهم ففعلوه ولم يتوانوا.

لقد كانت الهجمة التتارية على العالم الإسلامي خاصة، ابتلاء من الله على تفرقهم وشرذمتهم وقتَال بعضهم البعض، وسعي كل واحد من الأمراء لاستفراغ ما في إناء أخيه، ولو بسفك دمه، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، فكان الواحد منهم يُسْلم نفسه ويستسلم دون مقاومة، أو طمعاً في رشوة قائد هؤلاء الغُزاة، الذين لم يكن لهم بقاء على من استسلم أو قاوم، لقد أتوا على الصغير قبل الكبير؛ وعلى النساء قبل الرجل، وهدموا البيوت وقَطعوا الأشجار والزُّروع، لقد أرادوها بقدر الله خراباً وعِبرة، والحكمة لم كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فهل ننتبه، وهل يَعرف الناس طريق الصواب فيسلكوه؟

الصاوي محمـــد الصاوي

كفر صقر الشرقية.

الإثنين: ٦رمضان ١٤٣٢هـ، ٦/ أغسطس ٢٠١١م

مُقدمة

المغول هم عدة قبائل بدوية رعوية، كان يُشار إليهم غالباً باسم التتار أو التُّتر، وهو اسم كان يُطلق على إحدى مجموعاتهم وهي قبيلة التتر، وكانت القبائل المغولية في مستهل القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، تَعيش في هضبة منغوليا الواقعة شمال صحراء جوبي في أواسط آسيا، بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال خنجان (Khingan)، على حدود منشوريا في الشرق.

وقد استطاعوا أن يؤسسوا لهم أكبر إمبراطورية عالمية عرفها تاريخ البشرية في اقصر مدة، حيث تكونت إمبراطوريتهم الواسعة الأرجاء، والمترامية الأطراف في خلال الثلاثة عقود الأخرى من الجزر اليابانية والمحيط الهادي شرقاً إلى قلب القارة الأوروبية غرباً، ومن سيبريا وبحر البلطيق شمالاً، إلى الحدود الشمالية للجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين جنوباً.

وكانت هذه القبائل تَعيش على الصيد والقَنص، ويتغذون باللحم ولبن الخيل.

كان المجتمع المغولييتكون من:١ ـ قبيلة القيات الصغيرة، ٢ ـ قبيلة الأويرات، ٣ ـ قبيلة النايمان، ٤ ـ قبيلة الكراييت (Kerait)، ٥ ـ قبائل المركييت (Markit)، ٦ ـ قبائل التتار.

وكان التتار في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، قسمين: الأول: تسع قبائل، والثاني: ثلاثين قبيلة، وكانوا يَسكنون جنوب غربي بحيرة بايكال، وحتى نهر كيرولين، وهم ثلاث أقسام:

١ – التتار البيض: وهم الذين ينزلون خارج سور الصين.

٢ – التتار السود: وكانوا ينزلون شمال صحراء جوبي، وكانوا بدواً رحلاً.

٣ - تتار الغابة وكانوا يعيشون حول الروافد العليا لنهري أونون، وكيرولين. ومارسوا حياة الصيد.

وكانت قبائل التتار في صراع دائم وشديد مع قبائل المغول، وكانت مراعي المغول تمتد صيفاً حتى أقاصي سيبريا، وقد كان كلاً من الشعبين التتري والمغولي، وهما أبناء عمومة مع التُرك، يعيشان على الرعي، إلا أنه كان للتتار حضارة بدائية، نتيجة احتكاكهم بالصينيين. بل إن آخر الأُسر الحاكمة لشمال الصين قبل سقوطها في أيد جنكيزخان كانت تَرجع أصولها إلى التتار!!

ومن المعلوم أن المغول في بدء هجومهم على العالم الإسلامي كانوا يُعرفون بالتتار، كما أُطلق عليهم اسم: المغول، ومُغل. واشتهروا في التاريخ بهذه الأسماء.

وعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تَسكن بعض السهول الخصبة أحياناً، إلا أنهم لم يُحاولوا زراعتها، بل كانوا يُهاجرون في فصل الصيف من السهول إلى الجبال، فإذا انعدم فيها العشب رحلوا عنها، حيث يتعذر عليهم البقاء مع قُطعانهم بها.

وإذا احتبست الأمطار أو تعرضت المراعي للآفات وقلة الأعشاب تبعاً لذلك وجد الراعي نفسه أمام خطر فقدان ماشيته، وهي مصدر رزقه، ثم التعرض للمجاعة وهذا بدوره يَدفعه إلى السرقة، والنهب والسلب ممن يجاورونه من السكان الذين يشتغلون في الزراعة، ومن هنا تقوم الحروب والغارات والاعتداءات والأخذ بالثأر.

أما عن الحياة الأجتماعية للمجتمع المغولي، فقد كان المجتمع المغولي يقوم على الطبقية، الطبقة الأولى: وهي طبقة النبلاء، وكانوا يلقبون بالألقاب: هادر، أي الباسل. وتوبان، أي النبيل، وستسن، أي الحكيم.

والطبقة الثانية: هي طبقة النوكور، أي الأحرار. وعلى هؤلاء كان يرتكز النظام العسكري والسياسي في منغوليا، زمن جنكيز خان" وكانوا يؤلفون طبقة المحاربين والموالين له.

والطبقة الثالثة: هي طبقة العامة، وطبقة الأرقاء وكان لكل جماعة أو عشيرة من المغول رئيساً، قد يكون ملكاً "خان، قان" أو زعيماً "باكي أو بكي، وبهذا اللقب اشتهر رؤساء قبائل الغابة أمثال "أويرات، ومركيت.

وكان المغول يتخذون طعامهم من لحوم الحيوانات على اختلافها: من خيول وكلاب وذئاب وثعالب وفيران، وغذائهم قليل وخاصة في الشتاء، إذ تقسوا عليهم الطبيعة، وكانت ملابسهم بسيطة جداً تتفق والبيئة التي يَعيشون فيها، وكانت في الغالب مصنوعة من أصواف أو وبر الإبل او من جلود الحيوانات، ولم يكن سمة فرق كبير بين ملابس الرجال وملابس النساء، وكانوا يَطلوا أجسادهم بالشحم اتقاء البرد والرطوبة.

ولم يكن للمغول أو التتار في هذه الفترة عقيدة معلومة، ولقد وضع لهم مؤسس دولته الأول جنكيز خان قانون دولتهم، ودستور عملهم، وكتابهم الذي يعتقدونه ولا يُخلفون منه شيئاً، فقد وضع لهم كتاب: الياسا أو السياسا التي يتّحاكمون إليها، ويحكمون بها.

وكانت الديانة الرسمية للمغول تُسمى: بالشامانزم. وتّتمثل في عبادة مظاهر الطبيعة وخاصة الشمس، وتمتاز بشدة الطاعة لكهنتها الذين يتولون بدورهم الحياة الخاصة لأتباعها.

أما عن حال العالم الإسلامي في نهاية القرن السادس الهجري وأول القرن السابع، وهي نفس الفترة التي بدأ فيها ظهور المغول، كان منقسماً إلى مجموعة من الدول، والممالك والدويلات الصغيرة، بعضها قوي وبعضها ضعيف، سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية، كما أن هذه الممالك والدويلات بالتنازع مع بعضها البعض من أجل السيطرة او التوسع على حساب الأخرى.

ولنعلم أن خلفاء الدولة العباسية صاروا في أوّل أمرهم، ومنذ عهد أبي العباس السفاح - (١٠٤ - ١٣٦ هـ = ٧٢٢ - ٧٥٤ م)،إلى أيام هارون الرشيد - (١٤٩ - ١٩٣ هـ = ٧٦٦ - ٨٠٩ م)، يستبدون بأمورهم، فلما صارت الخلافة إلى هارون ألقى مقاليد الأمور إلى يحيى بن جعفر البرمكيّ - (١٢٠ - ١٩٠ هـ = ٧٣٨ -

٨٠٥ م . فكان بداية سيطرة الوزراء على الخلفاء، فصار يحيى يُوقع على رقاع الرافعين بخطه في الولايات، وإزالة الظلامات وإطلاق الأرزاق والعطيات، فجلّت تلك رتبته. وعظمت في الدولة مكانته، وكان هو أوّل من وقّع من وزراء خلفاء بني العباس، وصار من بعده من الوزراء يُوقِّعون على القصص كما كان يُوقع، وربما انفرد رجلٌ بديوان السرّ وديوان الترسل، ثم أُفردت في آخريات دولة بني العباس، واستقلّ بها كُتّاب لم يَبلغوا مَبلغ الوزراء، وكانوا ببغداد يُقال لهم كُتّاب الإنشاء، وكبيرهم يُدعى رئيس ديوان الإنشاء، ويُطلق عليه تارة صاحب ديوان الإنشاء، وتارة كاتب السرّ، ومَرجع هذا الديوان إلى الوزير، وكان يُقال له الديوان العزيز، وهو الذي يُخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء .

ثم إن الخلافة العباسية قد أخذت في الضعف مبكراً، وتناهت في الضعف أيام الراضي بالله بن المقتدر - (٩٣٤/ ٩٤٠م- ٣٢٢/ ٣٢٩هـ)، وتغلب عُمال الأطراف عليها، ولم تعد الخلافة غير اسم فقط.

وكانت الدولة الخوارزمية هي المجاورة لتلك المنطقة التي خرج الطوفان المغولي المدمر، ولأن الدولة الخوارزمية هي الأحسن شأناً والأقوى بين دول العالم الإسلامي في هذا الوقت، حتى من دولة الخلافة التي لم يعد منها غير اسم فقط، لذلك كان الأملُ فيها أن تصد الهجوم المغولي.

وخوارزم ليس اسماً للمدينة، إنما هو اسم للناحية بجملتها، فأما القصبة العُظمى فقد يُقال لها الجرجنية، وأهلها يُسمونا كركانج، وقد ذُكروا في سبب تسميتها بهذا الاسم، أن أحد الملوك القدماء غضب على أربعمائة من أهل مملكته وخاصة وحاشيته، فأمر بنفيهم إلى موضع منقطع عن العمارات، بحيث يكون بينهم وبين العمائر مائة فرسخ، فلم يجدوا على هذا الصفة إلا موضع مدينة كاث، وهي إحدى مدن خوارزم. فجاؤوا بهم إلى هذا الموضع وتركوهم وذهبوا، فلما كان بعد مدة جرى ذكرهم على بال الملك، فأمر قوماً بكشف خبرهم، فجاؤوا فوجدوهم قد بنوا أكواخاً ووجدوهم يصيدون السمك وبه يتقوتون، وإذا حولهم حطب كثير.

فقالوا لهم كيف حالكم؟ قالوا عندنا هذا اللحم وأشاروا إلى السمك، وعندنا هذا الحطب، فنحن نشوي هذا بهذا ونتقوت به. فرجعوا إلى الملك وأخبروه بذلك، فَسُمي ذلك الموضع خوارزم، لأن اللحم بلغة الخوارزمية خوار والحطب رزم، فصار خواررزم، فخُفِفَ وقِيل خوارزم استثقالاً لتكرير الراء

كان أو لقاء بين الخوارزمية، في أيام علاء الدين خوارزم شاه، مع جنكيز خان، ويكتب بالصينية: 成吉思汗 وهجاؤها بطريقة پن ين pinyin هو: cheng1 ji1 si1 kang1، أو تيموجن: بالصينية: 鐵木真، وهجاؤها بطريقة پن ين pinyin هو: tie mu zhen، عاش ما بين عامي ١١٦٥ و ١٢٢٧ ميلادية.

وجنكزخان المغولي، من قوام صُفر الوجوه، بشعور سوداء كالحة، سبط غير مُجعَّدة، وأنف أفطس، وعيون منحرفة، يشوب سمارها زُرقة، وبشرة يغلب عليها الصُفرة، ومنهم الأسمر والبرنزي والنُحاسي. بن بيسوكي بن بهادر بن تومان بن برتيل خان بن تومنيه بن بادسنقر بن تيدوان ديوم بن بغا بن بودنجه، وقيل: بقابن مودنجه، بن الان قوا. والان قوا هذه امرأة من قبيلة من التتر تُسمى قبات، من أعظم قبائلهم شهرة، كانت متزوجة بزوج أولَدها ولَدين، اسم أحدهما بكتوت والآخر بلكتوت، ومن عقبهما الطائفة المعروفة في قبائل التتر بالدلوكة، ثم مات زوج الان قوا أبو هذين الاثنين، وبقيت الان قوا أيما، فحملت فأُنكر عليها الحمل، وحُملت إلى ولي أمرهم حينئذ فسألها ممن حملت، فقالت إني كنت جالسة وفرجي مكشوف، فنزل نور ودخل في فرجي ثلاث مرات فحملت منه هذا الحمل، وأنا حامل بثلاثة ذكور كل مرة من دخول ذلك النور بذكر، فأمْهلوني حتى أضع، فإن وضعت ثلاثة ذكور فاعلموا صدقي، وإلا فدونكم وما ترون.

فأتت بثلاثة ذكور فسَمت أحدهم برقد، والآخر قونا، والثالث نجعو، وهو جد جنكز خان. وأولاد هذه الثلاثة يُعرفون بين التتر بالنورانيين.

ولد جنكيز خان على نهر "أوتون" سنة ١١٦٥م، وفقاً لروايات كثير من المؤرخين، وقيل بل ولد، وقد كان الابن البكر ليسوكيه Yesügei شيخ قبيلة كياد Kiyad و تكتب مفردا ب كيان Kiyan. وتسمى عائلة يسوكيه Yesügei بـ

بورجيگن Borjigin ومفردها هو بورجيگيد Borjigid. وكان أبوه يسوكاي غائباً وقت ولادته، ولم يَلبث الأب يسوكاي أن مات أثناء عودته إلى دياره، ساءت أحوال أرملة يسوكاي وأطفاله بعد وفاته، مع كل ما أصاب هذه الأسرة من عنت من قومهم، إلا أنهم احتفظوا، بما اشتهرت به قبيلتهم من الحماس والنشاط والصبر على تحمل المتاعب، فاجتهد الصبيان في صيد ما يلزم لإعاشتهم من نهر أنون، وحرصت الأم يولون على أن تتوطد المودة بين أفراد الأسرة.

أخذت أحوال تيموجين تستقر، وذاع سيطه، وسعت القبائل المختلفة لكسب صداقته، فكان من الذين انحازوا إليه، أربعة أمراء من المغول، يجري في عروقهم الدم الملكي، اجتمع الأمراء الأربعة وتشاوروا فيما بينهم، واستقر أمرهم باعتبارهم يمثلون أقدم الأسرات الملكية، وأعرقهم نسباً، على أن يختاروا تيموجين خاناً على المغول، وبالفعل أُختير تيموجين خانا وأطلقوا عليه اسم جنكيز خان.

حَرِص جنكيز خان على أن يوزع الوظائف الأساسية الحربية والمدنية بين أنصاره الموالين له، فجَعل من أقرب الناس إليه، وأشهرهم في الرماية حرساً خاصاً له، وخَصَّ آخرين بأمر توفير المؤن والسقاية وإعداد العَربات، والتماس المراعي، والإشراف على الخُدام، ورياضة الخيل، ونقل الأوامر الملكية، والمحافظة على النظام عند انعقاد مجلس أعيان القبيلة (قوريلتاي)، وقام جنكيز خان بإرسال الرُسل إلى رؤساء القبائل القوية المجاورة، يُخبرهم بأنه قد نُصِّب أميراً على القبائل التي قبلت به. وفي مرحلة ما بعد التنصيب، خاض جنكيز خان معارك كثيرة، أكدت أهليته لقيادة الشعوب المغولية.

وفي شهر رجب عام ٦٠٢هـ/ فبراير ـ مارس، سنة ١٢٠٦م، عقد جنكيز خان مجلساً عاماً وعمومياً، حيث تم تنصيبه كخانٍ أعظم على جميع ساكني الخيام في منغوليا، ولم تقتصر جهود جنكيز خان على توحيد القبائل المغولية، بل كانت خطوة التوحيد نقطة انطلاق لبناء إمبراطورية تشمل معظم أنحاء العالم المعروف آنذاك، وقد قام جنكيز خان بثلاث غزوات ضد مملكة التانغوت، في

الســـنوات: ٦٠٢هـــ / ١٢٠٥م، ٦٠٤هـــ /١٢٠٧م، ٦٠٦هـــ / ١٢٠٩م، فاكتســـح جميـــع أراضيها، ولكنه لم يُفلح في دخول عاصمتها ننج ـ هسيا.

عندما بدأ جنكيز خان، في هجومه على مملكة كين القوية، لاقى صعوبات لم يقابلها خلال غزوه لمملكة التانغوت، وفي عام ٦٠٧هـ/ ١٢١١م، جمع جنكيز خان جيشاً عظيماً في منغوليا الشرقية، على ضفاف نهر كيرولين استعداداً للهجوم على بكين، ومضى عاما/ ٦٠٨هـ / ٦٠٩هـ / ١٢١١م /١٢١٢م، ولم يستول سوى على مراكز قليلة الأهمية، لصعبة تضاريس تلك البلاد، وفي عام ٦١٠هـ/١١٢٣م، توجهت جيوش جنكيز خان إلى الصين للمرة الثانية، وكان هدفه السيطرة على طريق كالجان / بكين الإستراتيجي.

ولقد اجتمعت الروايات على أن فتوحات المغول، كانت مصحوبة بالمجازر البشرية، ويمكن تصنيف الحروب المغولية عموماً ضمن حروب الإبادة الجماعية، فإنه ليصعب علينا أن نعرف أي صرعى جنكيز خان أكثر عدداً؟ صرعى حروبه مع القبائل وفي الاستبس، أم صرعاه في البلاد المتحضرة، ويصعب أيضا أن نثبت أن فتوحات المغول كانت نفعاً خالصاً أو ضراً خالصاً لأهل تلك المجتمعات المختلفة التي غزاها، فإنه لم يكن يبيد تلك المجتمعات تماماً. إلا أن أسعد الأوقات عنده، هي التي يحطم فيها قوى أعدائه ويُطاردهم، ويستولي على ممتلكاتهم، ويَرى دموع الألم تتساقط من أعين نسائهم وأطفالهم. وهو الوقت الذي يستطيع فيه أن يَركب خيولهم ويمتلك بناتهم ونسائهم.

ولكن وعلى كل حال لا يمكننا إلا أن نؤكد بأنه ما كان يتيسر لجنكيزخان فتح تلك المناطق الفسيحة، وتكوين هذا الملك العريض، إلا إذا كان مزوداً بكثير من التعقل والتبصر والكفاءة الممتازة، وأنه لابد وأن يكون على جانب كبير من الدهاء والسياسة. ولا يمكننا أن نُسلم بأنه كان فقط ميالاً إلى الغزو والفتح وإراقة الدماء، بل كان كذلك لديه هدف معين يَبغي الوصول إليه، ويَرى أن تحقيقه لا يجب أن يحول دونه حائلٌ. مهما أُريق من دماء، وأُزهق من أنفس، وخُرب من مدن، فكل ذلك لا يُعد شيئاً ما دام هو الطريق الذي سوف يُبلغه

مُراده.

ولما كان جنكيزخان لا يؤمن بأي دين أو دولة، فإنه كان يتجنب التعصب ورجحان أمة على أمة، أو دين على دين، ولكنه كان يُكرم العلماء والزهاد من كل طائفة، ويعفيهم من الضرائب. وكان يميل إلى الإصغاء إلى أقوال الحكماء، والاستفادة بتجاربهم.

كان المغول على مقربة من الحضارة الصينية، لذا فإن تأثير الثقافة الصينية المتفوقة على المجتمع المغولي أمر لا يمكن تجاهله، وهناك احتمال بأن يكون جنكيز خان قد تأثر، بالتفكير العسكري الصيني في مجال المحاربة، وسبب ذلك أن جنكيز خان، بعد أن نجح في تدمير إمبراطورية كين الصينية، التي كانت تُعرف بالإمبراطورية الذهبية، أَكره عدداً كبيراً من العلماء والعسكريين وأصحاب الحرف والفنون الصينيين على العمل في خِدمته.

وكان المغول يُعدون لكل حرب خططها بعناية ودقة، في المجلس العام (الكوريلتاي)، لقد كانوا يُرسلون العملاء والجواسيس إلى أراضي العدو، ليأتوا بالخبر عن أموره العسكرية، والسياسية والاقتصادية، والجلوغرافية في تلك البلاد المقصودة، وكانوا يَستعملون تكتيك الرتل الخامس بكفاءة عالية، وهذه تسمية حديثة، إلا انهم كانوا يستخدمون نفس خطواته، ويتعاطون المحاربة النفسية. وكانت تعليمات جنكيز خان تقضي، كنوع من الحرب النفسية ضد الخصم، بأن يعم الرعب والهلع جميع الأرجاء عقب الضربة الأولى. لقد كشف إذن جنكيز خان عن القيمة الحقيقية للحرب النفسية والإعلام الموجه تجاه الخصم، وتحقيق المزج العسكري بين: الاستعداد، والإعلام، والانضباط، والحركية، وضربة المطرقة. وصارت حروبه دروساً مُستفادة، تنتفع بها الجيوش إلى اليوم في خططها.

في عام ٦١١هـ/ ١٢١٥م، بعث بعض جواسيسه إلى بلاط جنكيز خان، للوقوف على مدى استعداد المغول للحرب، فقضوا مدة طويلة، استطاعوا خلالها أن يؤدوا المهمة التي عهد إليهم بها، ودرس علاء الدين محمد خوارزمشاه بإمعان هذه

المعلومات، فأدرك فداحة ما وقع فيه من خطأ بقتله تجار المغول ورُسلهم، وندم على ذلك، ولكنه لم يكن وقت الندم الآن،

وبالفعل كان أول لقاء بين الخوارزميين والمغول، وتجالد الفريقان، أما المسلمون فإنهم صبروا حمية للدين، وعلموا أنهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية، وأنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم.

وأما المغول فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم، واشتد بهم الأمر، حتى إن أحدهم كان يَنزل عن فرسه ويقاتل قرنه رجلاً، ويتضاربون بالسكاكين، فلما كان الليلة الرابعة افترقوا، فنزل بعضهم مُقابل بعض، فلما أظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا، وكذلك فعل المسلمون أيضاً، كل منهم سئم القتال.

ومن أجل إضعاف الخلافة العباسية، ثم إسقاطها، قرر جنكيز خان في خوض حروب متتالية مع دول المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية، والتي تُعرف بالدولة الخوارزمية، وكانت تضم عدة أقاليم إسلامية هامة مثل: أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران، وكانت عاصمة هذه الدولة الشاسعة هي مدينة أوجندة في تركمنستان حالياً، وكان هناك شبه اتفاق بين جنكيز خان ومحمد خوارزم شاه على حُسن الجوار، إلى أن يستتب له الأمن في شرق آسيا، أما وقد استقرت الأوضاع في منطقة الصين ومنغوليا، فقد حان وقت التوسع غرباً في أملاك الدولة الإسلامية، فكان من أسبابهم في ذلك، أيضاً:

١ - الجدب الذي ساد أقاليم آسيا الشرقية، ٢ - حالة الحماسة والنشاط المغولي، ٣ - مقتل بعض تجار المغول. حيث وصل من بلاد التتار تجار إلى أترار، وهم: عمر خواجه الأتراري، والجمال المراغي، وفخر الدين الدنزكي البخاري، وأمين الدين الهروي. وكان ينال خان ابن خال السلطان علاء الدين خوارزم شاه، ينوب عن السلطان بأترار بصحبته عشرين ألف فارس، فشرهت نفسه في أموال أولئك التجار، فكاتب السلطان يقول: إن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار في زي التجار،

وليسوا بتجار، وإنما هم أصحاب أخبار، وإنهم إذا خلوا بأحد من العوام يهددونه، ويقولون إنكم لفي غفلة عما وراءكم، وسيأتيكم ما لا قِبل لكم به. فَأَذِن له السلطان في الاحتياط عليهم إلى أن يَرى فيهم رأيه، فقَبضَ ينال خان عليهم، وانقطع خبرهم، وأخذ ما كان معهم من الأموال والأمتعة.

في عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، بدأ الغزو المغولي شرق الدولة الإسلامية، فقد وصل جغتاي، ابن جنكيزخان، إلى حافة نهر سيحون على مقرُبة من مدينة أترار، على رأس جيش قوامه نحو ستمائة ألف من خيرة جنده، وكانت غاية الجيش في المرحلة الأولى الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، المحصورة بين نهر سيحون في الشرق، وجيحون في الغرب.

وكان علاء الدين خوارزم شاه قد قسم جيشه في البلاد، منذ عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥- ١٢١٦م، تَرك ينال خان بأترار: في عشرين ألف فارس. وقتلغ خان في جماعة أخرى: في عشرة آلاف فارس بشهر كنته إحدى مدن أطراف تركستان، والأمير اختيار الدين كشكي أمير آخور، وأمير الأخوار أي أمير العلف، أي أمير اسطبلات السلطان. واغل حاجب الملقب باينانج خان: في ثلاثين ألف فارس ببخارى. وطغانخان خاله وأمراء الغور، مثل جر ميخ، وحرور، وابن عز الدين كت، وحسام الدين مسعود، وغيرهم: في أربعين ألف فارس، وقيل خمسين ألفاً، بسمرقند. وفخر الدين حبش المعروف بعنان النسوي وعسكر سجستان بترمذ. وبلخمورخان: بوخش إحدى مدن نواحي بلخ. وأبا محمد خال أبيه ببلخ. واسرك بهلوان: بخندروذ، إحدى مدن فارس. وعلجق ملك: بجيلان، وهي مجموعة بلدان وراء طبرستان. والبرطاسي بقندز. ولم يترك بلداً مما وراء النهر خالياً من عسكرٍ كبيرٍ، فكان ذلك من أعظم الأسباب التي استولى بها جنكزخان على البلاد الإسلاميّة، ولو جمع عساكره ولقي التتار لهزمهم.

ولقد قسَّم جنكيز خان جيوشه إلى أربعة أقسام، جَعل على رأس كل جيش منها أحد بنيه، فقد أراد أن يُهاجم أكبر عدد من المدن الإسلامية في وقت واحد، فلا يترك إليهم فرصة للتوحد ضده.

وبالفعل تحركت الجيوش الجنكزخانية نحو بلاد خوارزم شاه، في عام ٦١٥هـ/١٢١٨م، وكان هذا التحرك حسب خطة مرسومة مُحكمة، ونظام حربي وضعه جنكيز خان صوب عينيه، وبعد أن استولى على مابين نهري سيحون وجيحون، قصد بلاد خوارزم شاه بعدة جيوش.

فملكوا: بلاد مازندران، وفتحوا المدن الواقعة على نهر سيحون، وسُرعان ما وصلوا إلى مشارف سقناق، على مسافة اربع وعشرين فرسخاً من أترار، ومدينة سقناق، مدينة بنكَت، وخُجندة، ومدينة بخارى إحدى مدن جمهورية أوزبكستان، بعد أن حاصرها ثلاثة أيام، وفتحت المدينة ابوابها رابع ذي الحجة سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م. بعد أن دمر التتار مدينة بُخارى العظيمة، وأهلكوا أهلها وحرقوا ديارها ومساجدها ومدارسها انتقلوا إلى سمرقند، وهي أيضاً في دولة أوزبكستان الحالية، واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من أسرى المسلمين من مدينة بخارى، فساروا بهم على أقبح صورة، فكل من أعيى وعجز عن المشي قُتل.

وبعد أن دمر التتار مدينة بُخارى العظيمة، وأهلكوا أهلها ومساجدها ومدارسها، انتقلوا إلى سمرقند، وهي أيضاً في دولة أوزبكستان الحالية، واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من أسرى المسلمين من مدينة بخارى، فساروا بهم على أقبح صورة، فكل من أعيى وعجز عن المشي قُتل، وألحق جنكيز خان كل المهرة من الصناع وأصحاب الحرف ببلاده. وهرب علاء الدين خوارزم شاه، ولم يثبت لحرب بعدها.

فرَحل السلطان علاء الدين خوارزم شاه، من حافة جيحون إلى نيسابور، إحدى مدن خُراسان، وتسلل عنه الناس فلم يُقم بنيسابور إلا ساعة من نهار، وغادر نيسابور ويأخذ طريقه شطر العراق العجمي

شهر ربيع الأول من سنة ٦١٧هـ/ مارس ١٢٢٠م، عَبرت الجيوش المغولية كلها نهر جيحون دَفعة واحدة، وكانوا لا يتعرضون في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل، كما أمرهم جنكيز خان، بل جدوا في السير طلبا لخوارزم شاه علاء الدين، فلا يُمهلونه حتى يَجمع لهم رجاله، فلما سَمع بقربهم منه رحل منها إلى

الاستنداد. وهي أمنع ناحية في مازندران، ذات دربندات ومضايق، فلما رأوا خوارزم شاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر، فلما أيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا، فهم الذين قصدوا الري وما بعدها.

وهرب السلطان لما وركب علاء الدين خوارزم شاه المركب وساق به أصحابه، كان به علة ذات الجنب، فكان ذلك مما آيسه من الحياة، وهو يُظهر الاكتئاب، ويقول: سبحان الله مالك الملوك، لم يبق لنا من مملكتنا مع سعتها قدر ذراعين ندفن فيها، فاعتبروا يا أولي الأبصار. فلما وصل الجزيرة سُر بذلك فرح بذلك كثيراً، وكأنه كان لا يصدق أن يصل إلى البر، فأقام بها فريداً طريداً والمرض يزداد به.

فكانت وفاته، في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م. وغسَّله شمس الدين محمود بن يلاغ الجاوش، ومقرب الدين مهتر مهتران مقدم الفراشين، ولم يكن عنده ما يكفن فيه فكفنه شمس الدين محمود المذكور بقميصه، ودفن بالجزيرة، فكانت مدة سلطنته إحدى وعشرين سنة.

وصلت القوات المغولية إلى الري، على حين غفلة من أهلها، فدخلوه بخيانة بعض رجاله، فكان لسقوط هذه المدينة من الأثر النفس السلبي ما لا يُقدر على المسلمين عامة، وعلى الخوارزميين خاصة، فلما قاربوا همذان خَرج رئيسها ومعه الحمل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك، يَطلب الأمان لأهل البلد، فأمنوهم، ثم فارقوها، ومرو بزنجان فاكتسحوها، ثم اتجهوا إلى مدينة قزوين فتصدى لهم أهلها، ثم صالحوهم، ثم اتجهوا إلى إقليم أذربيجان، وقبل أن يصلوا إلى مروا عاصمة الإقليم، مروا بمدينة سنجار فنهبوها، ثم ساروا إلى قوس، ووصلوا إلى مدينة تبريز عاصمة أزربيجان، صالحهم أوزبك بن البهلوان. واستولوا على حصون جورجيا وخرَّبوها، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م.

في صفر سنة ٦١٨هـ، ملك التتر مدينة مراغة، ثم رحلوا عنها نحو مدينة إربل، ووصل الخبر بذلك إلى الموصل، ولقد انزعج الخليفة الناصر أخيراً،

فأرسل إلى كل من مظفر الدين كوكبري صاحب إربل، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وارسل الخليفة إلى الملك الأشرف موسى، (٥٧٨ - ٦٣٥ هـ = ١١٨٢ - ١٢٣٧ م)، أحد ملوك الدولة الأيوبية بمصر والشام. يَأمره بالحضور ليجتمع الجميع على قصد التتر وقِتالهم، فتجمعوا، ولما لم يروا العدو يقصدهم، ولا المدد يأتيهم، فتَفرقوا، وعادوا إلى بلادهم، سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م.

وفي رجب من سنة ثماني عشرة وستمائة، دَخل التتار إلى همدان المدينة بالسيف،ولما فرغ التتر من همدان ساروا إلى اذربيجان، فوصلوا إلى أردويل فملكوها، وساروا إلى مدينة كنجة، ثم ساروا إلى بلاد الكرج، لما عاد التتر من بلد الكرج، وهي تقع في شماتي أرمينية، على البحر الأسود، وكانت تدعى (كرجستان)، قَصدوا دربند شروان، فحصروا مدينة شماخي وقاتلوا أهلها، وقَتلوا فيهم فأكثروا، ونهبوا الأموال فاحتازوها.

وسار التتر إلى بلاد قفجاق فأقاموا فيها، وهي أرض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف، وسارت طائفة كثيرة منهم إلى بلاد الروس، ثم إنهم ساروا سنة ٦٢٠هـ، إلى بلاد الروس، وقَصدوا بلغار في أواخر سنة ٦٢٠هـ.

وكان جنكزخان لما بَلغه عود أولاد السلطان إلى خوارزم وجَّه إليها عسكراً كثيفاً، وكان جلال الدين منكبرتي خوارزم شاه، مَلَكَ بعد وفاة أبيه في سنة ٦١٧هـ، وعبر أولاد السلطان علاء الدين خوارزم الثلاثة جلال الدين منكبرتي، وأزلاغ شاه، وأق شاه، عبروا البحر إلى إقليم خوارزم، ومعهم زهاء سبعين نفساً لقصد خوارزم، فلم علم جلال الدين منكبرتي بقدوم التتار،ترك خوارزم، وحاصر جنكيز خان أبناء علاء الدين ازلاغ شاه، وآق شاه ومن معهما، ولما أرادا الاشتباك معهم حلت بهما الهزيمة، ثم وقعا في الأسر، وقد قطع المغول راسيهما ورشقوهما في سهمين.

وأقام السلطان جلال الدين بنيسابور شهراً، بعد خروجه من خوارزم، فأسرع المغول نحوه وأَعجلوه عن مُراده، فخَرج من نيسابور، فوصل إلى القلعة القاهرة، وفَارَق القلعة القاهرة، وجَدَّ السير إلى تخوم بست فأُعلم أن جنكزخان مقيمٌ

بالطالقان بجيوش عظيمة، واتفقا على كبس التتار المُحاصرين قلعة قندهار، فنَهضا إليهم واوقعا بهم، فلم يَسلم من التتار إلا من وصل يخبرهم إلى جنكزخان وهم نفرٌ يسير، عادوا إليه وهو بالطالقان.

وساق جلال الدين منكبرتي حتى أتى غزنة، فوصل إليها جلال الدين في سنة ٦١٨هـ، واتصل به: سيف الدين بغراق الخلجي، وأعظم ملك صاحب بلخ، ومظفر ملك صاحب الأيغانية، والحسن قزلق، وهم في زهاء ثلاثين الف فارس ومعه عسكرهم وعسكر أمين ملك مثلها، فاجتمع عنده من الجيوش نحوا من ستين ألفاً، فجرِّد إليهم جنكيز خان ابنه تولي خان في عسكر كثيف، قوامه نحو اثني عشر الفاً، فلما وصلوا إلى أعمال غزنة، استقبله جلال الدين بنية في الجهاد قوية، فانتصر المسلمون وانهزم التتار ثانياً، وقُتل تولى خان فيمن قُتل، وكَثُر الأسر في التتار، وعاد من سلم منهم إلى ملكهم بالطالقان.

وقام جنكيز خان مغموماً مكبوتاً لموت ابنه، وفناء جنوده بصورة لعالها الأولى منذ بدأوا حروبهم، فقام بنفسه وعساكره لقصد حرب جلال الدين. واتفق أن العساكر الخلجية الذين حابوا معه ضد تولي خان، فارقوا جلال الدين في ذلك الوقت، زرماً وضيق أُفق، صُحبة سيف الدين بغراق، وسار إلى الهند، فاستعطفه جلال الدين بكل طريق، وسار بنفسه إليه، وذَّكره الجهاد، وخوفه من الله تعالى، وبكى بين يديه، فلم يَرجع، وسار مُفارقاً، وازداد في عناده، ولم يَنظروا إلى ما يترتب على خلافهم من سوء العواقب فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا.

ولما بَلغ جلال الدين أن جنكزخان قد قاربه بجيوشه، علَم أنه لا طاقة له بملاقاته بعد مُفارقة هذه الجيوش له، فرأى أن يتأخر إلى حافة ماء السند، ووصل جنكزخان إلى حافة ماء السند، وبرزت الجيوش الجنكزخانية، فلقيهم جلال الدين واقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت هزيمة منكرة.

ولما عاد جلال الدين إلى حافة ماء السند كسير النفس، رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يَصحن بأعلى أصواتهن: بالله عليك اقتلنا وخَلصنا من الأسر، فأمر بهن فغُرقن في ماء السند. وأما العساكر الخلجية المفارقة لجلال

الدين، فاستنزلهم جنكزخان بعد فراغه من جلال الدين من عصم الجبال والحصون، وقتلهم أجمعين.

لما كان من الغد على عبور جلال الدين نهر السند، عاد التتار إلى غزنة، أواخر سنة ٦١٩هـ، ١٢٢٢م، فقتلوا أهلها، ونهبوا الأموال، وسبوا الحريم فألحقوهن بخرسان، وكان إقليم غزنة آخر أقطار شرق الدولة الإسلامية، وآخر حصون الخوارزميين التي غزاها المغول في عهد الخليفة العباسي، الناصر لدين الله - (٥٥٣ - ٦٢٢ هـ = ١١٥٨ - ١٢٢٥ م)، وأكد المغول سيطرتهم على المناطق الإسلامية الشاسعة ما بين الصين والعراق، ثبتوا أقدامهم في كل بقاع الدولة الخوارزمية.

ولأن إقليم خوارزم هو الإقليم النواة للدولة الخوارزمية، فقد بدأ جنكيز خان على الفور، ومنذ هرب السلطان علاء الدين خوارزم شاه منه سنة ٦١٧هـ، وتبعه ابنه جلال الدين، في نفس السنة فهرب، بدأ جنكيز خان يُعد العدة لاجتياح هذا الإقليم، ولما اطمأن المغول إلى استعداداتهم الحربية، قام ثلاثة آلاف منهم بالهجوم على المدينة، فكان النصر في هذه الهجمة حليف الخوارزميين، واستاء جنكيز خان بالطبع عندما سمع هذه الأنباء، فأرسل المدد، فأخذ المغول يطوون البلاد محلة محلة، واستمرت مقاومة الخوارزميين على هذا النحو سبعة أيام، ثم لم يُبقي على أحد من أهلها.

وفي نفس عام اجتياح خوارزم، وفي خريف عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م، صدرت الأوامر إلى تولوي بن جنكيز خان بالسير إلى إقليم خُراسان، وقصدوا مدينة بلخ، فلما وصلوها بقيادة تولوي، طلب أهلها منهم الأمان، وعلى غير عادة التتار فقد قبلوا أن يُعطوهم الأمان، فتسلّموا البلد في محرم من سنة ٦١٧هـ، ثم قصدوا الزوزان، وميمند، واندخوي، وقاريات، فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة، وفي أول محرم سنة ٦١٨هـ. ٢٥ فبراير سنة ١٢٢١م، سار تولي في خمسمائة من الخيالة لاختيار حصون مدينة مرو، وأرسل ابن جنكزخان إلى ما حوله من البلاد، وأمرهم بجمع الرجال لحصار مرو، ولم يمض أسبوع حتى تجمعت الجيوش المغولية، فتقدموا إلى

مدينة مرو وحصروها، وجَدوا في حصرها، ولازموا القتال.

وأخيراً استسلمت البلاد، فأمر ابن جنكيز خان، أن يُقتل أهل البلاد أجمعون، وبدأ المغول يَقتلون كل سكان مرو، الرجال والنساء والأطفال، وقالوا إن المدينة عصت علينا وقاومت، ومن قاوم فهذا مصيره. وهكذا أصبحت مدينة مرو أثراً بعد عين، وهَلك سكانها أجميعن، الذين قدرهم ابن الأثير بسبعين ألفاً.

وفي أواخر سنة ٦١٧ هـ - ١٢٢٠م، سار المغول إلى مدينة نسا، وبعد خمسة عشر يوماً استطاع المغول أن يُحدثوا ثغرة في حوائطها واحتلوها ليلاً، ولم يمد التتار أيديهم إلى سلب ونهب إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسعة، كأنهم قطعان الضأن تسوقها الرعاة، بالصغار والنساء، والضجيج يشق جلباب السماء، والصياح يسد منافذ الهواء، ثم أمروا، بأن يكتفوا بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلانا، وأَمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر، كما أَمروا بربط ذراعي كل رجل وراء ظهره، ثم قَتل المغول جميع النساء والرجال والأطفال.

ثم توجه التتار إلى مدينة نيسابور، بعد أن تركوا خلفهم مدينة مرو، ومذبحة نسا، وقد خُرِّبتا تماماً، سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، والبطبع كانت أخبار مرو كانت قد وصلت إلى نيسابور، فدب الرعب والهلع في أوصال المسلمين، وما استطاعوا أن يقاوموا التتار، ودخل التتار المدينة، فلم يكن لأهلها أي قوة لدفعهم، فعَرضوا على تولوي التسليم، وتَعهدوا بأن يؤدوا للمغول ضريبة سنوية، ولكن تولوي رفض، وفي يوم الثاني عشر من شهر صفر سنة ٦١٨هـ/٧ أبريل سنة ١٢٢١م أمر بمهاجمة مدينة نيسابور من كل مكان، وأخيراً تمكن المغول من احتلال مدينة نيسابور، وقد استمر تخريب المدينة خمسة عشر يوماً، زالت فيها معالمها، ولم يُبق المغول إلا على أربعمائة رجل من أصحاب الحرف والمهن للانتفاع بهم.

وسار الجيش المغولي بعد نيسابور، إلى مدينة هراة، إحدى مدن خراسان الهامة، وطلب أهلها التسليم على أن يُؤِّمن المغول حياتهم، ووافق تولوي على هذا الطلب مُكرهاً، وبسقوط هراة يكون إقليم خراسان قد سقط بكامله في أيدي التتار، ولم يبقوا فيه على مدينة واحدة.

في سنة ٦٢٠هـ، توغل المغول في بلاد روسيا وحققوا انتصارات عدة، وفي أول سنة ٦٢١هـ، وصل طائفة من التتار من عند ملكهم جنكيزخان، وهؤلاء غير الطائفة الغربية، وكان من سلم من أهل الري قد عاد إليها فعمَّروها، فلم يَشعوا بالتتار إلا وقد وصلوا إليها، فلم يمتنعوا عنهم، فوضعوا في أهلها السيف وقَتلوهم كيف شاؤوا، ونَهبوا البلد وخرَّبوه، وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك، ثم إلى قم وقاشان، أول سنة ٦٢١هـ، وصل طائفة من التتار من عند ملكهم جنكزخان، وهؤلاء غير الطائفة الغربية، وكان من سلم من أهل الري قد عاد إليها فعمَّروها، فلم يَشعوا بالتتار إلا وقد وصلوا إليها، فلم يمتنعوا عنهم، فوضعوا في أهلها السيف وقَتلوهم كيف شاؤوا، ونَهبوا البلد وخرَّبوه، وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك، ثم إلى قم وقاشان، وفي أعوام، ٦٢١، ٦٢٢هـ، خفت قبضة جنكيز خان على غرب الدولة، الخوارزمية، وفي آخر سنة ٦٢٢ هجرية توفى الخليفة الناصر لدين الله، وفي الرابع عشر من رجب، سنة، ٦٢٣هـ، توفي الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين.

وفي عام ٦٢٤، وقيل ٦٢٥هـ، توفي جنكيزخان، عن عمر يناهز اثنتين وسبعين سنة.

الصاوي محمد الصاوي



لقد قامت دولة المغول، وعندما نقول المغول أو التتار فهما بمعنى واحد، لأنهم وإن كانوا فريقين قبل قيام جنكيز خان، إلا أنهم بقيامه صاروا كلهم واحد. كما قامت الدول من قبلها، وكما قامت من بعدهم، أي أنها قامت على أنقاض ودماء دول غيرها، دب فيها الضعف، واختلف أهلها، إما على المال أو على الحُكم، أو كلاهما، في هذه الظروف يحدث التفكك بين أبناء الشعب، ويقل ولاؤهم لمثل هؤلاء الحكام، حين ينظرون ولاة الأمر وقد تركوا مهمتهم الأولى، وهي حماية بلادهم وشُعوبهم، والتفتوا للبطش والتنكيل ببعضهم، وكلٌ يُريد الانفراد بالأمر الذي يوشك أن يَخرج من أيديهم بالكلية، وبعده لا تَبقى دولة ليحكموها، ولا تبقى شعوباً ليقودوها، بل في الغالب يَأول أمرهم إما إلى القتل أو الأسر، وكلاهما مُر.

وهناك حالات أخرى، تذهب بها الدُّول القديمة، ويحل محلها تلك الدولة البازغُ نجمها، وقد حدث ذلك تقريباً بالنسبة لمجموعة الدول الإسلامية المحيطة ببلاد المغول، مع أن تلك الدول لم تكن بالضعف الشديد، إلا أن رؤساء تلك الدول لم يكونوا بالحكمة الكافية لإدارة بلادهم في فترة كتلك، التي نبغ فيها نجم تلك الشعوب المغولية التترية، علاوة على أن تلك القوة قد تنامت بسرعة مُدهشة، جَعلت من شبه المؤكد أن تلك الدول المحيطة بها زائلة لا محالة، ولكن عجل بهذه النتيجة، تهور بعض القادة بها، أو عدم قُدرتهم على مُجارات الأحداث لتمد في عُمر دولهم أكبر فترة ممكنة.

فلقد كانت الدولة الخوارزمية من أقوى دول العالم الإسلامي في الفترة التي ظهر فيها نجم الدولة المغولية، كما كانت الدولة الغورية بخير، ولكن هبَّة

المغول كانت بالقوة ما مكنهم من كسر تلك الدول وطيّها كأن لم تكن، في فترة قصير في عمر الزمن.

وقبل أن نتعرض لتاريخ المغول، سوف نُقدم نبذة مختصرة عن الدّول الإسلامية التي حطمها جنكيزخان، وضمها إلى دولته في أيام قيادته لدولة المغول التي أسسها.

أصل المغول وبدايتهم وحياتهم

المغول هم عدة قبائل بدوية رعوية، كان يُشار إليهم غالباً باسم التتار أو التُّتر، وهو اسم كان يُطلق على إحدى مجموعاتهم وهي قبيلة التتر، وكانت القبائل المغولية في مستهل القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، تُعيش في هضبة منغوليا الواقعة شمال صحراء جوبي في أواسط آسيا، بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال خنجان (Khingan)، على حدود منشوريا في الشرق [١].

وقد استطاعوا أن يؤسسوا لهم أكبر إمبراطورية عالمية عرفها تاريخ البشرية في اقصر مدة، حيث تكونت إمبراطوريتهم الواسعة الأرجاء، والمترامية الأطراف في خلال الثلاثة عقود الأخرى من الجزر اليابانية والمحيط الهادي شرقاً إلى قلب القارة الأوربية غرباً، ومن سيبريا وبحر البلطيق شمالاً، إلى الحدود الشمالية للجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين جنوباً.

وكانت هذه القبائل تَعيش على الصيد والقَنص، ويتغذون باللحم ولبن الخيل [٢].

ولم يكن لهم دورٌ يُذكر في التاريخ قبل ظهورجنكيزخان، بل كانوا ينقسمون إلى عدة قبائل كما يلي.

القبائل المكونة للمجتمع المغولي.

١ ـ قبيلة القيات الصغيرة، التي ظهر منها جنكيزخان وكانوا يَسكنون على شواطيء الشّعب العُليا الآمور، وجبال قراقورم، أي يابلونوي الحالية (Iablonoi) ولم يكن لهم شأن بين الأمم حتى في أول أيام جنكيزخان، لأنهم كانوا لا يَزيدون على ٤٠.٠٠٠ خيمة،فإذا حسبنا في الخيمة عشرة أنفس لم يَزد

عدد هم على ٤٠٠.٠٠٠ نفس، فَحَمل جنكيزخان بهذا العدد القليل من بدو المغول على مـ يُحيط ببلادهم من الممالك العامرة، فاكتسحوها في بضعة عشر عاماً [٣].

٢ ـ قبيلة الأويرات، وكانوا يُقيمون في المنطقة الواقعة مابين نهر أونن (Onan) وبحيرة بايكال، وكانوا كثيري العدد، وقد انقسموا إلى عدة فِرق، إلا أنهم كانوا يأتمرون بأمر ملكٍ واحد، ولما جاء جنكيزخان استطاع أن يُخضعهم لطاعته، وكانت تلك القبائل تتكلم بلغة تختلف قيلاً عن لغة القبائل والطوائف المغولية الأخرى [٤].

٣ ـ قبيلة النايمان، وهي من قبائل الأتراك الذين غَلبَ عليهم الطابع المغولي، وكانوا يُقيمون في أقاصي الغرب بين أعالي نهر أرتش ونهر أرخون، شمال جبال آلتاي. وحول البحيرات الواقعة بتلك المنطقة. كما كانوا يمتلكون غرب منغوليا كله، ابتداء من شمال نهر آورخون إلى نهر آيرتيش، وبسبب اقتراب هذه القبيلة من قبائل الأوغور في الجنوب، فقد اعتنقوا الديانة المسيحية حسب الطقوس النسطورية، وكان النايمان بدو رُحل يُقيمون يقيم بعضهم في الجبال الوعة والبعض الآخر في الصحراء. وقد استعاروا مباديء ثقافتهم من الترك والأيغوريين جيرانهم في الجنوب، وكان النايمان يُعدون من أرقي أنواع الترك في هذا الوقت، وكانوا يتكلمون اللغة المغولية [٥]. ٤

ـ قبيلة الكرايت (Kerait) وكانت تَقطن الواحات الشرقية لصحراء جوبي [٦].

وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين، وكانت هذه القبيلة من أقوى قبائل المغول في القرنين الخامس والسادس الهجريين، واستطاعت السيطرة على معظم القبائل التي حولها، وقد اعتنق رئيس هذه القبيلة الديانة المسيحية عام ٣٩٨هـ/١٠٠٨م، وأنه قد ذاع أمره في أوروبا، وراجت الأساطير والخرافات عن هذه الطائفة وملكهم. ومنذ ذلك الحين صاروا يَعتنقون النسطورية على يد أسقف نسطوري مقيم في مرو، وفي القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، اتخذ

زعماؤهم أسماءً مسيحية [٧].

وكان طغول من أشهر ملوكهم، وقد استطاع أن يطرد عمه الذي كان ينافسه على العرش، وذلك بمساعدة رئيس المغول: يسوكاي والد جنكيزخان الذي ظل من أتباعه، وقد استطاع طغول أن يَهزم التتار، وصار بذلك أقوى ملك ورئيس قبيلة في منغوليا، فمَنحه الامبراطور(كين) الصيني القب الصيني للملك، وهو: وانج wang. وعُرف طغول في التاريخ بلقبيه الملكيين، الصيني والتركي: وهما: وانج خان [٨].

٥ ـ قبائل المركييت (Markit) وهم من المغول، وقيل إنهم مستقلون عن الشعب المغولي، ولكنه كان قوياً وصاحب نفوذ كبير، وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمالي بلاد الكراييت على مجرى نهر سلنجا، وجنوبي بحيرة بايكال، وكان لهم جيش قوي ذو بأس شديد، وعُرف عن هؤلاء القوم ميلهم إلى الشغب وإثارة الفتن، ولهذا شنّ عليهم جنكيزخان حرباً شعواء، استعمل فيها أقصى ما عُرف عن المغول القسوة والشدة، ولم يقف عند هذا الحد، بل أصدر جنكيزخان أوامر بالقضاء عليهم جميعاً، فلم ينج من سيوف رجاله إلا القليل من الهاربين، أو من استطاعوا الاختفاء لدى أقاربهم، أو من كانوا لا يزالون أجنة في بطون أمهاتهم [٩].

٦ ـ قبائل التتار، وكانوا يَقطنون المنطقة التي تُحد شمالاً بنهري " أرخون " و "سيلنجا " (Selenga) ومملكة القرغيز، وشرقاً بإقليم الخطا (الصين الشمالية) وغرباً قبائل الأويغور، وجنوباً بإقليم التبت [١٠]

. وقبائل التتار من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشاً وجبروتاً في أقاليم آسيا الشمالية، وكانوا يتمتعون باحترام زائد نتيجة قوتهم، بالإضافة إلى أنهم كانوا أكثر القبائل رفاهية وتنعماً [١١].

وكان التتار في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي. قسمين: الأول: تسع قبائل، والثاني: ثلاثين قبيلة، وكانوا يَسكنون جنوب غربي بحيرة بايكال، وحتى نهر كيرولين، وهم ثلاث أقسام:

١ - التتار البيض: وهم الذين ينزلون خارج سور الصين.

٢ - التتار السود: وكانوا ينزلون شمال صحراء جوبي، وكانوا بدواً رحلاً.

٣ - تتار الغابة: وكانوا يعيشون حول الروافد العليا لنهري أونون، وكيرولين، ومارسوا حياة الصيد.

ومع أن المغول الذين قاموا بالغزوات والفتوح المشهورة في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، كانوا يُعرفون باسم التتار في كل مكان، كما سُحب على أسلاف جنكيز خان، وعلى النايمان، إلا أن التتار كانوا قبائل مستقلة عن المغول، بينما صار اسم مغول يُطلق على جميع الشعوب التي خَضعت لجنكيز خان بعد قهره لها، ولم تلبث لفظة تتار أن تغلبت عليها، خاصة في الجهات الغربية من الإمبراطورية المغولية، مع العلم بأن لفظي: المغول والتتار، اسمان لقبيلتين كانت تعيشان في القسم الشرقي من آسيا الوسطى، وفي الشمال الغربي من الصين، على انهار اولدزا وكيرولين، وأرخون، واونون وسائر روافد نهر عامور[١٢].

وكانت قبائل التتار في صراع دائم وشديد مع قبائل المغول، وكانت مراعي المغول تمتد صيفاً حتى اقاصي سيبريا، وقد كان كلاً من الشعبين التتري والمغولي، وهما ابناء عمومة مع التُرك، يعيشان على الرعي، إلا أنه كان للتتار حضارة بدائية، نتيجة احتكاكهم بالصينيين. بل إن آخر الأُسر الحاكمة لشمال الصين قبل سقوطها في أيد جنكيزخان كانت تَرجع أصولها إلى التتار!! و حين ظَهرت حركة جنكيزخان قتل الكثير من التتر، ثم استطاع توحيد الشعبين؛ وذلك في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، وكان هو قد بلغ الأربعين من العمر، حيث ولد ما بين ١١٦٥م، و١١٦٧م. ثم قادهما لغزو الصين، وأَطلقَ اسم التتار علي نفسه وقبيلته، ربما لما كانوا يتمتعون به من القوة والشجاعة والثراء والنُّبل، فصار يُعرف هو وقبيلته المغولية ومن انضم تحت لوائه من التتر الأصليين، باسم: التتر، ثم انطلق بهم لبلاد خوارزم وفارس وروسيا، ثم بلاد العرب.. إلخ [١٣].

ومن المعلوم أن المغول في بدء هجومهم على العالم الإسلامي كانوا يُعرفون بالتتار، كما أُطلق عليهم اسم: المغول، ومُغل. واشتهروا في التاريخ بهذه الأسماء [١٤].

وسُرعان ما اتسعت مملكة جنكيزخان، حتى بلغت حدودها من كوريا شرقاً، إلى حدود الدولة الخوارزمية الإسلامية غرباً، ومن سهول سيبريا شمالاً إلى بحر الصين جنوباً. أي أنها كانت تضم من دول العالم حاليًّا: الصين ومنغوليا وفيتنام وكوريا وتايلاند وأجزاء من سيبيريا، إلى جانب مملكة لاوس وميانمار ونيبال وبوتان [١٥].

كانت هذه القبائل مستقرة في السهول الواقعة بين سلاسل الجبال في هذه المنطقة، حيث الدفء شتاءً وحيث تتوافر المراعي لحيواناتهم، وفي الصيف يَستقرون في المرتفعات وأعالي الجبال لمدة شهرين أو ثلاثة، حيث تكون المنطقة باردة، وتتوافر فيها المياه والمراعي [١٦]. وقد أسهم البُعد الشديد لهذه المناطق عن البحر، فضلاً عن ارتفاعها عن سطحه، في إكسابها مناخاً قارياً، إذ تتراواح درجات الحرارة في معظم أجزائها ما بين ٣٨ فوق الصفر، و٤٢ تحت الصفر؛ مما يؤدي إلى تجميد أنهارها وبحيرتها فترة طويلة من السنة، بالإضافة إلى الرياح الشديدة التي تهب عليها من منطقة سيبيريا الواقعة شمالاً [١٧].

وقد انعكست هذه الحالة في فصل الصيف، حيث تَرتفع الحرارة وتهب الرياح الشديدة المحملة بالأتربة [١٨].

في هذه البيئة القاسية، كانت هذه القبائل، التي تعيش على الصيد والرعي تتنقل وراء الماء القليل في صحراء جوبي، التي تعني الجدب والفقر [١٩].

سواء في السهول بين الجبال، أو في المرتفعات، وكانت كلما زحف الجفاف وقل العُشب تَرحَّلوا إلى منطقة أخرى مجاورة، تَدفعهم الحاجة وكثرة القُطعان، وكان ذلك طبيعياً بالنسبة لهم، عدم الاسقرار في مكان معين [٢٠].

حتى إننا نجد المغولي يُكن لحرفة الزراعة كراهية شديدة. وعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تَسكن بعض السهول الخصبة أحياناً، إلا أنهم لم

يُحاولوا زراعتها، بل كانوا يُهاجرون في فصل الصيف من السهول إلى الجبال، فإذا انعدم فيها العشب رحلوا عنها، حيث يتعذر عليهم البقاء مع قُطعانهم بها [٢١].

وإذا احتبست الأمطار أو تعرضت المراعي للآفات وقلة الأعشاب تبعاً لذلك وجد الراعي نفسه أمام خطر فقدان ماشيته، وهي مصدر رزقه، ثم التعرض للمجاعة وهذا بدوره يَدفعه إلى السرقة، والنهب والسلب ممن يجاورونه من السكان الذين يشتغلون في الزراعة، ومن هنا تقوم الحروب والغارات والاعتداءات والأخذ بالثأر[٢٢]..

وبالرغم من وحدة أصول هذه الأقوام، إلا أنه كانوا ينقسمون إلى قبائل عديدة تتزايد أعدادها يوماً بعد يوماً بِحكم انقسامها على نفسها وانفصالها عن بعض حاملة أسماء جديدة، تفرعت إليها وعرفت بها[٢٣].

الحياة الاجتماعية عند المغول

كان المجتمع المغولي يقوم على الطبقية، فقد كانت القبيلة مقسمة إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: وهي طبقة النبلاء، وكانوا يلقبون بالألقاب: هادر، أي الباسل. وتوبان، أي النبيل، وستسن، أي الحكيم.

والطبقة الثانية: هي طبقة النوكور، أي الأحرار. وعلى هؤلاء كان يرتكز النظام العسكري والسياسي في منغوليا، زمن جنكيز خان" وكانوا يؤلفون طبقة المحاربين والموالين له.

والطبقة الثالثة: هي طبقة العامة، وطبقة الأرقاء وكان لكل جماعة أو عشيرة من المغول رئيساً، قد يكون ملكاً "خان، قان" أو زعيماً "باكي أو بكي، وبهذا اللقب اشتهر رؤساء قبائل الغابة أمثال "أويرات، ومركيت [٢٤].

وكانت بعض القبائل الصغيرة تلجأ أحياناً إلى إحدى القبائل الكبيرة على عادة البدو في كل مكان، وذلك لعجزها عن الدفاع عن نفسها كما حدث

لقبيلة الجلائر، في علاقاتها مع أجداد جنكيز خان، وما جرى أيضاً لقبيلتي: القنقرات، والأويرات. حينما خضعتا لجنكيز خان.

لقد أثَّرت البيئة التي عاشت فيها تلك القبائل تأثيراً كبيراً على حياتهم الاجتماعية والاقتصادية، فمناخها القاري والسعي وراء الأعشاب لرعي الماشية والأغنام، فرضت عليهم مع مرور الزمن نمطاً معيناً من الحياة. فقد عاش الترك المغول الذين أقاموا في منطقة الغابات، حول بحيرة بايكال، ونهر عامور، عيشة المتبربرين، حيث يَعيشون على صيد الحيوانات في الغابات، وعلى صيد السمك في الأنهار والبحيرة.

وأما الذين كانوا يَعيشون في الاستبس، فقد عاشوا على تربية الخيل والماشية والأغنام، يلتمسون العشب، ويسير الرجل في أثر قطعانه، وتوزيع المراعي والمياه حدد مجال تحركهم في فصول السنة، وكثيراً ما كانت تحرُكاتهم نحو المراعي سبباً في المنازعات والغارات والسلب والنهب، وما كان يُمارسه الرُّعاة من التدريب المستمر على ركوب الخيل، والسعي لاكتشاف المراعي والمياه، واستخدام الأسلحة، وما يتصفون به من قوة الاحتمال، ومعاناة الجهد والتعب، والشجاعة، والميل إلى الحركة، وحب المخاطر، واتساع الأفق، وحب التسلط، كل ذلك جَعل رجال هذه القبائل عبارة عن جنود بارعين وجيوش جاهزة في كل لحظة [٢٥].

وعندما جاء جنكيز خان واستطاع توحيد هذه القبائل تحت حُكمه، نظَّم لهم نوعاً من الحياة الاجتماعية، مستفيداً من التجارب التي عاشها والشدائد التي عاناها، وما قام به من حروب وغزوات، وكان ذلك كله مسطوراً فيما يُعرف بالياسا، وهي أحكام أو دستور "جنكيز خان" دونها له الاويغور بخطهم وهي مزيج من القوانين موضوعة على ارادة الخان المغولي تسجل العادات القبلية كان المغول يرجعون إليها عندما يجلس خان جديد للعرش، وفي حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال. ذلك لأنه كان حريصاً على جمع كلمة القبائل الخاضعة له، وعلى كبح جماحها، والزامها بالنزول على حُكمه، فاشتمل هذا القانون على

عقوبات بالغة الصرامة، حتى يَقضي على أسباب الفوضى، ويُعيد الأمن إلى نصابه.

وتحدد في هذا القانون علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، وعلاقة الفرد بالمجتمع [٢٦].

وقد نجح جنكيز خان، في هذا الغرض واستطاع أن يُحول جموع المغول إلى جيوش منظمة، تسير وفقاً لخطط حربية مرسومة، وكان المغول يتخذون طعامهم من لحوم الحيوانات على اختلافها: من خيول وكلاب وذئاب وثعالب وفيران، وغذائهم قليل وخاصة في الشتاء، إذ تقسوا عليهم الطبيعة، ولهم طريقة في حفظ اللحوم، وهي أنه إذا مات عندهم حيوان قطعوا لحمه شرائح رقيقة وعلقوها في الشمس والهواء لتجف دون أن تعتريها العفونة [٢٧].

وكانت ملابسهم بسيطة جداً تتفق والبيئة التي يَعيشون فيها، وكانت في الغالب مصنوعة من أصواف أو وبر الإبل أو من جلود الحيوانات، ولم يكن سمة فرق كبير بين ملابس الرجال وملابس النساء، وكان من عادة المغول أنهم لا يُغيرون ملابسهم طول فصل الشتاء، وأما في الصيف فيكتفون لتغيرها مرة واحدة كل شهر، ومن عادتهم ألا يغسلوا ثيابهم أبداً بل يلبسونها حتى تُبلى، حيث كان غسل الملابس ضد عقيدتهم، وكان من عادتهم أن يَطلوا أجسادهم بالشحم اتقاء البرد والرطوبة [٢٨].

دين المغول

إن دارس تاريخ هؤلاء القوام يَجد صعوبة في التعرف على المبادئ الصحيحة، فبعض المراجع تذكر نتفاً قليلة لا تشفى غليلا وبعضهم لا يذكر شيئاً، فقد قال ابن كثير عن عقيدتهم: وهم مع ذلك يَسجدون للشمس إذا طلعت، ولا يحرمون شيئاً، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات [٢٩].

ولقد وضع لهم مؤسس دولته الأول جنكيز خان قانون دولتهم، ودستور عملهم، وكتابهم الذي يعتقدونه ولا يُخلفون منه شيئاً، فقد وضع لهم كتاب: الياسا أو

السياسا التي يتَحاكمون إليها، ويحكمون بها، وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى وكتبه، وهو شئ اقترحه من عند نفسه، وتبعوه في ذلك، وكتابه الياسا أو السياسا يُكتب في مجلدين بخط غليظ، ويحمل على بعير عندهم، وقد ذكر بعضهم أنه كان يصعد جبلا ثم ينزل، ثم يصعد ثم ينزل مرارا حتى يعيى ويقع مغشياً عليه، ويأمر من عنده أن يكتب ما يلقى على لسانه حينئذ. فإن كان هذا هكذا فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها.

وذكر الجويني: أن بعض عبادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة فسمع قائلا يقول له إنا قد ملكنا جنكيزخان وذريته وجه الارض.

قال الجويني: فمشايخ المغول يصدقون بهذا ويأخذونه مسلما.

ثم ذكر الجويني بعضاً من الياسا من ذلك: أنه من زنا قتل، محصنا كان أو غير محصن، وكذلك من لاط قتل، ومن تعمد الكذب قتل، ومن سحر قتل، ومن تجسس قتل، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل، ومن بال في الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل، ومن أطعم أسيرا أو سقاه أو كساه بغير إذن أهله قتل، ومن وجد هاربا ولم يرده قتل، ومن أطعم أسيرا أو رمى إلى أحد شيئا من المأكول قتل، بل يناوله من يده إلى يده، ومن أطعم أحدا شيئا فليأكل منه أولا ولو كان المطعوم أميرا لا أسيرا، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل، ومن ذبح حيوانا ذبح مثله بل يشق جوفه ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولا.

وفي ذلك كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الانبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الانبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه ؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين [٣٠].

وقد جاء في حديث لأحد ملوكهم وهو منكو خان ١٢٥١م - ١٢٦٠م، في لقائه مع الرحالة رويركي قال: ... نحن المغول نعتقد بأن هناك إلهاً واحداً له نحيا وله نموت وعندنا قلب يخفق بحبه، لكن الله أعطى اليد أصابع مختلفة كذلك أعطى الناس طرقاً مختلفة، فقد أعطاكم الكتاب المقدس، لكن المسيحيين لم

يحافظوا عليه،وقد أعطى الشماناس ونحن نفعل ما يأمروننا به ونعيش بسلام [٣١].

وذكر الجويني: ... أن جنكيز خان لم يكن متحمساً لدين مُعين، وأن أولاده مالوا مع رغباتهم، فمنهم من مال إلى الإسلام ومن مال إلى المسيحية، وآخرون إلى عبادة الأصنام، وغيرهم حسب قاعدة الآباء والأجداد[٣٢].

وأما ابن فضل الله العمري فيقول: ... الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله، وأنه خلق السماوات والأرض [٣٣].

الديانة التي يعتنقها المغول

كانت الديانة الرسمية للمغول تسمى: بالشامانزم. وتتمثل في عبادة مظاهر الطبيعة وخاصة الشمس، وتمتاز بشدة الطاعة لكهنتها الذين يتولون بدورهم الحياة الخاصة لأتباعها، كما يَدل على ذلك حديث منكوخان إلى الرحالة رويركي. ولم تستطع تعاليمها الصمود أمام الدِّيانات الأخرى التي احتك بها المغول عندما غَزو البلاد، الأمر الذي أدى إلى ذوبان ديانته الباطلة تلك. وتحول المغول عنها إلى البوذية في الصين، والإسلام في البلاد الإسلامية والمسيحية في روسيا [٣٤]. وأما أرنولد فقال: كانت الشامانية الديانة القديمة للمغول، الذين كانوا على الرغم من اعترافهم بإلهٍ عظيم قادر، لا يؤدون له الصلوات، وإنما كانوا يعبدون طائفة من الآلهة المنحطة، وبخاصة تلك الآلهة الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا، لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم [٣٥].

كما كانوا يَعبدون ارواح أجدادهم القدامى، التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم، ولكي يُوَفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السفلي،كانوا يلجأون إلى القسيسين، وهم الشامان والسحرة أو إلى رجال الطب، الذين كانوا يَعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب، على عناصر الموتى وأرواحهم، ولم يكن دينهم معدوداً من تلك الأديان التي تستطيع

أن تقاوم كثيراً جهود هذه الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار، ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل، وذات الهيئات المنظمة، للمعلمين الدينيين، ومن ثم تأثر المغول بديانات تلك الشعوب، عندما تعاملوا معها [٣٦].

هكذا كان حال عقيدة المغول وتدينهم قبل تحركهم العسكري، وتجوالهم في بلاد العالم الإسلامي والمسيحي، أما عن تلك العقائد التي كانوا يتمثلونها، فما هي إلا نتف ومعلومات شتات خلطوه. وربما كانت عندهم من القدم عقيدة سماوية، ولكن التدخلات البشرية من بعض الحكام أو العلماء، بالإضافة أو الحذف إتباعاً للهوى أو وصولاً إلى شهوة ، أو رغبة في انتقام أو إظهاراً لمكانة، أو غير ذلك، كل هذا جعل هذه العقيدة تصل إلى هذا الشكل المشوه، ولكن المتفحص لهذه النتف القليلة يُرجح أن هذه النصوص ما هي إلا بقايا عقيدة وصلت عنهم مشوهة، خاصةً وهم يعترفون بوجود إله واحد وأنه خلق السماوات والأرض، ولكنهم يُشركون معه بعض المخلوقات، مثل الشمس والأرواح وغيرها، وهم يستنكرون القتل والزنا واللواط، والكذب، والسحر، والتجسس، وكلها من صميم النواهي والمحرمات، التي حرمها الله سبحانه وتعالى على عباده بواسطة الرسل الكرام.

وإذا وجدنا العقاب قاسياً على بعض هذه الجرائم، فإن هذه القسوة علامة التشويه التي وضعتها يد الإنسان الظالمة، ظانين أنهم بهذا إنما يكملون نقصاً أو يستفيدون من تجربة.

ويري البعض أن تلك النواحي، وهذه الشعوب كانت لها عقيدة صحيحة شوهتها الأيام، وأنا لا أظن ذلك، فلم يكن قبل الإسلام عقيدة سليمة بصورة كاملة، ولا يُعقل أن يكون الإسلام وصل إليهم ثم تلاشت تعليماته في هذه الفترة الوجيزة، فهم في أواخر القرن الخامس الهجري، بل أرجح أنهم كانوا يتبعون هواهم، وما عرفوه من خلال رحلات قام بها بعضهم، أو من خلال غُرباء قَدِموا عليهم. إلى أن جاء جنكيز خان فأمر بكتابتها بالخط الأويغوري وكتبت بعد أن اضاف إليها ما يعتقد أنه ينفع أمته ويقوي ملكه [٣٧]..

وكان من آداب هؤلاء القوم: الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة، وأن يعرضوا عليه أبكارهم الحسان ليختارلنفسه ومن شاء من حاشيته ما شاء منهن، ومن شأنهم أن يخاطبوا الملك باسمه، ومن مر بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير استئذان ولا يتخطى موقد النار ولا طبق الطعام، ولا يقف على أسكفة الخركاه ولا يغسلون ثيابهم حتى يبدو وسخها، ولا يكلفون العلماء من كل ما ذكر شيئا من الجنايات، ولا يتعرضون لمال ميت، ومكارم أخرى كان يَفعلها لسجيته، وما أداه إليه عقله وإن كان مشركا بالله، ويعبد معه غيره، وقتل من الخلائق ما لا يعلمه إلا الله تعالى (٣٨).

العالم الإسلامي حتى أوائل القرن السابع الهجري

حالة العالم الإسلامي قبل المغول

لقد كان العالم الإسلامي في نهاية القرن السادس الهجري وأول القرن السابع، وهي نفس الفترة التي بدأ فيها ظهور المغول، كان منقسماً إلى مجموعة من الدول، والممالك والدويلات الصغيرة؛ بعضها قوي وبعضها ضعيف، سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية، كما أن هذه الممالك والدويلات بالتنازع مع بعضها البعض من أجل السيطرة أو التوسع على حساب الأخرى [1].

وكان الحكام المتنازعون يُؤثرون مصالحهم الشخصية على مصالح المسلمين العليا، وهو ما يحدث الآن في العالم العربي، حيث كل رئيس يعض على تلابيب كرسيه، ولا ينوي تركه. وقد ضاقت بالناس السبل، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فلم يجدوا إلا الثورة في وجه الحكام، فمنهم من أفلح سعيه، ومنهم من ينتظر الفرج.

لقد تخلى حكام الدول والممالك الإسلامية عن روح الإسلام، في سلوكهم الخاص ومعاملاتهم لشعوبهم أو لبعضهم بعضاً. لقد تخلوا عن قواعد الإسلام ومبادئه وانحرفوا عنه انحرافاً شديداً وانتشرت بينهم الموبقات، من معاقرة للخمر، وقتل الوقت بحضور حفلات الرقص الماجن وارتكاب الفواحش، واللهو الخليع، وقد تبعهم في ذلك كبار قادتهم، وأهل بيتهم. وكثير ممن يلوذ بهم من الناس، ولما لا ؟ والناس على دين ملوكهم، وكان من نتيجة تخليهم عن أخلاق الإسلام فقدان روح التضحية وحُب الاستشهاد مما أضعف الروح المعنوية في حروبهم مع المغول وذلك هو "الوهن" الذي حذر منه الرسول الكريم.

ليس هذا فحسب كل ما انتاب العالم الإسلامي، بل لقد طمع كل ملك أو

سلطان فيما في يد الآخر، فوقعت الشقاقات والخلافات بين الدول والممالك الإسلامية، ونشبت الحروب بين تلك البلاد، ووقعت القتلى، وأخذ المنتصر الأسر من المنهزم، وكأنه يتحارب مع عدو أصيل!

وما يعنينا من العالم الإسلامي على وجه الخصوص في هذا الموضوع، هو الجانب الشرقي منه، أما الغربي منه في المغرب والأندلس فلقد كان فيه ما يكفيه من الصراعات الداخلية، بالإضافة إلى مقاومة حركة الاسترداد القائمة من قبل أسبانيا النصرانية، وأما الجانب الشرقي من العالم الإسلامي، فقد كانت تتقاسمه عدة دول، ففي بلاد فارس أو إيران، كانت تقوم الدولة الخوزمية التي امتدت حدودها من جبال أورال في الشمال إلى الخليج العربي في الجنوب، ومن جبال السند شرقاً إلى حدود العراق غرباً، وفي العراق كان الخليفة العباسي في بغداد وله السيادة الروحية ذو الفعلية، أما القوة السياسية والعسكرية فقد زالت عن هذه الخلافة، ولم يَعد لهذا الخليفة من القوة إلا أن يَطلب الدعوة على المنابر في صلاة الجمعة أو المناسبات، أو الأزمات بأن يوفق الله المسلمين، أو الاستنفار للجهاد [٢].

أما الدولة الأيوبية في مصر والشام، فقد كان لها مشاكلها خاصة مع مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية على الساحل الشامي، ومما يَزيد المشكلة تعقيداً أنه مع ظهور أخطأ المغول كانت الحملة الصليبية الخامسة قد استولت على برج مدينة دمياط عام ١٢١٨م، مما أدى إلى وفاة الملك العادل، ثم انقسام البيت الأيوبي إلى عدة ممالك، أهمها مصر، وعلى رأسها الملك الكامل - ٦١٥ - ٦٣٦هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨م، ودمشق على رأسها الملك المعظم عيسى - ٦١٥ - ٦٢٤هـ / ١٢١٨ - ١٢٢٧م.

وكان هناك دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وهي الدولة التي ظلت في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية منذ نشأتها حتى نهايتها، يُضاف إلى ذلك أخطار الصليبيين في بلاد الشام، ثم العالم الغربي بعد سقوط القسطنطينية في أيدي الصليبيين من قوات الحملة الصليبية الرابعة، عام ١٢٠٤م [٣].

نظرة سريعة على أحوال العالم الإسلامي

حال الخلافة العباسية

الخلافة العباسية أو الدولة العباسية - (١٣٢- ٦٥٦هـ، ٧٥٠- ١٢٥٨م)، هي التي حكمت العالم الإسلامي بعد أن تمكنت من القضاء على آخر خلفاء الدولة الأموية، في سنة ١٣٢ هـ. على يد السفاح، أبو العباس - (١٠٤ - ١٣٦هـ، ٧٢٢ - ٧٥٤م). وكانت في مطلع القرن السابع الهجري قد ضعفت جداً، حتى أصبحت لا تُسيطر حقيقة إلا على العراق، وقد اتخذ من بغداد عاصمة لها منذ سنة ١٣٢ هجرية. وكان حول العراق في هذه الفترة التي نتحدث عنها، عشرات من الإمارات المستقلة استقلالاً حقيقياً عن الخلافة العباسية، وإن كانت لا تُعلن نفسها كخلافة منافسة للخلافة العباسية، فتستطيع أن تقول: إن الخلافة العباسية كانت خلافة صورية وليست خلافة حقيقية، لقد كانت كالرمز الذي يُحب المسلمون أن يَظل موجوداً، حتى وإن لم يكن له دور يذكر، تماماً كما يُبقي الإنجليز الآن على ملكة إنجلترا كرمز تاريخي فقط، دون دورٍ يُذكر لها في الحكم، بخلاف الخليفة العباسي الذي كان يَحكم فعليًا منطقة العراق باستثناء الأجزاء الشمالية منها [٤].

وكان خلفاء من بني العباس يتعاقب على حكم المسلمين في العراق، يحملون لقب: الخليفة العباسي، أو خليفة المسلمين، ولكنهم في هذه الفترة التي نتكلم عنها، ما اتصفوا بهذا الاسم أبداً، ولا رغبوا أصلاً في الاتصاف به. فلم يكن لهم من همّ إلا جمع المال، وتوطيد أركان السلطان في هذه الرقعة المحدودة من الأرض، لقد ألم بهم الضعف وحب الدنيا معاً، ولم ينظروا نظرة صحيحة أبداً إلى وظيفتهم كحكام، لم يُدركوا أن من مسئولية الحاكم أن يوفر الأمان لدولته، ويقوي من جيشها، ويَرفع مستوى المعيشة لأفراد شعبه، ويَحكم في المظالم، ويرد الحقوق لأهلها، ويجير المظلومين، ويُعاقب الظالمين، ويُقيم حق الله عز وجل على العباد، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويُدافع عن كل ما يتعلق بالإسلام، ويوحد الصفوف والقلوب، وكيف له أن يفعل ذلك!؟ إنه ساعتها

سيكون أو من يَقع عليه العقاب.

لم يدرك هؤلاء الخلفاء هذه المهام الجليلة للحاكم المسلم، كل ما كانوا يُريدونه فقط هو البقاء أطول فترة ممكنة في كرسي الحكم، وتوريثه لأبنائهم، وتمكين أفراد عائلتهم من رقاب الناس، وكذلك كانوا يَحرصون على جمع الأموال الكثيرة، والتحف النادرة، ويَحرصون على إقامة الحفلات الساهرة، وسماع الأغاني والموسيقى والإسراف في اللهو والطرب، واقتناء الغلمان. حياة لا تصلح أن تكون لفرد من عامة الأمة الإسلام، فضلاً عن أن تكون لحاكم الأمة الإسلام نفسه لقد ضاعت هيبة الخلافة، وتضاءلت طموحات الخليفة! فكان المصير المحتوم لها، في أوائل القرن السابع الهجري [٥].

ولقد كانت علامات الضعف قد ظهرت على الخلافة العباسية في بغداد قبل ظهور خطر المغول، وهذا الضعف كانت له جذوره العميقة التي بدأت منذ سيطرة العناصر الفارسية بمنصب الوزارة في الخلافة العباسية، الأمر الذي أظهر خلافاً بين العرب والفرس، وما تلى ذلك من أحداث أدت إلى دخول العناصر التركية إلى السلطة في بغداد، وبذلك أصبح يتطلع إلى السلطة ثلاثة عناصر، هي: العرب والفرس والأتراك وقد نتج عن هذا كله طمع حكام

وقد استأثر حكامهم بالسلطة، واتخذوا لقب السلطان وطغى نفوذهم على نفوذ الخلفاء العباسيين وكان بوسعهم إلغاء الخلافة العباسية تماماً، ولكنهم لم يقدموا على هذه الخطوة خشية العالم الإسلامي السني، لأن دولة بني بوية كانت من طائفة الشيعة، وكان لهذا كله اثره الكبير على هيبة الخلفاء العباسيين، وبدأ حكام الولايات في الاستقلال، بولاياتهم، والاكتفاء بالولاء الأسمى للخلافة العباسية، ومن هنا تمزقت الروابط القوية التي تربط الخلافة بتلك الولايات، ومع هذه الحركات الاستقلالية أو الانفصالية بدأت ملامح فساد الإدارة داخل الخلافة، الأمر الذي أدى إلى محاولة البعض الإنفراد بالسلطة، وتعرضت الخلافة العباسية، لسيطرة الأتراك السلاجقة. بعد أن أزالوا النفوذ البويهي من بغداد . وهم مسلمون من السنة.

وقد سيطر هؤلاء على الخلافة، واتخذ حكامهم لقب سلطان، وعُرف حكامهم الأوائل باسم السلاطين العظام، وبقي الخليفة في بغداد لا حول له ولا قوة، وتَصرف هؤلاء السلاطين في الأراضي والمدن ومَنحوها إقطاعيات للأمراء وذوي الشأن، وعندما انهار سلطان السلاجقة العظام، كانت أعالي الفرات وشمال الشام ثم جنوبه دويلات، لا تتعدى المدينة وما حولها عمل الزنكيون على توحيدها ودَخلت في صراع مع الدولة الفاطمية بمصر.

وأخيراً انفصلت أقاليم الدولة عن الحكومة المركزية في بغداد، وأصبحت عاجزة عسكرياً عن مواجهة أي غزو عسكري، ولم يكن الخطر المغولي كأي خطر عادي. هذه هي أوضاع الخلافة قبل الحروب التي شنها المغول على البلاد الإسلامية ولا يَمنع هذا من ظهور خليفة قوي في وسط هذا الركام من الخلفاء الضعفاء، تُساعده بعض الظروف على القيام ببعض الإصلاحات، ولكنها صحوات تُشبه صحوات الذي يُعاني سكرات الموت، ولم يكن بوسع الخليفة المستعصم - (٦٤٠ . ٦٥٦هـ ١٢٤٢ . ١٢٥٨م)، آخر خلفاء بني العباس، وهو الرجل الضعيف الذي سيطر عليه رجال السوء أن يَفعل شيئاً ضد هذا الخطر الجارف [٦].

كانت دار مقام الخلافة العباسية في أول أمرها بالعراق. وكان أول من ولي منهم الخلافة: أبو العباس السفاح، فبنى المدينة الهاشمية ونزلها. ثم انتقل منها إلى الأنبار، فكانت دار مقامه إلى أن مات، ثم كان بعده أخوه أبو جعفر المنصور، فبنى بغداد وسكنها.

الخلفاء العباسيون في بغداد

١ أبو العباس السفاح - (٧٥٠/ ٧٥٤م ١٣٢/ ١٣٦هـ). سكن الأنبار.

٢ أبو جعفر المنصور - (٧٥٤/ ٧٧٥م ١٣٦/ ١٥٨هـ). باني بغداد.

٣ محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور - (- ٧٧٥/ ٧٨٥م ١٥٨/ ١٦٩هـ).

٤ موسى الهادي بن محمد المهدي - (٧٨٥/ ٧٨٦م ١٦٩/ ١٧٠هـ).

٥ هارون الرشيد بن محمد المهدي - (٧٨٦/ ٨٠٩ م- ١٧٠/ ١٩٣هـ).

٦ الأمين بن هارون الرشيد قتل - (٨٠٩/ ٨١٣م- ١٩٣/ ١٩٨هـ).

٧ المأمون بن هارون الرشيد - (٨١٣/ ٨٣٣م- ١٩٨/ ٢١٨هـ).

٨ محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد - (٨٣٣/ ٨٤٢م- ٢١٨/ ٢٢٧هـ).

٩ هارون الواثق بالله بن المعتصم بالله - (٨٤٢/ ٨٤٧م- ٢٢٧/ ٢٣٢ هـ).

١٠ جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بالله قتل - (٨٤٧/ ٨٦١م- ٢٣٢/ ٢٤٧هـ).

١١ المنتصر بالله بن المتوكل على الله قتل - (٨٦١/ ٨٦٢م- ٢٤٧/ ٢٤٨ هـ).

١٢ أحمد المستعين بالله بن محمد المعتصم بالله - (٨٦٢/ ٨٦٦م- ٢٤٨/ ٢٥٢هـ).

١٣ المعتز بالله بن المتوكل على الله - (٨٦٦/ ٨٧٠م- ٢٥٢/ ٢٥٥هـ).

١٤ محمد المهتدي بن الواثق بالله قتل - (٨٧٠/ ٨٧٠م- ٢٥٥/ ٢٥٦هـ).

١٥ أحمد أبو العباس المعتمد على الله بن المتوكل على الله - (٨٧٠/ ٨٩٢م- ٢٥٦/ ٢٧٩ هـ).

١٦ أحمد أبو العباس المعتضد بالله بن الموفق بن المتوكل على الله - (٨٩٢/ ٩٠٢م- ٢٧٩/ ٢٨٩هـ).

١٧ علي المكتفي بالله بن المعتضد بالله - (٩٠٢/ ٩٠٨م- ٢٨٩/ ٢٩٥ هـ).

١٨ جعفر أبو الفضل المقتدر بالله بن المعتضد بالله خلع مرتين ثم قتل في الحرب - (٩٠٨/ ٩٣٢م- ٢٩٥/ ٣٢٠هـ).

١٩ عبد الله بن المعتز الراضي بالله ولي الخلافة يوما وأحدا - (٩٠٩م- ٢٩٦هـ).

٢٠ محمد القاهر بالله بن المعتضد بالله - (٩٣٢/ ٩٣٤م- ٣٢٠/ ٣٢٢هـ).

٢١ أحمد أبو العباس الراضي بالله بن المقتدر - (٩٣٤/ ٩٤٠م- ٣٢٢/ ٣٢٩هـ).

٢٢ إبراهيم المتقي بالله بن المقتدر بالله - (٩٤٠/ ٩٤٥م- ٣٢٩/ ٣٣٣هـ).

٢٣ عبد الله أبو القاسم المستكفي بالله بن المكتفي - (٩٤٥/ ٩٤٦م- ٣٣٣/ ٣٣٤هـ).

٢٤ المطيع لله ابن المقتدر خلع نفسه - (٩٤٦/ ٩٧٤م- ٣٣٤/ ٣٦٣هـ).

٢٥ عبد الكريم أبو بكر الطائع لله بن المطيع - (٩٧٤/ ٩٩١م- ٣٦٣/ ٣٨١هـ).

٢٦ احمد أبو العباس القادر بالله بن الأمير اسحق بن المقتدر بالله - (٩٩١/ ١٠٣١م- ٣٨١/ ٤٢٢هـ).

٢٧ عبد الله أبو جعفر القائم بأمر الله بن القادر بالله - (١٠٣١/ ١٠٧٥ م- ٤٢٢/ ٤٦٧ هـ).

٢٨ عبد الله المقتدي بأمر الله حفيد القائم بأمر الله لان أباه مات قبله - (١٠٧٥/ ١٠٩٤م- ٤٦٧/ ٤٨٧هـ).

٢٩ احمد أبو العباس المستظهر بالله بن المقتدي بأمر الله - (١٠٩٤/ ١١١٨م- ٤٨٧/ ٥١٢هـ).

٣٠ أبو منصور فضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله قتله الباطنيون - (١١١٨/ ١١٣٥م- ٥١٢/ ٥٢٩هـ).

٣١ أبو جعفر المنصور الراشد بالله بن المستظهر بالله خلعه السلطان مسعود - (١١٣٥/ ١١٣٦م- ٥٢٩/ ٥٣٠هـ).

٣٢ محمد المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله - (١١٣٦/ ١١٦٠م- ٥٣٠/ ٥٥٥هـ).

٣٣ يوسف المستنجد بالله بن المستظهر بالله - (١١٦٠/ ١١٧٠م- ٥٥٥/ ٥٦٦هـ).

٣٤ أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله - (١١٧٠/ ١١٨٠م- ٥٦٦/ ٥٧٥هـ).

٣٥ الناصر لدين الله بن المستضيء بأمر الله - (١١٨٠/ ١٢٢٥م- ٥٧٥/ ٦٢٢هـ).

٣٦ أبو النصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله - (١٢٢٥/ ١٢٢٦م- ٦٢٢/ ٦٢٣هـ).

٣٧ أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر بأمر الله - (١٢٢٦/ ١٢٤٢م- ٦٢٣/ ٦٤٠هـ).

٣٨ أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بالله قتله التتر - (١٢٤٢/ ١٢٥٨م- ٦٤٠/ ٦٥٦هـ).

ثم سكنها بعده ابنه المهدي بن المنصور، ثم ابنه الهادي، ثم أخوه هارون الرشيد بن المهدي، ثم ابنه الأمين، ثم أخوه المأمون، ثم أخوه المعتصم بن الرشيد، ثم الواثق بن المعتصم، ثم أخوه المتوكل، ثم ابنه المنتصر، ثم المستعين بن المعتصم، ثم المعتز بن المتوكل، ثم المهتدي بن الواثق، ثم المعتمد بن المتوكل، ثم المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل.

ثم ابنه المكتفي بن المعتضد، ثم أخوه المقتدر، ثم المرتضي بن المعتز، ثم أخوه القاهر، ثم المقتدر المقدم ذكره، ثم أخوه القاهر المقدم ذكره، ثم ابن أخيه الراضي، ثم أخوه المتقي، ثم ابن عمه المستكفي، ثم ابن عمه المطيع، ثم ابنه الطائع، ثم القادر، ثم ابنه القائم، ثم ابن ابنه المقتدي، ثم ابنه المستظهر، ثم ابنه المسترشد، ثم ابنه الراشد، ثم المقتفي بن المستظهر، ثم ابنه المستنجد، ثم ابنه المستضيء، ثم ابنه الناصر، ثم ابنه الظاهر. ثم ابنه المستنصر، ثم ابنه المستعصم وقتله هولاكو ملك التتار، في العشرين من المحرم سنة ست وخمسين وستمائة وهو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد [٧].

ملاحظة مهمة

يجب هنا، وفي ظل الظروف التي نتكلم فيها ملاحظة: أن الدولة العباسية صار خلفاؤها في أوّل أمرهم، منذ عهد أبي العباس السفاح - (١٠٤ - ١٣٦ هـ = ٧٢٢ - ٧٥٤ م) إلى أيام هارون الرشيد - (١٤٩ - ١٩٣ هـ = ٧٦٦ - ٨٠٩ م)، يستبدون بأمروهم، فلما صارت الخلافة إلى هارون ألقى مقاليد الأمور إلى يحيى

بن جعفر البرمكيّ - (١٢٠ - ١٩٠ هـ = ٧٣٨ - ٨٠٥ م)، فكان بداية سيطرة الوزراء على الخلفاء، فصار يحيى يُوقع على رقاع الرافعين بخطه في الولايات، وإزالة الظلامات وإطلاق الأرزاق والعطيات، فجلّت لذلك رتبته، وعظمت في الدولة مكانته، وكان هو أوّل من وقّع من وزراء خلفاء بني العباس، وصار من بعده من الوزراء يُوقّعون على القصص كما كان يُوقع، وربما انفرد رجلٌ بديوان السرّ وديوان الترسل، ثم أُفردت في أخريات دولة بني العباس، واستقلّ بها كُتاب لم يَبلغوا مَبلغ الوزراء، وكانوا ببغداد يُقال لهم كُتاب الإنشاء. وكبيرهم يُدعى رئيس ديوان الإنشاء، ويُطلق عليه تارة صاحب ديوان الإنشاء، وتارة كاتب السرّ، ومَرجع هذا الديوان إلى الوزير، وكان يُقال له الديوان العزيز، وهو الذي يُخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء [٨].

ثم إن الخلافة العباسية قد أَخذت في الضعف مبكراً، وتناهت في الضعف أيام الراضي بالله بن المقتدر - (٩٣٤/ ٩٤٠م- ٣٢٢/ ٣٢٩هـ)، وتغلب عُمال الأطراف عليها، ولم تعد الخلافة غير اسم فقط.

فاستولى محمد بن رائق من الفرات على البصرة. توفي - (٣٣٠ هـ = ٩٤٢م) كان أبوه من مماليك المعتضد العباسي، وولي محمد شُرطة بغداد للمقتدر سنة ٣١٧ ثم إمارة واسط والبصرة وولاه الراضي إمرة الأمراء والخراج ببغداد (سنة ٣٢٤) وأمر أن يخطب له على المنابر ثم قلده طريق الفرات وديار مضر التي هي حران والرها وما جاورهما وجند قنسرين والعواصم (سنة ٣٢٦هـ). لم يتمكن أحد من الراضي تمكنه وهو الذي قطع يد ابن مقلة ولسانه [٩].

واستولى أبو عبد الله البريدي على خوزستان.

واستولى عماد الدولة بن بويه على فارس - (٢٨١ - ٣٣٨ هـ = ٨٩٤ - ٩٤٩ م)، علي بن بوية بن فناخسرو الديلمي، أبو الحسن، عماد الدولة: أول من ملك من بني بويه [١٠].

واستولى محمد بن الياس على كرمان.

واستولى ركن الدولة بن بويه على الري وأصفهان - (٢٨٤ - ٣٦٦ هـ = ٨٩٧

- ٩٧٦ م). الحسن بن بويه بن فناخسرو الديلمي، ركن الدولة: من كبار الملوك في الدولة البويهية. كان صاحب أصبهان والري وهمذان وجميع عراق العجم. استوزر أبا الفضل ابن العميد، ثم ابنه أبا الفتح. واستمر في الملك ٤٤ سنة وشهرا و ٩ أيام. وهو والد عضد الدولة فناخسرو، ومؤيد الدولة بويه، وفخر الدولة علي، قسم عليهم الممالك في حياته. وتوفي بالري، ومن بعده ظلت الدولة بيد السلاطين، وظلت الخلافة إسمية فقط [١١].

واستولى بنو حمدان على الموصل وديار بكر وديار مضر وديار ربيعة وغير اقطار هذه المملكة مع ملوك أخر [١٢].

ولم يبق للخليفة العباسي غير بغداد وأعمالها واستولى ابن رائق على جميع الأمور، وخُطب باسمه على المنابر، واقام سنة وعشرة أشهر، ثم صار الأمر بعده إلى يحكم مملوك وزير ماكان بن كاكي الديلمي، واستمر أيام الراضي فَقُتِل، واستقر البريدي بعده في أيام المتقي وأيام المستكفي، وضُربت ألقابه على الدنانير والدراهم، وخُطب باسمه على المنابر، واستمر ذلك لذويه من بعده، ثم مَلك بعده بختيار، ثم ابن عمه عضد الدولة بن ركن الدولة حسن بن بويه، ثم ابنه صمصام الدولة بن عضد الدولة، ثم أخوه شرف الدولة شيرزيك بن عضد الدولة، ثم اخوه بهاء الدولة ابو نصر بن عضد الدولة، ثم ابنه سلطان الدولة أبو شجاع، ثم ابنه بهاء الدولة، ثم أخوه مشرف الدولة بن بهاء الدولة، ثم أخوه جلال الدولة أبو الطاهر بن بهاء الدولة، ثم ابن أخيه أبو كاليجار بن سلطان الدولة ابن بهاء الدولة، ثم ابنه الملك الرحيم خسرو فيروز بن كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، وبنو بويه هولاء ينسبون إلى يزدجرد ملك الفرس [١٣].

- ثم كانت الدولة السلجوقية: وهي من أعظم الدول الإسلامية ونسبتهم إلى سلجوق بن دقاق أحد مقدمي الأتراك، وبهم زالت دولة بني بويه عن بغداد وأعمال الخلافة.

وأول من ملك منهم: طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق في سنة ٤٣٢هـ، ثم

ملك بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل، ثم ابنه ملكشاه بن ألب أرسلان، ثم ابنه محمود بن ملكشاه، ثم أخوه بركيارق بن ملكشاه، ثم أخوه محمد بن ملكشاه، ثم ابنه محمود بن محمد ثم ابنه داود بن محمود، ثم عمه طغرلبك بن محمد، ثم أخوه مسعود بن محمد. ثم ابن أخيه ملكشاه بن محمود، ثم أخوه محمد بن محمود.

ثم قام منهم ثلاثة وهم: ملكشاه بن محمود أخو محمد بن محمود، وسليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، وهو عم بن محمود، وأرسلان شاه بن طغرلبك بن محمد بن ملكشاه. ثم قُبض على سليمان شاه، ومات ملكشاه، وانفرد أرسلان شاه بن طغرلبك بالسلطنة. ثم ملك بعده ابنه طغرلبك بن أرسلان شاه، وبقي حتى قَتله علاء الدين خوارزم شاه تكش صاحب خوارزم وبعض خراسان والري وغيرها، في خلافة الناصر لدين الله في سنة ٥٠٩هـ، واشتغل خوارزم شاه عن فصل العراق، فبقي بيد الخلفاء من لدن الناصر لدين الله، ومن بعده إلى أن انقرضوا بفعله هولاكو ملك التتر [١٤].

دول العالم الإسلامي في العصر العباسي

الدولة الطاهرية - (٢٠٥- ٢٥٩هـ،٨٢٠- ٨٧٢م). بدأت في خراسان أسسها طاهر بن الحسين، أحد قواد الخليفة المأمون بم هارون الرشيد - (١٧٠ - ٢١٨ هـ = ٧٨٦ - ٨٣٣ م)، الثقات. فقد ولاه المأمون خراسان سنة ٢٠٥هـ:٨٢٠م. ثم أضاف إليه أعمال المشرق كلها من بغداد، فاتخذ نيسابور قاعدة له في خُراسان.

وعندما مات طاهر سنة ٢٠٧هـ، ٨٢٢م، أقر المأمون ابنه طلحة بن طاهر - (؟ - ٢١٣ هـ = ؟ - ٨٢٨ م)، على ولاية خُراسان، فقابل الطاهريون ثقة المأمون بالإخلاص من جانبهم، وكان عبد الله بن طاهر - (١٨٢ - ٢٣٠ هـ = ٧٩٨ - ٨٤٤ م)، مثلاً في هذا الإخلاص. فقد ولاه المأمون مصر في حياة ابيه، فقضى على الخارجين على الدولة بها، وأَصلح أحوالها، وأقام والياً عليها وعلى الشام والجزيرة. وتتبعوا العلويين للقضاء على حركاتهم، وتعاونوا مع الخلافة

العباسية في القضاء على الحركات المناوئة. وقاتلوا المازيَّار بن قارن صاحب جبال طبرستان عندما خرج على المعتصم، وقَبضوا عليه وأرسلوه إلى المعتصم العباسي، محمد بن هارون الرشيد - (١٧٩ - ٢٢٧ هـ = ٧٩٥ - ٨٤١ م). ومالوا إلى جانب العباسيين في صراعهم مع الدولة الصفّارية.

وأصبحت نيسابور في عهدهم مركزًا من مراكز الثقافة الإسلامية. وسقطت الدولة الطاهرية نتيجة تعرضها لثورات العلويين، وقيام الصفّاريين في وجهها [١٥].

الدولة الصفارية - (٢٥٤ - ٢٨٩هـ، ٨٦٨ - ٩٠٢م)، قامت في جنوبي إيران. وتنسب إلى يعقوب بن الليث الصفار. انتهز فرصة ضعف الخلافة العباسية، واضطراب الأحوال السياسية واستفحال فتنة الزنج، فأغار على أقاليم إيران الجنوبية وفارس وخراسان. وأسقط الدولة الطاهرية، فاعترفت به بغداد أميرًا مستقلاً، وأرسلت إليه الخلافة تقليدًا بولاية خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس وتعيينه أميرًا على شرطة بغداد وسامراء.

لم يقتنع الصُّفار بهذا كله، فأراد السير إلى بغداد ليرغمها على الإذعان لقوته وليحتل فيها مركز الأتراك من قبل، لذلك لم يجد حاربه الخليفة الموفق، فخرج إليه على رأس جيش، فهزمه، حيث انضم جند الصُّفار إلى الخليفة. ولم يلبث يعقوب بن الليث الصفار أن مات سنة ٢٦٥هـ، ٨٧٨م، وخلّف أخاه عَمْرًا، الذي مال إلى طاعة الخلافة. وتخلصت الخلافة من الزنج، ثم اهتمت بالمسألة الصفارية إلى أن قضت على عمرو بن الليث عام ٢٨٣هـ، ٨٩٦م، وبقية أعدائها عام ٢٨٩هـ، ٩٠١م [١٦].

ودولة الأغالبة - (١٨٤- ٢٩٦ هـ، ٨٠٠- ٩٠٨م)، التي استقلت عن الدولة العباسية في تونس.

والدولة الإخشيدية- (٣٢٤- ٣٥٨هـ، ٩٣٥- ٩٦٩م)، التي استقلت عن الدولة العباسية في مصر والشام [١٧].

والدولة الرستمية - (١٣٧ . ٢٩٧هـ، ٧٥٤ . ٩٠٩م)، أقامها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام، من الخوارج في المغرب العربي، بعد أن فر من القيروان إلى موضع مدينة تاهرت الحالية. فتقاطر إليه الخوارج الإباضية من جميع أنحاء المغرب والمشرق. وأعلنوا عدم تبعيتهم للعباسيين [١٨].

والدولة السامانية - (٢٦١ - ٣٨٩هـ، ٨٧٤ - ٩٩٩م). وهي دولة فارسية أسسها سامان، النبيل الفارسي، الذي اتصل بالخليفة الأموي هشام بن عبد الملك. ودخل أسد بن سامان وأبناؤه في خدمة الدولة العباسية. وولّى المأمون أولاد أسد بلاد ما وراء النهر، ورَفع من شأنهم: فولي نوح بن أسد سمرقند سنة ٢٠٤هـ، ٨١٩م، وأحمد فرغانة، ويحيى الشاس وأشروسنة، وإلياس هراة. ولما ولي طاهر بن الحسين بلاد خراسان أقرهم في هذه الأعمال. ولما سيطر الصفاريون على خراسان، جَعل الخليفة العباسي بلاد ما وراء النهر إقليمًا منفصلاً عن خراسان، وأقر عليه السامانيين.

والدولة الحمْدانية - (٣١٧ - ٣٩٤هـ، ٩٢٩ - ١٠٠٣م)، قامت في منطقة الموصل ثم في حلب لتتصدى للإمبراطورية البيزنطية التي بدأت في مهاجمة العالم الإسلامي للاستيلاء على الشام، وانعاش العنصر العربي الذي انزوى بعد تقدم العناصر التركية في العراق، والوقوف في وجه الروم. لذلك فتقلدوا على الموصل وديار ربيعة، واشتهر منهم سيف الدولة الذي تولى إمارة حلب عندما انقسمت الدولة الحمدانية إلى قسمين: إمارة الموصل وإمارة حلب [١٩].

ودولة بني بويه - (٣٢٠ - ٤٤٧هـ، ٩٣٢ ـ ١٠٥٥م). الدولة البويهية قامت في الجزء الغربي من إيران وفي العزاق، وأسستها أُسرة بني بويه. وأشهر رجال أسرة بني بويه الحاكمة ثلاثة هم: علي والحسن وأحمد أبناء بويه. وكان لهم ما أرادوا، حيثُ نجحوا في السيطرة على الخليفة في بغداد [٢٠].

والدولة الفاطمية العبيدية - (٢٩٨ - ٥٦٧هـ، ٩١١ - ١١٧١م). نشأت في شمال إفريقيا، وحكمت في التاريخ ما يقرب من ثلاثة قرون، وامتد حكمها إلى مصر وبعض بلاد الشام، وتنتسب إلى مؤسسها أبي عبيدالله الشيعي الخليفة

الفاطمي المؤسس. فقد بعث أئمة الشيعة العلويون دعاتهم إلى شمالي إفريقيا لنشر دعوتهم بعيداً عن مركز الدولة العباسية. حيث التقى أبو عبيد الله الشيعي في أحد مواسم الحج بحُجاج من قبيلة كتامة البربرية، وأقنعهم بتبني الدعوة الفاطمية، وسافر معهم إلى تونس، فوجد البلاد مهيأة لنشر دعوته بسبب كراهية أهلها للأغالبة والعباسيين. فكوّن قوة عسكرية من الساخطين، فهزم بهم الأغالبة وأنهى حكمهم سنة ٢٩٦هـ، ٩٠٩م، واستدعى عبيد الله المهدي، ونادى به خليفة، ليؤسس بذلك بداية الدولة الفاطمية المغربية. ثم فتحوا مصر سنة ٣٥٨هـ، ٩٦٩م، وأطاحوا بالدولة الإخشيدية. وأسسوا مدينة القاهرة سنة ٣٥٨هـ، ٩٦٩م، والجامع الأزهر سنة ٣٥٩ - ٣٦١هـ، ٩٦٩ - ٩٧١م. وقد امتدت سيطرة الفاطميين على سوريا خلال السنوات - (٣٥٩- ٤٦٨هـ، ٩٦٩- ١٠٧٥م). [٢١].

وقد انتهى نفوذ الدولة العباسية في سوريا عندما احتلها الطولونيون سنة ٢٦٤هـ، ٨٧٧م. واستمر حكم دولة أحمد بن طولون على سوريا حتى عام ٢٩٢هـ، ٩٠٥م، عادت بعدها ديار الشام للنفوذ العباسي. وقد خضعت بلاد الشام لنفوذ الإخشيديين المصريين الذين بسطوا نفوذهم على بلاد الشام سنة ٣٣٠هـ، ٩٤١م [٢٢].

وأما بخصوص: السلاجقة والأتابكة والزنكيون. فالسلاجقة مسلمون جاءوا من وسط آسيا الوسطى، ودخلوا سوريا قبيل عام ٤٦٣هـ، ١٠٧٠م. وفي هذا التاريخ قام ألب أرسلان بغزو بلاد الشام، وصارت حلب أولاً تحت نفوذه، ثم احتل السلاجقة بيت المقدس وفلسطين وحرروها من الفاطميين. وفي سنة ٤٦٨هـ، ١٠٧٥م، استولوا على دمشق. وتمكن تتش بن ألب أرسلان من أن يوطد سلطته في حلب خلال السنوات - (٤٨٨- ٥٠٧هـ،١٠٩٥، ١١١٣م). وتولى دقاق مدينة دمشق - (٤٨٨- ٤٩٧هـ، ١٠٩٥- ١١٠٤م)، وخلالها حدثت حروب وصدامات عديدة بين الأخوين [٢٣].

وقد أفل نجم السلاجقة عام ٥١١هـ، ١١١٧م، حين استقل بالحكم قواد جيوشهم من الأتابكة واحداً تلو الآخر، مما أدى إلى ظهور دويلات الأتابكة في سوريا. وتُعرف

الدولة الأتابكية أحيانًا بالدولة الزنكية.

وقد بدأ الأمراء الأتابكة يَستقلون في مدنهم تدريجيًا حتى تم لهم اقتسام المملكة السلجوقية، وأقاموا على أنقاضها دولاً أشهرها: دولة عماد الدين زنكي التي أسسها في مدينة الموصل، سنة ٥٢١هـ، ١١٢٧م، ثم استولى على حلب سنة ٥٢٢هـ، ١١٢٨م، وضمها إلى مملكته. ويُعتبر عماد الدين أول من أنزل الضربة الأولى بجيوش الصليبيين، عندما حرر مدينة الرها القريبة من بغداد سنة ٥٣٩هـ، ١١٤٤م. كما استقل بعض أمراء المناطق من الأتابكة، فتشكلت دويلات أقل شأنًا من الدولة الزنكية. وعُرف من هذه الدويلات: الدولة الأرطقية التي حكمت شمالي سوريا - (٤٩٥- ٨١١هـ، ١١٠٢- ١٤٠٨م)، والدولة البورية التي حكمت دمشق خلال سنوات - (٤٩٧- ٥٤٩هـ، ١١٠٤- ١١٥٤م). وهي من بقايا سلالة آل طغتكين الأتابكية، حتى استولى عليها نور الدين محمود بن زنكي الملقب بالشهيد [٢٤].

أما الدولة النورية، فقد تولى نور الدين محمود بن زنكي إمارة أبيه سنة ٥٤١هـ، ١١٤٦م، فجعل من حلب عاصمة لدولته التي عرفت باسم الدولة النورية نسبة إليه، وفي سنة ٥٤٩هـ، ١١٥٤م، احتل دمشق. ثم استولى على جزء كبير من بلاد الشام عدا المناطق التي كان الصليبيون يسيطرون عليها. وفي سنة ٥٥٩هـ، ١١٦٤م، استولى نور الدين على بعض أجزاء إمارة انطاكية الصليبية. وتُوفي نور الدين سنة ٥٦٩هـ، ١١٧٤م، وتولى ابنه الملك الصالح إسماعيل وعُمره إحدى عشرة سنة، فبدأت بوادر الضعف بالدولة حتى ظهر صلاح الدين الأيوبي. فوحد بلاد الشام ومصر في ظل الدولة الأيوبية [٢٥].

الدولة السلجوقية - أقامتها أسرة تركية إسلامية حكمت إيران والعراق وسوريا وآسيا الصغرى خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد. فقد استولى طُغرل بك - (٣٨٥ - ٤٥٥ هـ = ٩٩٥ - ١٠٦٣ م)، على إقليم خراسان سنة ٤٢٩هـ، ١٠٣٧م. وهو أول ملوك الدولة السلجوقية. كانوا قبل تملكهم يسكنون وراء النهر، قريبا من بخارى، وهم الذين ردوا ملك بني العباس، بعد أن

كان اضمحل وزالت دعوتهم من العراق وخطب لبني عبيد (الفاطميين) لما استولى البساسيري على بغداد، ولما ضعف البويهيون في بغداد، وكان قد اشتد ظلمهم للخلفاء استدعى الخليفة العباسي ببغداد، القائم بأمر - (٣٩١ - ٤٦٧ هـ = ١٠٠١ - ١٠٧٥ م)، طُغْرلبك السلجوقي لإنقاذه من البويهيين. فزحف طغرل بك على بغداد وقضى على البويهيين، ونصبه الخليفة ملكاً وسلمه السلطة الزمنية على البلاد عام ٤٤٧هـ، ١٠٥٥م، فاظهر التمسك بالإسلام والسنة الصحيحة [٢٦].

وتولى السلطنة بعده ألب أرسلان خليفة طغرل بك نفوذه على حساب الدولة الفاطمية، فانتزع منها حلب ثم مكة والمدينة، وتقدم إلى بلاد الروم وانتصر عليهم في معركة ملاذكرد. وجَعل ملكشاه السلجوقي خليفة ألب أرسلان بغداد عاصمة له سنة ٤٨٤هـ،١٠٩١م.

ولما توفي مَلِكْشاه سنة ٤٨٥هـ، ١٠٩٢م، تنازع السلاجقة، واستطاع الأتابكة القائمون على أمر تربية أبناء السلاجقة انتزاع مقاليد الأمور من السلاجقة واسسوا دويلات عرفت باسم الدويلات الأتابكية، ومن اشدها دولة الأتابك عماد الدين زنكي في الموصل، وهي التي اشتهرت بالجهاد الإسلامي ضد الصليبيين [٢٧].

الدولة الغزنوية - (٣٥١ - ٥٨٢هـ، ٩٦٢ - ١١٨٦م). سميت بعاصمتها غزنة في طرف خراسان في حدود الهند اسسها سبكتكين أحد المجاهدين المسلمين، فقد ولاه السامانيون منطقة غزنة، ثم إقليم خراسان عام ٣٨٤هـ،٩٩٤م. وكان سبكتكين من الناحية العملية، مستقلاً عن السامانيين وأكثر نفوذًا منهم، اشتهرت هذه الدولة في عهد محمود الغزنوي بن سبكتكين، من سنة ٣٨٨هـ، ٩٩٨م إلى سنة ٤٢١هـ، ١٠٣٠م. واعترفت به الخلافة سلطانًا مستقلاً. طمع الغور في غزنة بعد وفاة علاء الدين عام ٥٥٦هـ، ١١٦٠م، واستردها منهم خلفته غياث الدين محمد، واستولى أخوه شهاب الدين على ممتلكات الغزنويين بالهند، ودخل لاهور، وقَبض على السلطان الغزنوي خسرو شاه، وبذلك فقدت الدولة الغزنوية آخر معاقلها. واعترفت الخلافة العباسية بالدولة الغورية. وضموا إليهم المزيد من

بلاد شمالي الهند، واستولوا على جاولار ونهرواله وكالنجار، وبذلك سيطروا على أراضي شمالي الهند كلها. واستولوا على إقليم بهار وإقليم البنغال [٢٨].

الدولة الغورية - (٥٥٠ - ٦١٢هـ، ١١٥٥ - ١٢١٥م). قامت في بلاد الغور في أفغانستان الحالية، بين هراة وغزنة. غزاهم السلطان الغزنوي محمود سبكتكين سنة ٤٠١هـ، ١٠١٠م، وأدخلهم في الإسلام، حاولوا الاستيلاء على غزنة ثلاث مرات، وطمع فيها بعد وفاة علاء الدين عام ٥٥٦هـ. ١١٦٠م، فاستولوا عليها، واستردها منهم غياث الدين محمد، خليفة علاء الدين وابن أخيه. وعقد العزم على القضاء التام على آل سبكتكين حتى يضمن لدولته الاستقرار. فاستولى على بلدان الغزنويين غير الهندية. واستولى أخوه شهاب الدين على ممتلكات الغزنويين بالهند، ودخل لاهور، وقَبض على السلطان الغزنوي خسرو شاه، وبذلك فَقدت الدولة الغزنوية آخر معاقلها. واعترفت الخلافة العباسية بالدولة الغورية. انتهز الخوارزميون ضعف الدولة فانتزعوا منها بلاد خراسان، ثم انتزعوا ممتلكات الغور في أفغانستان، وساروا إلى فيروزكوه. عاصمة الغور. وتمكنوا من قتل السلطان الغوري غياث الدين محمود نجل السلطان غياث الدين محمد سنة ٦٠٥هـ، واستولوا بعد هذا على غزنة عام ٦١٢هـ، ١٢١٥م، وأزالوا آخر معاقل الدولة الغورية [٢٩].

طائفة الإسماعيلية الباطنية.

يعتبر قرمط - (؟ - ٢٩٣ هـ = ؟ - ٩٠٦ م)، بل هو بالفعل رأس القرامطة من الباطنية، وإليه نسبتهم. اختلف في اسمه وأصله. فقيل: اسمه حمدان، أو الفرج بن عثمان، أو الفرج بن يحيى. وقَرمطط لقبه، أصله من خوزستان. وعُرف في سواد الكوفة سنة ٢٥٨ هـ، فكان يُظهر الزهد والتقشف واستمال إليه بعض الناس، فأراهم كتاباً أوله: بسم الله الرحمن الرحيم. يقول الفرج بن عثمان، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد ابن الحنفية، وهو جبريل. وفي الكتاب كثير من كلمات الكفر والتحليل والتحريم. كثر أتباعه والسالكون سبيله، فكان منهم زكرويه بن مهرويه، وأبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي،

كلاهما في جهات القطيف والبحرين، وقام بنو القليص بن ضمضم من بني كلب ابن وبرة بدعوته، بين العراق والشام، وعلي بن الفضل في اليمن. وله بقايا في جبل الكلبية باللاذقية، وفي نجران باليمن، وفي القطيف غربي الخليج الفارسي. واندمج أكثرهم في الإسماعيلية والنصيرية وغيرهما من طوائف الباطنية. وقتله الخليفة المكتفي بالله العباسي سنة ٢٩٣هـ [٣٠].

زكرويه بن مهرويه القرمطي - (؟ - ٢٩٤ هـ = ؟ - ٩٠٦ م)، من زعماء القرامطة ومتألهيهم. من أهل القطيف. اختفى أربع سنين في أيام المعتضد العباسي فلم يظفر به. ولما مات المتعضد أظهر نفسه، واستهوى طوائف من أهل بادية العراق وبث الدعاة. وكان أتباعه يَسجدون له، ويسمونه السيد والمولى، ولم يكن يظهر لعسكره، بل يَسير وهو محجوب، ويتولى أموره أحد ثقاته. وأرسل إلى الشام قائداً اسمه عبد الله بن سعيد، فظفر به المكتفي العباسي وقتله. وأغار زكرويه على حجاج خراسان وكانوا نحو عشرين ألفاً فأفنى أكثرهم. وانتشرت جموعه بين زبالة وفيد. وتنقل بين فيد والنباج وحفير أبي موسى. وانتدب الخليفة المكتفي بالله - (٢٦٣ - ٢٩٥ هـ = ٨٧٦ - ٩٠٨ م)، الجيوش لقتاله، فأصيب في معركة بين القادسية وخفان، فمات بعد أيام. وحُملت جثته إلى بغداد فأُحرقت، وارسل رأسه إلى خراسان لئلا يَنقطع أهلها عن الحج [٣١].

وخلفه الحسن بن بهرام الجنابي، أبو سعيد- (؟ - ٣٠١ هـ = ؟ - ٩١٤ م)، كبير القرامطة ومُعلن مذهبهم. كان دقاقاً، من أهل جنابة بفارس ونُفي منها، فأقام في البحرين تاجراً. وجَعل يَدعو العرب إلى نحلته، فعظم أمره. فحاربه الخليفة، فظفر الحسن. وصافاه المقتدر العباسي. وكان أصحابه يسمونه السيد. استولى على هجر والإحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين. وكان شجاعاً، داهية. قتلهُ خادم له صقلبي في الحمام، بهجر [٣٢]. وخلفه سليمان بن الحسن بن بهرام الجن أبي الهجري، أبو طاهر القرمطي - (؟ - ٣٣٢ هـ = ؟ - ٩٤٤ م)،

مَلِك البحرين، وزَعيم القرامطة. خارجي طاغية جبار. قال الذهبي في وصفه: عدو الله، الأعرابي الزنديق، نسبته إلى جنابة من بلاد فارس، وكان أبوه

قد استولى على هجر والإحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين.

وقد عهد أبوه بالأمر إلى كبير أبنائه سعيد فعجز عن الأمر، فغلبه سليمان وجاءه كتاب من المقتدر العباسي - (٢٨٢ - ٣٢٠ هـ = ٨٩٥ - ٩٣٢ م)، فيه رقة ورغبة بإطلاق من عنده من أسرى المسلمين. فأطلق الأسرى وأكرم حاملي الكتاب، وأعادهم بالجواب. ثم وثب سنة ٣١١ هـ. على البصرة، فنهبها وسبى نساءها. وكتب إلى المقتدر يطلب ضمها إليه، هي والأهواز، فلم يُجبه المقتدر. فأغار على الكوفة سنة ٣١٢هـ، فأقام ستة أيام حمل فيها ما استطاع رجاله أن يحملوه من أموال وثياب وغيرها. وضج الناس خوفاً، فسير الخليفة لقتاله جيشاً كبيراً، فشتته القرمطي واستولى على الرحبة وريض الرقة. ودعا إلى المهدي، وأغار على مكة يوم التروية سنة ٣١٧هـ، والناس مُحْرِمون، فنهب أموالهم، وقتل كثيرين منهم، قيل: بلغ قتلاه في مكة ثلاثين ألفا. واقتلع الحجر الأسود، وأرسله إلى هجر سنة ٣١٧هـ، وأُعيد إلى الكعبة سنة ٣٣٩ هـ، وكان يَصيح على عتبة الكعبة: أنا بالله، وبالله أنا ! يخلق الخلق، وأفنيهم أنا ! وعَرى البيت الحرام، وأخذ بابه، وردم زمزم بالقتلى. وعاد إلى هجر، فألَّههُ بعض أصحابه، وقال قوم منهم إنه المسيح ! ومات كهلاً بالجدري، في هجر [٣٣].

ويعتبر الحسن الصباح المؤسس الحقيقي للطائفة الإسماعيلية في إيران، إذ أخذ في الاستيلاء على كثير من البلاد والقلاع المجاورة في قوهستان، وكانت أهمها قلعة: الموت، التي استولى عليها سنة ٤٨٣هـ - ١٠٩٠م، فصارت عاصمة للإسماعيلية وقاعدة لملكهم، ولم يَقف أمر الصباح عند هذا الحد. بل استطاع بمعاونة أتباعه أن يستولي على المنطقة جنوبي بحر قزوين بأكملها [٣٤].

الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي - (٤٢٨ - ٥١٨ هـ = ١٠٣٧ - ١١٢٤ م)، كان رئيس هذه الطائفة الإسماعيلية، وكان داهية شجاع، عالم بالهندسة والحساب والنجوم. قِيل إنه يماني الأصل، من حمير. مولده في مرو. تتلمذ لأحمد بن عطاش،من أعيان الباطنية في عهد ملكشاه السلجوقي، ثم كان مقدم الإسماعيلية بأصبهان، ورَحل منها، وطاف البلاد، وقصد المستنصر بالله أبو

تميم معد بن أبي الحسن علي الظاهر لإعزاز دين الله العلوي، صاحب مصر والشام، في زي تاجر، واجتمع به، فأكرمه المستنصر الفاطمي وأعطاه مالاً، وامره بأن يدعو الناس إلى إمامته. فعاد ودعا الناس إليه سراً، ثم قصد الشام والجزيرة وديار بكر والروم، ورَجع إلى خراسان، ودخل كاشغر وما وراء النهر، داعياً إلى المستنصر. ثم استولى على قلعة الموت (Alamout) من نواحي قزوين) وطرد صاحبها سنة ٤٨٣ هـ، وضم إليها عدة قلاع، واستقر إلى أن توفي فيها [٣٥].

قال الذهبي فيه: صاحب الدعوة النزارية، وَجَد أصحاب قلعة الموت. كان من كبار الزنادقة ومن دهاة العالم، وفي تاريخ العراق: الإسماعيلية أصحاب حسن الصباح تدعى نحلتهم بالنزارية ومن بقاياهم الآغاخانية في الهند، ومن كُتبهم المعروفة: روضة التسليم، ومطيع المؤمنين، والهداية الآمرية، وحقيقة الدين، والفلك الدوار. ويُسمي الأوربيون أصحاب الحسن هذا (أساسان) Assassi ns، ويَذكرون أنهم فرقة من الإسماعيلية برزت في الحروب الصليبية، بقيادة الحسن بن الصباح، في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد أواخر الخامس للهجرة، وأن كلمة (أساسان) أصلها (حشاشون) وفي كتابهم من يُطلق هذا الاسم على الإسماعيليين جميعاً [٣٦].

قال ابن الأثير: فأول ما عرف من أحوالهم، أعني هذه الدعوة الأخيرة التي اشتهرت بالباطنية، والإسماعيلية، في أيام السلطان ملكشاه – (ت: ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، حيث اجتمع من الباطنية الإسماعيلية ثمانية عشر رجلاً، فصلوا صلاة العيد في ساوة، ففطن بهم الشحنة، فأخذهم وحَبسهم، ثم سئل فيهم فأطلقهم، فهذا أول اجتماع كان لهم [٣٧].

ثم إنهم دعوا مؤذناً من أهل ساوة كان مقيماً بأصبهان، فلم يجبهم إلى دعوتهم، فخافوه أن ينم عليهم، فقتلوه، فهو أول قتيل لهم، وأول دم أراقوه، فبلغ خبره إلى الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، أبو علي، الملقب بقوام الدين، نظام الملك - (٤٠٨ - ٤٨٥ هـ = ١٠١٨ - ١٠٩٢ م)، وزير السلطان ألب ارسلان، فأمر بأخذ من يتهم بقتله، فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر، فقتل، ومُثل به،

وجَروا برجله في الأسواق، فهو أول قتيل منهم، وكان والده واعظاً، وقدم إلى بغداد مع السلطان بركيارق سنة ٤٨٦هـ. فحظي منه، ثم قصد البصرة فولي القضاء بها، ثم توجه في رسالة إلى كرمان، فقتله العامة في الفتنة التي جرت، وذكروا أنه باطني [٣٨].

ثم إن الباطنية قتلوا نظام الملك، على مقربة من نهاوند. ودفن في أصبهان، وهي أول فتكة مشهورة كانت لهم، وقالوا: قَتَلَ نجاراً فقتلناه به.

وكان أول موضع غلَبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قاين، كان متقدمه على مذهبهم، فاجتمعوا عنده، وقووا به، فاجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين، فخرج عليهم ومعه أصحابه والباطنية فقتل أهل القفل أجمعين، ولم ينج منهم غير رجل تركماني، فوصل إلى قاين فأَخبر بالقصة، فتسارع أهلها مع القاضي الكرماني إلى جهادهم، فلم يقدروا عليهم. وعظم أمرهم، بعد مقتل نظام الملك، وموت السلطان ملكشاه، واشتدت شوكتهم، وقويت أطماعهم. وتجمعوا باصبهان، وزاد الأمر، حتى إن الإنسان كان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقنوا قتله، وقعدوا للعزاء به، فحذر الناس، وصاروا لا ينفرد أحد، وأخذوا في بعض الأيام مؤذناً، أخذه جار له باطني، فقام أهله للنياحة عليه، فأصعده الباطنية إلى سطح داره وأروه أهله كيف يلطمون ويبكون. وهو لا يقدر أن يتكلم خوفاً منهم [٣٩].

فلما عمت هذه المصيبة الناس بأصبهان، اتفق أن رجلاً دخل دار صديق له: فرأى فيها ثياباً، ومداسات، وملابس لم يعهدها، فخرج من عنده، وتحدث بما كان، فكشف الناس عنها، فعلموا أنها من المقتولين. وثار الناس كافة يبحثون عمن قتل منهم، وتجرد للانتقام منهم أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندي، الفقيه الشافعي، وجمع الجم الغفير بالأسلحة، وأمر بحفر أخاديد، وأوقد فيها النيران، وجعل العامة يأتون بالباطنية أفواجاً ومنفردين، فيلقون في النار، وجَعلوا إنساناً على أخاديد النيران وسموه مالكاً، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً [٤٠].

وقد اشتهرت الطائفة الإسماعيلية في التاريخ بأنهم قوم محاربون أشداء، بثوا

الرعب في النفوس، وعاثوا في الأرض فساداً، وقاوموا سلاطين السلاجقة واهتزت بسببهم السلطنة والخلافة، فلا غرو إن كان العداء شديداً بينهم وبين سائر المسلمين، وقد كان لهم جهاز رهيب، وتنظيم سري يتكون من طائفة من الشبان المغامرين الشجعان، الممتلئين قوة وحماسة وتضحية وتفانياً في الدفاع عن عقيدتهم، وكان هؤلاء الفدائيون يُجيدون فن التخفي، وساعدهم على ذلك طبيعة الدعوة الإسماعيلية الباطنية التي كانت تجري في سرية تامة، بحيث أنه كان يتعذر على المرء أن يميز الشخص الباطني من غيره، وكان أعضاء هذا الجهاز يختارون في سن مبكرة ويدربون تدريبات شاقة مضنية على استعمال السلاح، وأساليب القتال، وطرق الاغتيال وسفك الدماء [٤١].

وكانت القاعدة عندهم أنه إذا ظهر حاكم قوي في البلاد الإسلامية المجاورة، أسرع الفدائيون منهم إلى اغتياله ليأمنوا جانبه، وكان هدفهم الأول من وراء ذلك هو بث الرعب والفزع في نفوس الجميع، ونشر الاضطرابات والفتن وإشاعة الفوضى في صفوف المعادين لمذهبهم، فراح ضحيتهم كبار الشخصيات في الدولة السلجوقية، حتى جردوها من قوتها الفعالة وعقولها المدبرة، مما أدى بها إلى الانهيار، فلقد قتلوا أعظم وزراء السلاجقة الخواجة نظام الملك، وكان ذلك بأن تقدم إليه أحد الفدائيين من هذه الطائفة على هيئة رجل صوفي، وطعنه بخنجره طعنة نجلاء خر على أثرها صريعاً سنة ٤٨٥هـ ـ ١٠٩٢م. فكان أول شخصية كبيرة فقدها العالم الإسلامي بسبب هذه الطائفة الدموية [٤٢].

وقد قام الولاة والحكام المسلمون بتسليط بعض أفراد هذه الطائفة ضد بعضهم بعضاً، ومن أمثلة ذلك عندما قام الصراع بين الخلفاء العباسيين والسلاجقة، اتهم السلطان مسعود بأنه هو الذي أوعز إلى جماعة من الفدائيين بالتخلص من الخليفة المسترشد فقتلوه، سنة ٥٢٩هـ ـ ١١٣٤م، ومَثلوا به أشنع تمثيل، إذا أنهم قطعوا انفه واذنيه وتركوه عرياناً [٤٣].

كذلك قتل ابنه الراشد بمدينة أصفهان، سنة ٥٣٢هـ ـ ١١٣٧م، لأن محاربة الخلفاء العباسيين هدف يتفق مع مبادئهم، كما سبق أن قامت هذه الطائفة

باغتيال أغلمش نائب الخوارزميين في العراق العجمي سنة ٦١٤هـ، وكان قد استولى على بلاد الجبل واستفحل أمره، وقوى ملكه فيها، فقتله الباطنية بقتله، بإيعاز من الخليفة الناصر، وقد قام صراع بين الإسماعيلية والدولة الخوارزمية سبب للطرفين خسائر فادحة [٤٤].

كما قامت هذه الطائفة بأعمال إجرامية ضد الطوائف الإسلامية التي تخالفهم في العقيدة، فأشاعوا الرعب والإرهاب، وظلموا وجاروا حتى لقد تمنى المسلمون زوال حكمهم، بل لقد شجعوا المغول وحثوهم على محاربتهم والقضاء عليهم، فقد ذكر ابن طباطبا: حدثني الملك إمام الدين يحي بن الافتخاري قال: اذكر ونحن بقزوين إذ جاء الليل وجعلنا جميع سالنا من أثاث وقماش ورحل في سراديق لنا في دورنا غامضة خفية، ولا نترك على وجه الأرض شيئاً، خوفاً من كبسات الملاحدة، فإذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا، فإذا جاء الليل فعلنا، كذلك، ولأجل ذلك كثر حمل القزاونة للسكاكين، وكثر حملهم للسلاح، وما زال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمر شمس الدين قاضي قزوين وتوجهه إلى قا آن وإحضار العسكر وتخريب قلاع الملاحدة [٤٥].

ويذكر الجوزجاني أن القاضي شمس الدين أحمد الكافي القزويني، كان على اتصال بالمغول، وكان إماماً كبيراً، ذهب مرة إلى منكوخان وطلب منه أن يَضع حداً لشر الملاحدة، ويَخلص الناس من فسادهم، وفي أثناء حديثه وبينما كان مُندفعاً بحماسة المسلم المتدين صدرت منه كلمات جافة أغضبت منكوخان، وكان لها أثر عميق في نفسه إذ نسب إليه الضعف والعجز، لأنه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة، الذين يدينون بدين يخالف ديانات النصارى والمسلمين والمغول، وما ذاك إلا لأنهم استطاعوا أن يغروا منكوخان بالمال، بينما هم يتحينون فرصة ضعف دولته فيخرجون من الجبال والقلاع، لينقضوا على البقية من المسلمين ويعفوا آثارهم.

مما سبق يتضح أن الطائفة الباطنية الإسماعيلية، كانت من أهم عوامل إضعاف المسلمين، وزيادة الفرقة بينهم، وتدهورهم تدهوراً كاملاً، سهل على

المغول مهمة القضاء عليهم في الوقت المناسب [٤٦].

أحوال الأيوبيين في مصر والشام

بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، تفككت مملكته، ووزعت بين أبناء البيت الأيوبي باعتبارها مملكته تركة خاصة، وليست دولة وشعب ودين، يَلزمهم من يَقدر على حمايتهم والقيام على أمرهم، ولقد قُسمت إلى خمسة عشر قسماً، غير متساوين بالطبع، نتيجة المعارك التي كانوا يخوضونها ضد بعضهم بعضاً، أو ضد أعدائهم، إذا ما لبثت عوامل الانقسام والشقاق إن دبت بين أبناء صلاح الدين انفسهم، وانتهز الملك العادل محمد بن أيوب بن شادي، أبو بكر سيف الاسلام، أخو السلطان صلاح الدين - (٥٤٠ - ٦١٥ هـ = ١١٤٥ - ١٢١٨ م)، تلك الفرصة بالطبع، ورأى أن يَجمع هذا الشتات تحت إمرته، فلم يتردد في فرض سلطانه على مصر، إلى جانب أملاكه في الشام، وهكذا لم يمض على وفاة صلاح الدين سوى سبع سنوات، حتى طوى الملك العادل معظم أولئك الأبناء، والسيطرة عليهم، فقد قال: إنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم، والمُلك ليس بالإرث وإنما بالغلبة [٤٧].

وبالرغم من ذلك فإن الملك العادل لم يستطع أن يُسيطر على كل ما تركه صلاح الدين، بل ظلت الدولة مُقسمة إلى سبعة أقسام،وكثيراً ما استقل بعضها استقلالاً تاماً عن مصر، وخضع لها البعض الآخر خضوعاً إسمياً، وكثيراً ما كان يَحتدم النزاع بين حكام هذه البلاد، فيستعين الواحد منهم على الآخر بعدوٍ ثالث، بل وصل الأمر إلى استعانة بعضهم بالصليبيين [٤٨].

وعلى هذا فقد كانت بلاد الشام أيضاً كانت في حالة انقسام وحزازات وتباغض أشد مما كانت عليه إيران، وخُراسان والعراق، علاوة على أن هذه البلاد كانت قد وصلت إلى حالة شديدة من الضعف، نتيجة للحروب الصليبية التي خاضتها لمدة قرن من الزمان، فلما جاءت الحملات المغولية المدمرة على البلاد الإسلامية، كانت هذه البلاد منهكة ومفككة، بل ومتعادية، ومن الطبيعي أن

يقف حكام تلك المناطق في عجز تام عن مد يد العون لإخوانهم في الشرق، بل لم يهتموا بالاستعداد للدفع عن انفسهم، وكل ما فعلوه أنهم وقفوا يرقبون المعركة في غير اهتمام، منتظر منتظرين ما سيحل به بكل استسلام [٤٩].

كما أن سلاجقة الروم المسلمين كانوا في نزاع دائم مع الدولة البيزنطية، ثم مع الصليبيين، فهم أول من تصدى للحملة الصليبية الأولى من القوى الإسلامية، كما أن حكام هذه الدولة كانوا في نزاع مستمر مع غيرهم من السلاطين المسلمين، من هنا يمكننا أن نتوقع النتيجة الحتمية للمعركة القادمة، بين المسلمين بهذه الصورة من التفكك والتراخي، وهؤلاء المغولية الذين لا يعرفون إلا الحزم والنهب والتدمير [٥٠].

انتشار الموبقات في العالم الإسلامي

يقول الله تعالى: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً". الإسراء، آية ١٦. ولقد انتشرت الموبقات في العالم الإسلامي، بصورة تخالف كل ما جاء في الكتاب والسنة، فمن ذلك:

١ ـ انتشار شرب الخمر: قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون" (المائدة، آية ٩٠، ٩١). عندما نزلت تلك الآية قال المسلمون: انتهينا يا رب، وقام كل واحد منهم إلى ما عنده من الخمر، وسكبها، فجرت في سكك المدينة، ولم يقتصر سرب الخمر على العامة. بل انتشر بالأساس بين الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وعلية القوم، هؤلاء الذين تدور عليهم مصلحة البلاد، ويُعتد بفعلهم الناس [٥١].

لقد كانت هناك دائماً جماعات حاقدة أو ناقمة على العالم الإسلامي، تُحرض على نشر الفساد وشراب الخمر والمُسكرات، وتُحاول بكل الطرق دفع الشباب المسلم ناحية المرأة وجمالها ووصلها، ذلك لأنهم يَعلمون أن هذه هي

أقصر الطرق للقضاء على المسلمين، وذلك بتحطيم المجتمع الإسلامي من الداخل، ودَفع الشباب المسلم إلى إشباع أحط الرغبات والشهوات بالحرام، وحصر تفكيره ونشاطه في ذلك، وكانت الحانات مملوءة بالجواري الفاتنات، وغالباً ما كن أجنبيات من أجناس مختلفة، لا يردعهن خُلق ولا دين، والشباب والشعراء يأتون إليهن، وكانت النساء والفتيات يَعرضن أنفسهن على الشباب والشعراء، بلا تحفظ، وبلا حشمة أو كرامة، يتفنن في الحيل التي يجذبن بها الشباب، بطرقٍ غير مستقيمة، فكان يقع بينهم الفجور والمجون، وكل شيء حولهن يَدفعهن إلى هذا السلوك الآثم ويُشجعه [٥٢].

وكانت الأديرة متناثرة في ضواحي بغداد وسامراء، وفي طول البلاد الإسلامية وفي عرضها، فأكثر الشُعراء والشباب من الاختلاف إليها طلباً للخمر والمجون، وأكثروا من التغني بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها، حتى لقد أُلفت الكتب فيها، مثل كتاب: الديارات للشباشتي. وهو مليء بأشعار ابن المعتز وغيره، وكان لكل دير عيد تقريباً يَخرج فيه الناس للهو والمجون، وكانت هذه الأديرة تستغل أعياد النصارى لدعوة شباب المسلمين وتَسهيل وصولهم إلى الموبقات، ومن تلك الأعياد: عيد الميلاد، الذي كان يُكثرون فيه إيقاد الشموع والنيران ومنها: عيد الشعانين، أو عيد الزيتونة، وكان يُقام في أكتوبر: عيد للقديسة أشموني في قُطرَبُّلْ، وهي قرية في شمال بغداد، كانت أشبه بحانة للخمارين، وكان الناس يَذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب براً، والسفن في دجلة بحراً، متنافسين فيما يُظهرونه هناك من زيهم، وزينتهم، ومباهين بما يعدونه لهذه الاحتفالات، وكانوا يَضربون في شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط، وتَعزف عليهم القيال، وهم يحتسون الخمر، وبالمثل كانوا يَسمعون في عيد الزندورد بالجانب الشرقي لبغداد. بالإضافة إلى الأعياد النصرانية التي كانت تُقام فيها الحفلات الماجنة الداعرة، أحيا الفُرس أعيادهم القديمة، وأخذوا يحتفلون بها ويُقدمون من الخمور والمأكولات الترفية [٥٣].

ومنها: عيد النيروز، في أول الربيع وهو للسنة الفارسية. وعيد المهرجان، في أول الشتاء. ولا شك في أن كل هذه الأعمال ساعدت على انتشار المجون والخلاعة في بغداد وسامراء، بل وفي كثير من البلاد الإسلامية، إذ كانت الخمر منتشر إنتشاراً كبيراً ومعها القيان المبتذلات وعمَّ تبعاً لذلك الشعر الصريح، بل المفرط في الإباحية وفي التعبير عن الغرائز الجسدية، التي تدفع الشباب إلى الجري إلى إشباع غرائزهم تاركاً واجبه نحو دينه، ووطنه الذي سُرعان ما اجتاحه العدو فدمره [٥٤].

الجواري والنساء والغلمان

أيضاً انتشر الرقيق في المجتمع الإسلامي، وخاصة في مجتمعات الصفوة التي عليها مدار شئون البلاد، كما انتشروا في كل مكان، في القصور والأكواخ والمصانع والمزارع، وكان منهم الزنجي الأفريقي والحبشي والتركي والصقلي، ومنهم الصيني، والخرساني والأرمني، والبربري، فكان المجتمع الإسلامي في تلك الفترة يَجمع كل الأجناس وقلد المسلمون الشعوب الأخرى، فشاركوهم في تجارة الرقيق وخَرجوا بها عن حدودها الشريعة، فبنوا لها في كل مدينة كبيرة سوقاً خاصة يقوم على مراقبتها موظف يُسمى: قيم الرقيق [٥٥].

وقد انتشر الخصيان في المجتمع الإسلامي انتشاراً سريعاً، مع أن الإسلام حرَّم الخِصاء تحريماً قاطعاً، فكان العبيد يُخصون خارج حدود الدولة الإسلامية ثم يُجلبون ويُباعون في أسواق الرقيق في بغداد، وغيرها من المدن الإسلامية، وكان عدد الجواري والإماء في البيوت والقصور أكثر من الخصيان والرجال الأرقاء، وكان كثير من الرجال يُفضلونهن على الحرائر اللواتي كانوا يتزوجون بهن وهم لا يَعرفونهن، بخلاف الجواري اللائي كن مَعروضات لهم في الأسواق وبيوت النخاسين، فكانوا يختارونهن على حسب وقوعهن في نفوسهم ومن أجل ذلك كان يندر تزوجهم بأكثر من واحدة من الحرائر، فقد اكتفوا بالإماء عن تعدد الزوجات من الحرائر، فأقبل العامة والخاصة إقبالاً كبيرا اقتناء الجواري

والإماء والغلمان والخصيان، متخذين من الخُلفاء والأمراء قُدوة لهم، وإن كانت قدوة غاية في السوء، بل كانت أمهات عدد من الخلفاء أمهات أولاد، خاصة التُّركيات، والروميات، وكن يَتدخلن في شئون الحكم [٥٦].

وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق، ودور النخاسين يتفرجون على الوافدات الجديدات من الجواري الحسان وكثيراً ما كانوا يحملون معهم الهدايا للجواري، وللنخاسين، وكان هذا يكلفهم كثيراً من الأموال وكانت الجواري يظهرن حبهن الشديد لهؤلاء الزوار وكلفهن بهم، وحزنهن لفراقهم أو لتأخرهم في الزيارة، وربما زودت الواحدة منهن من تظهر له الحب بخصلة من شعرها أو قطعة من ثيابها، وكان النخاسون في سبيل الحصول على المال والهدايا - يتغافلون عن سفاهة بعض الزوار الذين كانت تمت أيديهم للعبث بأجسادهن خاصة إذا كُن راضيات عن ذلك [٥٧].

الغناء والطرب والخلاعة

وكان للجواري في ذلك الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الخلاعة والانحلال الخلقي بين الشباب، وكثير من الشيوخ، والشعراء، إذ أصبحت قلوبهم مشغولة باللهو والطرب، والسعي وراء إشباع الغرائز، كما انتشر في العصر العباسي الثاني حب الغلمان والغزل بهم، واتخاذهم بدل الخليلات، وقد انتشرت هذه الموبقات بين قادة الجيش والسلاطين، وقد قال أحدهم عن غلامه: ضياع هذا الغلام مني أشد عليَّ من أخذ بغداد من يدي، بل أرض العراق كلها، وكان أحدهم يُقبل المردان جهاراً من غير ريبه أو خجل [٥٨].

وكانت الحفلات والسهرات تقام، للغناء والطرب وكان إذا طرب الملك أو السلطان بزل الأموال العظيمة، بينما الدولة في أشد الحاجة إليها، وكان للزانيات والفُساق بيوت تكاد تكون معروفة للجميع، وتَنتشر في بغداد وغيرها من البلاد الإسلامية الكبيرة، وكان يَرِدُها عدد كبير من الناس، يقتلون فيها ثروتهم وأعمارهم ودينهم، غير مُبالين بدين ولا هيابين من سلطة، ولم لا ؟

والناس على دين ملوكهم، وما الأمس ومن اليوم من الأمس ببعيد، وها نحن في تونس ثم في مصر ثم في ليبيا، نرى مِن فساد الأسرة الحاكمة ورجال الحكومة وأصحابهم وشُركائهم، وهم على درجة من الفساد الديني والمالي والخُلقي، يَفوق ما كانت عليه الدولة الإسلامية في تلك الفترة التي نحكي عنها، وكما بَعث الله تعالى على المسلمين من طهَّرهم من فسادهم، وقد قُتلَ الخليفة العباسي المستعصم بالله بن المستنصر، في الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٥٦هـ، بالركل بالأَقدام، كما قُتل أهله ورجاله، وها هم رؤساء الدول العربية ابتاءً من أواخر سنة ٢٠١٠م/ ١٤٣٢هـ، وقد انفرط عقدهم، وتهاووا تحت أقدام الثوار الذي طال صبرهم ولم يَجدوا لدى هؤلاء القوم أي حياء، فكان ما كان من فرار حاكم تونس وأهل بيته، والقبض على مبارك وأهل بيته ورجاله، وتقديمهم للمُحاكمة، وما ربك بظلام للعبيد [٥٩].

ومع ما تقد من قول، فإن المجتمع الإسلامي كله لم يكن قد انقلب إلى مجتمع فاسد، بعيد عن الإسلام، فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً، وكانت طبقة العامة فيه التي تمثل الأغلبية بعيدة عن هذا الفساد الكبير، بل كانت حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه، وشعائره، ولم تكن تَعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق، بل كانت تعيش الشظف والبؤس والحرمان، بل كانت ساخطة على هذا الفساد والظلم، وكان المؤمنون يُعمِّرون مساجد الله، وكان الدعاة إلى الله لا يزالون يُذكِّرون الناس بالله واليوم الآخر، وانهم قادمون على الله يوم الحساب، فإما الجنة والنعيم وإما النار، وقد نشأت في تلك الفترة طبقة من الزُّهاد، عاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة، ولا يخلو الفساد في عامة الناس ولكن الطبقة الفاسدة المترفة هي التي كانت تقود الأمة وتمسك بزمامها، فقادتها إلى ضد ما يجب أن تقودهم إليه، قادتهم إلى كل ما يحقق رغبات هؤلاء المترفين وإرضاء لشهواتهم، وهو ما دار في العالم العربي في أوائل القرن الحادي والعشرين، ونتجت عنه الثورات

نعرية. فتخلصت من أشد تلك الأسر الحاكمة فساداً؛ في تونس ومصر وليبيا [٦٠].

وفي ظل هذه الأوضاع الضارية في الفساد والتفكك، أصبح العالم الإسلامي ينتظر أمراً يغيره أو ينبهه إلى ضرورة التغيير، وأن يحل رجال أقوياء محل هؤلاء الضعفاء في كل هذه الأقطار، ليأتي بعد ذلك جيل من المسلمين قوي الإيمان، يعيد للإسلام هيبته ومجده.

وبينما كانت القوة الإسلامية على هذا الحال، كانت القوة الثانية في الأرض في أوائل القرن السابع الهجري وهي قوة الصليبيين

ومركزها الرئيسي غرب أوروبا، حيث لهم هناك أكثر من معقل. وقد انشغلوا بحروب مستمرة مع المسلمين. فكان نصارى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا يقومون بالحملات الصليبية المتتالية على بلاد الشام ومصر، وكان نصارى أسبانيا والبرتغال وأيضاً فرنساوغيرهم، في حُروب مستمرة مع المسلمين في الأندلس، حتى انزووا في غرناطة.

وبالإضافة إلى هذا التجمع الصليبي الضخم في غرب أوروبا، كانت هناك تجمعات صليبية أخرى في العالم، كانت أيضاً على درجة عالية من الحقد على الأمة الإسلامية، وكانت الحروب بينها وبين العالم الإسلامي على أشدها، وكانت أشهر هذه التجمعات كما يلي:

١- الإمبراطورية البيزنطية: وحروبها مع الأمة الإسلامية شرسة وتاريخية، ولكنها كانت في ذلك الوقت في حالة من الضعف النسبي والتقلص في القوة والحجم، فلم يكن يأتي من جانبها خطر كبير، وإن كان الجميع يَعلم قدر الإمبراطورية البيزنطية، ولكنها سرعان ما ذهبت بغير رجعة على يد الأتراك العثمانيين.

٢- مملكة أرمينيا: وكانت تَقع في شمال فارس وغرب الأناضول، وكانت أيضاً في حروب مستمرة مع المسلمين، وخاصة السلاجقة [٦١].

٣- مملكة الكُرج: وهي دولة جورجيا حالياً، ولم تتوقف الحروب كذلك بينها وبين أمة الإسلام، وتحديداً مع الدولة الخوارزمية، وما لبثت هذه الرقعة كلها أن صارت في بدايات القرن السابع بيد المغول.

٤- الإمارات الصليبية في الشام وفلسطين وتركيا: وهذه الإمارات كانت تحتل هذه المناطق الإسلامية منذ سنة٤٩١ هجرية.

وعلى الرغم من انتصارات صلاح الدين الأيوبي على القوات الصليبية في حطين وبيت المقدس وغيرها، إلا أن هذه الإمارات لا زالت باقية، بل ولا زالت من آن إلى آخر تعتدي على الأراضي الإسلامية المجاورة غير المحتلة، وكانت أشهر هذه الإمارات: أنطاكية وعكا وطرابلس وصيدا وبيروت.

وهكذا استمرت الحروب في كل بقاع العالم الإسلامي تقريباً، ومع أن نهاية القرن السادس الهجري سعيدة جداً على المسلمين، وتعيسة جداً على الصليبيين، بفضل انتصارن صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في موقعة حطين في الشام، عام ٥٨٣ هجرية، وبعدها بثماني سنوات فقط انتصر المنصور الموحدي زعيم دولة الموحدين على نصارى الأندلس في موقعة الأرك الخالدة، في سنة٥٩١ هجرية.

وبالرغم من هذين الانتصارين إلا أن المسلمين في أوائل القرن السابع الهجري، كانوا في ضعف شديد، وذلك بعد ان تفكك شمل الأيوبيين بوفاة صلاح الدين الأيوبي، وكذلك انفرط عقد الموحدين بعد وفاة المنصور بن عبد المؤمن، غير أن الصليبيين كانوا كذلك في ضعف شديد، لم يمكنهم من السيطرة على البلاد المسلمة، وإن كانت رغبتهم في القضاء عليها قد زادت [٦٢].

كان هذا هو وضع العالم في أوائل القرن السابع الهجري.

وبينما كان هذا هو حال العالم في ذلك الوقت، ظهرت قوة جديدة ناشئة قلبت الموازين، وغيَّرت من خريطة العالم، وفرضت نفسها كقوة ثالثة في الأرض. بل صارت القوة الأولى، منذ بدايات القرن السابع الهجري. إنها قوة التتار أو المغول!!.

جنكيزخان: الأمير الموهوب

إن القذف والسب واللعن لشخص مثل جنكيزخان، أو لأحد هؤلاء القادة المغول، لن يكون من الحكمة إذا لم يصحبه إنصاف، وذكر لما تمتع به الواحد منهم من صفات تُعد جيدة بحد ذاتها، بغض النظر عن كونها أضرت من أو نفعت من. وبينما نحن نكتب التاريخ، يجب علينا تحري أفضل ما يمكن أن تتضمنه تلك الكتابة، من حيث الإنصاف والصدق والكفاية ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، بغرض الوصول إلى أفضل صيغة للنص التاريخي الخاص بالفترة التي نكتب عنها.

التعريف باسم جنكزخان وشخصه

أما اسمه فقد ذُكر أن اسمه في الأصل بورجيكين تيموجين، وانه لما عظم شأنه سُمي جنكزخان، وقيل أن الصواب في النطق به جنكص خان بالصاد بدل الزاي، ولكنه دَرَج بالنطق الأول.

لَقب العائلة: بورجيكين.

تاريخ ميلاده: سنة ٥٤٩- ٥٥٠هـ/ ١١٥٤- ١١٥٥م.

محل الميلاد: هينتي، منغوليا.

انتُخب خاقاناً على المغول سنة: ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م.

تاريخ الوفاة: ٦٢٤هـ/ ١٨ أغسطس، ١٢٢٧م.

فترة حكمه: من: ١٢٠٦ إلى ١٨ أغسطس، ١٢٢٧م.

خليفته: اوقطاي خان.

زوجته: بورتة اوجين، ويُقال لها: بورتاي.

أبناؤه:

بورجيكين جوتشي.

بورجيكين شقطاي.

بورجيكين اوقطاي.

بورجيكين تولوي.

جنكيز خان، تكتب بالصينية: 成吉思汗 وهجاؤها بطريقة پن ين pinyin هو: cheng1 ji1 si1 kang1، او تيموجن: بالصينية: 鐵木真، وهجاؤها بطريقة پن ين pinyin هو: tie mu zhen، عاش ما بين عامي ١١٦٥ و ١٢٢٧ ميلادية. [١].

نسبجنكزخان:

جنكزخان المغولي، هؤلاء الأقوام صُفر الوجوه، بشعور سوداء كالحة، سبط غير مُجعَّدة، وأنف افطس، وعيون منحرفة، يشوب سمارها زُرقة، وبشرة يغلب عليها الصُّفرة، ومنهم الأسمر والبرنزي والنُّحاسي. بن بيسوكي بن بهادر بن تومان بن برتيل خان بن تومنيه بن بادسنقر بن تيدوان ديوم بن بغا بن بودنجه، وقيل: بقابن مودنجه، بن الان قوا. والان قوا هذه امرأة من قبيلة من التتر تُسمى قبات، من أعظم قبائلهم شهرة، كانت متزوجة بزوج أُولَدها ولَدين، اسم أحدهما بكتوت والآخر بلكتوت، ومن عقبهما الطائفة المعروفة في قبائل التتر بالدلوكة، ثم مات زوج ألان قوا أبو هذين الاثنين، وبقيت الان قوا أيما، فحملت فأُنكر عليها الحمل، وحُملت إلى ولي أمرهم حينئذ فسألها ممن حملت، فقالت إني كنت جالسة وفرجي مكشوف، فنزل نور ودخل في فرجي ثلاث مرات فحملت منه هذا الحمل، وأنا حامل بثلاثة ذكور كل مرة من دخول ذلك النور بذكر، فأمهلوني حتى أضع، فإن وضعت ثلاثة ذكور فاعلموا صدقي، وإلا فدونكم وما ترون [٢].

فأمهلوها حتى ولدت، فأتت بثلاثة ذكور فسّمت أحدهم يوقن قوتاغي،

والثاني بوسن ساغي، والثالث بودنجر. و بودنجر هذا هو جد جنكزخان، وقال ابن خلدون: أحدهم برقد، والآخر قونا، والثالث نجعو، وهو جد جنكز خان. وأولاد هذه الثلاثة يُعرفون بين التتر بالنورانيين، نسبة إلى النور الذي زعمت أنه دخل فرجها فحَملت منه. ولذلك يقولون جنكز خان بن الشمس. وهذه أكذوبة يَصعب الإقرار بها، وإن صحت عن المراة، فلعلها كانت قد سمعت بقصة مريم البتول عليها السلام، فاحتالت لسلامة نفسها بالتشبه بشأنها [٣].

ظهور جنكيز خان على مسرح الأحداث

نشأته وتربيته

ولد جنكيز خان على نهر "أوتون" سنة ١١٥٥م، وفقاً لروايات كثير من المؤرخين، وقيل بل ولد مابين عامي ١١٦٢ و ١١٦٧، وقد كان الابن البكر ليسوگيه Yesügei شيخ قبيلة كياد Kiyad و تكتب مفردا ب كيان Kiyan. وتسمى عائلة يسوگيه Yesügei بـ بورجيگن Borjigin ومفردها هو بورجيگيد Borjigid [٤].

وكان أبوه يسوكاي غائباً وقت ولادته، إذ كان يُقاتل التتار، وقد صَرع زعيم لهم اسمه تيموجين، وعاد يسوكاي مُظفراً إلى منزله، فلقى مفاجأة سعيدة لقد انجبت زوجته يولون، ابناً له، وحينما تفحص الطفل، لحظ بأنه يَقبض بيده على قطعة من الدم المتجمد، كأنها حجر أحمر، فأوَّل الزعيم المغولي الذي يؤمن بالأساطير هذا الحدث علة ما يُحب، وأنه يُشير إلى ما أحرزه من انتصار على زعيم التتار، ولذا أطلق على ابنه اسم الزعيم التتري الذي قتله في الميدان، تخليداً لانتصاره، ولما بلغ تيموجين التاسعة من عمره صحبه أبوه يسوكاي لزيارة أخواله، فالتقى أثناء الرحلة بأحد زعماء المغول القنقراد، فتنبأ لتيموجين بمستقبل باهر، وحرص على أن يزوجه من ابنته، بورتة، التي لم تتجاوز وقت ذاك العاشرة من عمرها، ولم يَلبث الأب يسوكاي أن مات أثناء عودته إلى دياره، وترددت الشائعات أن التتار دسوا له السم فمات سنة ١١٧٦م [٥].

كفاح والدة جنكيز خان

ساءت أحوال أرملة يسوكاي وأطفاله بعد وفاته، فالمعروف أن يسوكاي استطاع أواخر أيامه أن يَجمع تحت سلطانه عدداً من القبائل الموالية، فضلاً عن قبيلة قيات التي يتولى زعامتها، ولم تلبث أحقاد خصومه بسبب ما أحرزه من انتصارات إن انطلقت بعد وفاته، وكان من أشد القبائل عداوة وضراوة قبيلة التايجيوت، التي أنكرت على تيموجين الزعامة، ولما احتج عليهم، أجاب العُصاة المتمردون أن أشد الآبار عمقاً قد يصيبها الجفاف، وأن أشد الحجارة صلابة قد تنكسر، فلماذا نتعلق بك، عند ذلك كان لزاماً على زوجة يسوكاي أن تبذل كل ما تستطيعه من أجل تحصل على الزاد الضروري لأفراد أسرتها، فصارت تلتقط لهم الثمار، وما ينبت من الأرض، ولم يطرق اليأس إلى قلوب أفراد هذه الأسرة، وأكبرهم لازال حدثاً صغير السن [٦].

مع كل ما أصاب هذه الأسرة من عنت من قومهم، إلا أنهم احتفظوا، بما اشتهرت به قبيلتهم من الحماس والنشاط والصبر على تحمل المتاعب، فاجتهد الصبيان في صيد ما يلزم لإعاشتهم من نهر انون، وحرصت الأم يولون على ان تتوطد المودة بين أفراد الأسرة، فلما وقع الخصام بين أبناء يسوكاي الأشقاء وغير الأشقاء، وأسفر هذا الشقاق عن مصرع بكتار، ابن يسوكاي من زوجة أخرى انفجرت يولون في وجه ولديها تيموجين وقسار، اللذين تسببا في هذا الحادث، وقالت لهما: أيها القتلة، فحينما ولدتك يا تيموجين كنت تقبض على قطعة دمٍ متجمدة، لستم إلا نمرة تنقض على فريستها، ولستم إلا كالأُسد الغاضبة، ولستم إلا كالبزاة تحلق في الجوزاء فوق ظلالها، وكالإبل تقضم في أثناء غضبها أبنائها، وكالذئاب التي تنقض على فريستها في غمرة العاصفة، فليس لدينا، فيما عدا ظلالنا، رفاق، وما تَعرضنا له من الشرور على أيدي التايجوت، بلغ من العنف ما لا نستطيع تحمله، فلا بد من الانتقام منهم.

وقد تَعرض تيموجين وإخوته وأُمه لغارات التايجوت، الذين حرصوا على إذلالهم، فلم يسع تيموجين وأُسرته إلا ان ينتقلوا بمعسكرهم إلى جبال بروقان

كالدون، وإلى جبل كنتاي، الذي كان له من القداسة عندهم، ما حمل تيموجين على الاعتقاد بأنه هو الذي حماه وعَصَمه من الأعداء، ولم يتخل البؤس عن تيموجين وإخوته، فكل ما كانوا يملكون لم يتجاوز تسع أفراس، وقع منها ثمانٍ في أيدي المغيرين دفعة واحدة [٧].

تيموجين يُطارد اللصوص

أصر تيموجين على أن يُطارد اللصوص، حتى التقى بعد أربعة أيام بغلام تبدو عليه سمات النبل، اسمه بورتشو، أحس بالميل والعاطفة نحو تيموجين، فاشترك معه في البحث عن الأفراس، حتى عَثَرا عليها فَسَاقَاها بعد أن ظهرت براعة تيموجين في مراماة أعدائه وإجبارهم على أن يتخلوا عن اللحاق به، وكان من أثر هذه المغامرة أن توطدت الصلة بين تيموجين وبورتشو، وكانت بداية طيبة لأمجاد بورتشو المقبلة، من هذا نستخلص ما كان لتيموجين من الطباع والصفات، فما يُبهرنا فعلاً، ما كان له من شخصية بلغت من القوة أنه فرض نفسه على كل من التقاه، فمنذ هذه اللحظة انجذب إليه بورتشو، وربط مصيره بمصير تيموجين، وسوف يتكرر ذلك الموقف مع القبائل، عندما تنحاز إلى تيموجين الواحدة بعد الأخرى وقد بهرتهم مواهبه في القيادة، وإحساسه بالعدالة وإخلاصه لأصدقائه، واعترافه بما يؤدونه له من خدمات، فأضحت مَحبته لأصدقائه الأوائل مضرب الأمثال، ومن طباع سكان الخيام، المحبة الشديدة للأصدقاء التي لا يضارعها إلا الكراهية البالغة للخصوم [٨].

زواج تيموجين وولاءه لزعيم الكرايت

أنجز تيموجين من الأعمال، ما جَعلهُ يُفكر بعدها في الزواج، ولا سيما أن أباه عقد له خطبة على بورتة ابنة زعيم القنقرات النازلين على نهر كيرولين، وزاد في فرح صهره وسروره ما أصبح عليه تيموجين من متانة البناء والقوة، ولم يَلبث أن انتقل تيموجين وزوجته وسائر أفراد أُسرته إلى منبع نهر كيرولين، وارتفع شأن تيموجين، بعد أن نجا من مؤامرات التايجوت وأضحى الرجل القوي الذي تَنشده

سائر القبائل، فصار في مقدوره أن يشترك في الأحوال السياسية، بأن يكون من البارزين من رجال المغول الذين يتنازعون السيطرة على شرق منغوليا وما اشتهر به تيموجين من روح عملية، اثارت فيه الميل إلى السلطان، وحملته على أن يفكر في الإفادة من مركزه القوي، بأن يعقد معاهدات واتفاقيات خارج قبيلته، وإذ أسهم أبوه يسوكاي في توطيد مركز زعيم الكرايت، حتى صار من أقوى ملوك الاستبس، حرص تيموجين على أن يسير على نهج أبيه، فتوجه إلى حيث ينزل طغرل على نهر تولا، ويذل له يمين الولاء بأن يكون من اتباعه وخاطبه: سبق أن توطدت أواصر المحبة بينك وبين ابي، فأنت الآن في مقام ابي وارتاح طغرل لهذه التبعية، ووعد بأن يُساعده بأن يجتمع تحت زعامة تيموجين من جديد، سائر رجال العشيرة الذين هجروا منزله أثناء حداثة سنه.

وبالفعل أخذت أحوال تيموجين تستقر، وذاع سيطه، وسعت القبائل المختلفة لكسب صداقته، فصار جيلمي، الذي تقدم به أبوه لأن يكون خادماً له، من أخلص الرفاق، شأنه في ذلك شأن بورتشو، وبفضل نصائح طغرل ملك الكرايت، والذي دان له تيموجين بالتبعية، إنحاز إليه زعيم مغولي آخر، اسمه جاموكا، رئيس قبيلة جاجيرات، فَقَدَّم لكل من تبعه وانضم إليه من المحبة والود ما جَعل منهم إخوة له، غير أن النزاع لم يلبث أن دب بينهم، فانفرط عقد التحالف بينه وبين جيلمي، و جاموكا، وانحاز إلى كل منهما جماعة من الموالين له، وإذ جرى التنبؤ بأن زعامة القوم سوف تؤول إلى تيموجين، ازداد انحياز القبائل والعشائر إلى جانبه، فكان من الذين انحازوا إليه، أربعة أمراء من المغول، يجري في عروقهم الدم الملكي بعد أن انفصلوا عن جاموكا [٩].

تنصيب تيموجين خانا على المغول

اجتمع الأمراء الأربعة وتشاوروا فيما بينهم، واستقر أمرهم باعتبارهم يمثلون اقدم الأسرات الملكية، وأعرقهم نسباً، على أن يختاروا تيموجين خاناً على المغول، والمعروف ان تيموجين يَنتمي إلى هذه الأسرة، غير انه لم يكن له من الحقوق في ولاية الحكم، ما يفوق حقوق التاي الذي كان ابن قوتولا، آخر خاقان للمغول.

ومع ذلك فإن ما كان بين هؤلاء الأمراء من ولاء وإخلاص وبين تيموجين، تمثل فيما جرت به الرواية من أنهم خاطبوه:

لقد قررنا بأن ننادي بك خاناً، وسوف نكون في المقدمة عند خوض المعارك ضد عدد لا حصر له من الأعداء، فما نسبيه من النساء الجميلات، والفتيات الحسناوات، وما يقع في أيدينا في الجياد الأصيلة، سوف نبذله لك، وما نحصل عليه من الصيد، سوف نجعله لك فإذا حدث أن عصينا أوامرك أثناء الحرب أو برمنا بك أثناء السلم، فلتفرق بيننا وبين زوجاتنا وتنتزع منا متاعنا، ولتهجرنا ولتجعلنا منبوذين.

وقد التزموا هذا القرار، واختاروا تيموجين خانا وأطلقوا عليه اسم جنكيز خان، والواقع إن ما حدث من اختيار جنكيز خان ليتولى الحكم، وهو الانتخاب الذي اشترك فيه التان ابن قوتولة، والأمراء الذين يمثلون الأسر الملكية السابقة، لم يكن الغرض منه سوى وقف ما حدث من تشتت العشائر، والقبائل المغولية، وإعادة السيادة إلى أُسرة قيات، وتَرقب الفرصة المواتية للانتقام من التتار، فاختاره أقاربه وبنو عُمومته، لما لمسوه فيه من أنه زعيم في الحرب والصيد، وما اشتهر به الخان الجديد من العبقرية في التنظيم، والشدة في التزام النظام يُعتبر من أهم صفاته.

وكانت الأخلاق القيادية بارزة في جنكيز خان، كالمكر، والدهاء وسعة الحيلة، والكرم والوفاء لأصدقائه المخلصين، وممارسة الشورى مع من حوله من القادة المعاونين [١٠].

جنكيز خان يوحد القبائل

حَرِص جنكيز خان على أن يوزع الوظائف الأساسية الحربية والمدنية بين أنصاره الموالين له، فجَعل من أقرب الناس إليه، وأشهرهم في الرماية حرساً خاصاً له، وخَصَّ آخرين بأمر توفير المؤن والسقاية وإعداد العَربات، والتماس المراعي، والإشراف على الخُدام، ورياضة الخيل، ونقل الأوامر الملكية، والمحافظة على

النظام عند انعقاد مجلس أعيان القبيلة (قوريلتاي)، ولم ينس أموربورتشو وجيلمي، فمن المأثور عن جنكيز خان أنه قال: إنني لا أنسى أنكما كنتما رفيقي حينما لم يكن لي رفاق، ولذا جَعلتُ لكما الرياسة على جميع هؤلاء، ثم وجه الخطاب إلى رعاياه، إنكم جميعاً تخليتم عن جاموكا، وحرصتم على الانحياز إلى جانبي، فأنتم جميعاً يا أصدقائي القُدامي، خير رفاق لي في المستقبل[١١].

وقام جنكيز خان بإرسال الرُّسل إلى رؤساء القبائل القوية المجاورة، يُخبرهم بأنه قد نُصِّب أميراً على القبائل التي قبلت به وكان أول من راسلهم طوغرل خان صديق والده بالأُخُوة، وجاموكا صديقه بالأخوة، فكان جواب الأول الموافقة والتأييد، وجواب الثاني الاستهزاء والغضب، حسداً لجنكيز خان وغيرة منه بعد أن أصبح جنكيز خان أميراً، وزادت قوته، أخذ خصومه يَنصبون له العداء حَسداً له، فلم ينتقل أو يتحرك جنكيز خان إلا بأسلوب القتال، فعندما ينتقل بعشيرته من مراعيها الصيفية إلى مراعيها الشتوية يتخذ تَشكيل القتال، فيُقسم قوته إلى أقسام أربعة: المقدمة، المجنبة، والمؤخرة، وفي وسطهم تسير الماشية وعَربات العائلات [١٢].

بعض المعارك التي خاضها جنكيزخان

معركة العجلات: في إحدى المرات، وبعد مسيرة طويلة بالطريقة الآنفة الذكر، أخبرت الكشافة التي أمام المقدمة بوجود غبار كثيف في الأفق ينحدر بسرعة، وإذا بقبيلة تيدجون المؤلفة من ثلاثون ألف، يقودهم تارجو تاي، تُقبل ناحيته، قرر جنكيز خان القتال فوراً، وكانت قوات جنكيز خان المحاربة تتألف من الخيالة فقط، وهي على نوعين:

- الخيالة الثقيلة: ويرتدي رجالها الدروع الحديدية والخوذ الفولاذية، وخيولهم مكسية بوشاح من الجلد المدبوغ السميك، وكان سلاحهم الرماح، وترساً صغيرة، يتقون بها ضربات الأعداء.

- الخيالة الخفيفة: يكسو رجالها وخيولها دروع من الجلد المدبوغ فقط، وكانت خيول هذا الصنف من الضامرات، خيول السباق، وكان سلاحهم القسي والنبال، وكان تسليح العدو وتجهيزاته شبيهة بما لدى جنكيز خان.

قسَّم جنكيز خان رجاله إلى سرايا، وكل سرية من الف محارب، منظمين بعشرة صفوف، في كل صف مائة محارب، أما تارجو تاي فقد تقدم بسراياه، وكل سرية تتألف من خمسمائة محارب منظمين في خمسة صفوف، في كل صف مائة مُحارب، وكان الصفان الأولان من الخيالة الثقيلة، والصفوف الثلاثة الأخيرة من الخيالة الخفيفة [1].

أسند جنكيز خان جناحه الأيمن إلى غابة كثيفة، كانت في ميدان القتال، وجَمع جميع العجلات التي تركبها نساؤهم وتَحمل أمتعتهم وحيواناته، وشكّل منهم مُربعاً كبيراً، اسند إليه في جناحه الأيسر ووضع النساء والأطفال في

العجلات، تاركاً أمر حراستهم لصبيان القبيلة، بعد أن سلّحهم بالقسي والنبال، ووضع الخيالة الخفيفة في الأمام، عكس عدوه، وجعل الخيالة الثقيلة في الخلف[٢].

هجمت خيالة تارجو تاي الثقيلة على خيّالة جنكيز خان الخفيفة، فاستقبلتها هذه برشقات هائلة من سهامها. وأوقعت فيها الهلاك والدمار، ولم تنجح هذه الخيالة في اختراق صفوف جنكيز خان، لأن عُمقها كان عشرة صفوف، مما مثل كثافة يصعب اختراقها، ففشل هجومها، وحاولت الخيالة الجنكيز خان الخفيفة إصلاح هذا الفشل، فتغلغلت بين صفوف الخيالة الثقيلة المعادية المتقدمة المكدسة اشلاؤها على الأرض، عندئذ أطلق جنكيز خان خيالته الثقيلة لمقابلتها، ففعل الرمح والسهم فعله في هذه الصفوف، وكانت هزيمة الأعداء، وقد سُميت هذه المعركة بمعركة العجلات، نظراً لاستخدم جنكيز خان للعجلات في حماية جناحه الأيسر المكشوف.

لقد كانت معركة قاسية، دامت طيلة النهار، وحتى حلول الظلام، حقق فيها جنكيز خان انتصاره الأول، وأصاب من عدوه من خمسة إلى ستة آلاف ألف قتيل، واقتيد إليه منهم سبعين رئيساً بسلاسل سيوفهم، فألقوا عند قدميه، وسيوفهم وكنانهم معلقة في رقابهم [٣].

وأحب جنكيز خان أن يضع لنفسه منهجاً وسياسة تُعرف عنه من قِبل العدو، فأمر بقتل هؤلاء الـ٧٠ أسير، بغليهم في القدور أحياء، ليعلم الجميع كيف سيكون العقاب، فافتتح بذلك إثارة الخوف والرعب في نفوس الخصوم، وصار ذلك من لوازم حكومته وترتب على هذا الصدام إن انصاع لأوامر جنكيز خان القبائل التي تحالفت عليه [٤].

صراع التحالفات

اقتضت مصلحة جنكيز خان أن يتحالف مع طوغرل خان، وذلك للقضاء على التتار العدو المشترك لهما، فنجح الاثنان في القضاء عليهم ولا سيما قبيلة المركيت، وجانب من قبائل النايمان. والمعروف ان النايمان تعد في هذا الوقت

الأضعف. بسبب ما وقع من نزاع بين ملكهم تايانك خان وأخيه بويوروف، الذي تعرض لهجوم جنكيز خان وطغرل، وأيضاً ساعد على ذلك ما وقع من أحداث في منغوليا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، أثارتها سياسة الحكومة الصينية، فضلاً عن عوامل محلية، إذ انتهجت أسرة كين في الصين الشمالية، السياسة التي درجت عليها أُسرات صينية عديدة وهي سياسة الإيقاع بين القبائل، وبين الزعماء. وحَرص ملك الصين الشمالية على أن يتخذ من الكرايت والمغول حلفاء له.

وفي سنة ١١٩٤م، تقرر مصير الحرب لصالح الحلفاء، وعلى سبيل المكافأة حَظي ملك الكرايت بلقب وانج، وظفر ابنه بترقية في سلك الجيش، بأن صار سنجون، وحاز جنكيز خان أيضاً لقباً من ألقاب التشريف، غير أنه لم يُضارع في الرفعة الألقاب الأخرى، على أن القبائل التي أحست بالتهديد من جانب جنكيز خان، شكلت حلفاً فيما بينها، دخل فيه قبائل جاسيرات والمركيت والتايجيون والقنقرات والتتار، ومن ملوكهم: توكتا، ملك المركيت. وجاموكا: ملك الجاسيرات، واتفق هؤلاء الحلفاء على أن يختاروا جاموكا كروخان إمبراطور على القبائل التركية المغولية، وذلك سنة ١٢٠١م، ولم يلبث الجيش الذي حشده جاموكا أن انهزم وتبدد، سنة ١٢٠١ - ١٢٠٢م، غير أن جاموكا نجح فيما بعد في اكتساب ثقة سنجون ووالده طوغرل خان، وفي تحولهما عن حليفهما السابق جنكيز خان [٥].

حرب جنكيز خان مع ملك كرايت

في سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م، كان المسيطر على قبائل الترك المشارقة: وانج خان، من قبيلة كرايت أو كريت أو القاريات التي تدين بالنصرانية، وكان جنكيز خان من غير قبيلته، ولكنه مؤيد له وملازم له منذ الطفولة، إلا أن انتصار جنكيز خان لم يرق في عيون رؤساء قبائل الكرايت حلفائه، فأضمروا له الشر سراً ووشوا عنه إلى وانج خان حتى اتهمه الأخير بالخيانة، وهم باعتقاله، وأرادوا قتله بزعامة توكتابك بن طوغرل بك، وجاموكا عدو جنكيز خان اللدود، وفي مساء أحد

الأيام، بينما كان جنكيز خان مع ستة الف من محاربيهم تصحبهم العائلات، وهو معسكر في أحد المناطق، أخبرته دورياته بأن قبائل الكرايت تتجمع، وتتقرب من معسكرهم دلالة على عزمهم الهجوم ليلاً على المعسكر، وقرر جنكيز خان التملص من عدوه لأنه ضعيف تجاه خصمه من ناحيتي القوة والسُّرعة، لأن العائلات برفقته، تركب العجلات التي تسحبها الثيران، والعجلات التي تجرها الجمال، في هذا الوقت، انضم إلى جنكيز خان غلامان من خدم وانج خان، فأعلماه بالقضية وأن وانج خان يُريد القبض عليه [٦].

خطة جنكيز خان للإفلات من أعدائه

١ ـ سحب الماشية والعائلات، على ان تُركب عجلات الجرّ الخفيفة التي تجرُّها الجمال، وتسير إلى موضع مستور إلى خلف منطقه المعسكر بـ ١٢ كم.

٢ ـ ترك الخيام منصوبة، والنار مضرمة فيها، والعجلات بثيرانها، كما لو كان المعسكر آهلا.

٣ ـ قيام جنكيز خان وجماعة بستر انسحاب الماشية والعائلات في صباح اليوم الثّالي.

انحدرت قبائل الكرايت إلى معسكر جنكيز خان، ولما رأوا المعسكر خالياً وأدواته فيه، اعتقدوا بأن جنكيز خان قد فرَّ برجاله وعائلاته خوفاً وفزعاً، ما جعلهم يتباطئون في تعقبهم، كان جنكيز خان مُتخفياً مع رجاله وراء أرض مرتفعه، يفصلها عن أعدائه، نهر صغير، تاركاً أمر مراقبة الجبهة للخفراء، ولّما تقدّمت خيَّالة الكرايت الخفيفة منها تسبق الثقيلة، انقض جنكيز خان وجماعته فجأة عليهم وقتلوا جميع مقدّمة العدوّ، وأبادوهم دون ان يكون للقسم الأكبر علم بذلك. وبعد مدة ظهر وانج خان وقادته يقودون القسم الأكبر من قوّاته، وهكذا فقد دنت ساعة المعركة الحاسمة فوضع جنكيز خان خطّته كالآتي:

١ ـ الهجوم عل أعدائه قبل مهاجمتهم له.

٢ ـ عدم القيام بهجوم جبهوي، لأنَّ أعداءه أقوى منه.

٣ ـ الإستفادة من الأرض قدر الإمكان، لتلافي نقض العدد في هذه الأثناء، هجمت خيَّالة العدوّ واريكتجنكيز خان، حيث استدعى أشجع قادته، وحامل لواء القبيلة جلدار، وكلفه بإحاطة جناح العدوّ الأيسر واحتلال تلٍّ جويتا الكائن خلف هذا الجناح الأيسر، ونجح جلدار بحركته بالفعل، مما أجبر قوّت الكرايت على الانسحاب قليلاً، بينما كانوا في أوج هجومهم، واستمر القتال حتى حلول الظلام، حيث قام جنكيز خان بهجوم عنيف ستر به انسحاب جلدار، وتحت جُنح الظلام انسحب جنكيز خان برجاله شرقاً، لعلمه بأنه لا يستطيع منازلة أعدائه صباح اليوم التَّالي وهو بقوته هذه، وبعد انسحاب جنكيز خان، انقسمت جُوبي إلى معسكرين متنافسين:

١ . معسكر وانج خان ومن انضمّ إليه بعد انتصاره على جنكيز خان.

٢ . معسكر جنكيز خان ومن توافد إليه لإسناده.

وقرّر جنكيز خان إبادة خصمه، فجهَّز حملة قوية، وتقدَّم نحو معسكر وانج خان دون سابق إنذار، ولكي يتأكد من عدوِّه استخدم الرَّتل الخامس فأرسل أحد قادته المشهورين بصفة لاجئ، حاملاً معه احد أعلام جنكيز خان، لكي يتظاهر بأنه جاء لاجئاً، هَرَبا من سوء معاملة جنكيز خان له، ولما وصل هذا الرسول إلى معسكر وانج خان لم يقتنع الأخير بادِّعاء الرّسول، فأراد التأكد من صحة المعلومات فأرسل معه عدداً من رجال خيالته لاستطلاع المنطقة من على قمم مشرفة بالقرب من معسكر وانج خان، وعلى تل مشرف بجواره، أراد رسول جنكيز خان أن يُعطي إشارة لسيده تدله على معسكر الأعداء ولما لم يتمكن من ذلك، ابتكر حيلة وطبقها بسرعة وهي ركز علم جنكيز خان الذي استصحبه معه على قمة التل، ثم ترجل عن جواده، ماسكاً حافر حصانه بيده، ولما سئل عما يَفعل، أجاب: أنه وجد حجراً في حافر حصانه. [٧].

وقبل أن ينتهي هذا الرسول من رفع الحجر المكذوب من حافر حصانه، كانت مقدمة جنكيز خان قد أَطبقت على رجال وانج خان وأَسَرتهم، ولم يعد رسل وانج خان بنتيجة استطلاعهم، بل جاءت خيول جنكيز خان على حين غرة، فأعملت

السيف في رقاب رجاله. فجُرح وانج خان وابنه توكتا بك، وفرَّا هاربين، ونُهبت العشيرة وسُبي النساء، ووقع جاموكا بيد جنكيز خان. فأمر بخنقه بخيوط من الحرير، وقُطِّعت أوصاله وأعضاء جسمه، كما قُتل وانج خان وابنه بعد فرارهما، ثم القيض عليهما، وأُرسل رأس وانج خان داخل صفيحة من فضة هدية إلى جنكيز خان، وبذلك انقرضت قبيلة القاريات. وأَخذت القبائل الضعيفة منها والقوية على اختلاف أديانها تَعرض الطاعة والإخلاص لسيد آسيا الجديد، جالبة معها كل ما لديها من آثار المدينة وخلاصة العلوم.

وبعد هذا النصر أَنعم جنكيز خان على الغلامين اللذين أعلماه بما كان يُدبره وانج خان له، فجعلهما وزريتهما (ترخانية): أي أحراراً، لا يُكلفون بشيء من الحقوق السلطانية، وما يَغنمونه من الغزوات تكون لهم بالكامل، ولا يُأخذ منهما أي شيء للملك، كما أعطاهم الحق لدخولهم إلى الملوك بدون إذن، وعدم معاقبتهم على إي ذنب إلى تسعة ذنوب [٨].

ومن الذين وقعوا في أسر جنكيز خان تاتأنجو، وهو من الأويغوريين، وكان يَعمل كاتباً لملك النايمان، فأدخله جنكيز خان في خدمته، ووكل إليه بتعليم هذه اللغة وكتابتها لأبنائه وأبناء الطبقة الراقية من المغول. وقرر استخدام الأويغورية، فسار لهم نفوذ قوي على أكوتاي بن جنكيز خان وخليفته في الحكم [٩].

استيلاء جنكيز خان على مملكتا النيمان

كان النيمانيون يمثلون إحدى القوى الكبرى التي جابهت المغول في ظهوره وبروزهم كقوة عالمية ذات إمبراطورية شملت معظم أراضي قارة آسيا وأجزاء كبيرة من أوربا، والنيمان يَرجعون في أصلهم إلى العُنصر التركي، وقد كانت أراضي النيمان قديماً تعد ضمن الحدود التقريبية التالية، حيث يحدها من الشمال أراضي قبائل القرقيز، كما تحدها من الجنوب ممتلكات قبائل الأويغوريين، أما حدودها من الشرق فملاصقة لأراضي قبائل كرايت والمركيت، أما من الناحية الغربية، فيحدها القراخطائيون، وكان ملوكهم أو خاناتهم

يسمون كوتشلوك خان، وهي كلمة تعني العظيم، الجبار، القوي، وأما طريقة حياتهم ونظام مجتمعهم، وعاداتهم وتقاليدهم فقد كانت شبيهة بالمجتمعات المجاورة لها، كالمغول وغيرهم من القبائل البدوية الرعوية الأخرى [١٠].

وقد كانت دولة النيمان من أكبر الدول في وسط آسيا، وذا سلطان واسع ويحكمها ملك واحد، إلا أنه في الوقت الذي ظهر فيه جنكيز خان، على رأس قبائل المغول، نجد أن المملكة النيمانية مقسمة إلى قسمين، شرقي وغربي، ويحكمها اخوين كل واحد مستقل عن الثاني، فكان بويرون خان يحكم مملكتهم الغربية، وبيبوقاتايانك يحكم المملكة الشرقية، ونظراً لمتاخمة الحدود الشرقية لمملكة النيمان الشرقي لحدود كرايت والمركيت، فقد كان من نتائج كارثة معركة وركو وقتل أونك خان، أن اصبحت الأراضي النيمانية مفتوحة على مصراعيها أمام اللاجئين من قبيلة كرايت الهاربة من سيف جنكيز خان، فنتج عن ذلك تجدد الصراع بين جنكيز خان من ناحية، وملكي النيمان الأخوين من ناحية أخرى، فقد انتهى ذلك الصراع الدامي المرير بزوال الدولتين النيمانيتين والقضاء بصورة نهائية على استقلالهما، كقوتين مستقلتين في وسط قارة آسيا، فقد قُتل الأخوين على التوالي، وآحاطت إمبراطورية جنكيز خان الشابة الناهضة بالمملكتين، ولتُصبحا جزء لا يتجزأ من أراضي دولة المغول.

وفي شهر رجب عام ٦٠٢هـ/ فبراير ـ مارس، سنة ١٢٠٦م، عقد جنكيز خان مجلساً عاماً وعمومياً، حيث تم تنصيبه كخانٍ أعظم على جميع ساكني الخيام في منغوليا وما جاورها في البُلدان، كما أعلن في هذا الاجتماع عن خطته للفتوحاته الجديدة، كما قرر الخروج خارج نطاق منغوليا، كما نشر في هذا الاجتماع دستور دولته الجديدة، المشهورة والمعروفة باسم: الياسا [١١].

تكوين الإمبراطورية المغولية

لم تقتصر جهود جنكيز خان على توحيد القبائل المغولية، بل كانت خطوة التوحيد نقطة انطلاق لبناء إمبراطورية تشمل معظم أنحاء العالم المعروف

آنذاك، فكان عليه لتحقيق مشروعه الطموح، أن يتحرك في جميع الاتجاهات، وأن يواجه خصوصاً متعددي الجنسيات والثقافات. لذلك تحرك جنكيز خان في عمليات عسكرية كبرى، حسب ما يلي:

السيطرة على الجبهة الصينية

مملكة التانغوت

هاجم جنكيز خان أولاً مملكة التانغوت، أو مملكة سي - هيا، في التبت وهي أضعف الممالك الثلاث التي تقاسمت النفوذ في الصين، فباستيلائه على هذه المملكة، يستطيع أن يتحكم بطريق الصين إلى تركستان، ويُحاصر من جهة الغرب مملكة كين، العدو التقليدي للمغول.

وقد قام جنكيز خان بثلاث غزوات ضد مملكة التانغوت، في السنوات: ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م، ٦٠٤هـ /١٢٠٧م، ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م، فاكتسح جميع أراضيها، ولكنه لم يُفلح في دخول عاصمتها ننج - هسيا، التي حاصرها طويلاً، ولم يرفع عنها الحصار إلا بعد أن وافق عاهلها على قبول السيادة المغولية على أراضيه عام ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م، ودفع الجزية لجنكيز خان، وهكذا أصبح جنكيز خان سيد مملكة التانغوت، أي إقليم كانسو الصيني الحالي، وسهول أوردوس وألدشان، التي كانت تُعتبر منطقة حدودية مع الصين، فكان على القائد المغولي، إذا ما أراد أن يتخذ لنفسه موطئ قدم في أراضي الصين أن يُهاجم مملكة كين، التي كانت تتبع لها بعض طوائف الترك والمغول [١٢].

مملكة كين "مملكة الذهب

عندما بدأ جنكيز خان، في هجومه على مملكة كين القوية، لاقى صعوبات لم يقابلها خلال غزوه لمملكة التانغوت، وتتمثل تلك الصعوبات، في: التحصينات المنيعة، وحروب الحصار التي لم يكن جيشه قد اعتاد عليها بعد، علاوة على وجود سور الصين العظيم، وحصونه الممتدة من الشرق إلى الغرب، مما شكل خط دفاع مستمر لحماية مملكة الذهب.

وقد توجهت أنظار جنكيز خان في بداية الأمر إلى التحالف مع قبائل الأنغوت، المقيمة شمال سور الصين في منغوليا الداخلية حالياً، ونجح في إقامة حلف مع ملكها، بعد أن وافق على تزويج إحدى بناته للملك الأونغوتي الذي كان يُعتبر، نظراً لموقع مملكته الإستراتيجي، والمعاهدات المعقودة بينه وبين ملك كين، يُعتبر حارساً للحدود الصينية، ومراقباً أميناً فيما وراء السور العظيم، ولهذا، فعندما حالف جنكيز خان مملكة الأنغوت، بدا وكأنه فكك وسائل دفاع مملكة كين، دون أدنى جهد ممكن، وأوصل حدود إمبراطوريته إلى الخطوط الأمامية من مواقع الخصوم، كما كان لديه بدائل متعددة لتحقيق أهدافه، فإذا عجز عن تحقيقها بالقوة فالحل بالسياسة والحيلة والرأي [١٣]. وفي عام ٦٠٧هـ/ ١٢١١م، جمع جنكيز خان جيشاً عظيماً في منغوليا الشرقية، على ضفاف نهر كيرولين استعداداً للهجوم على بكين، وبطبيعة الحال لم يجد هذا الجيش صعوبات تُذكر، في اختراق دفاعات الأتراك والأنغوت المتحالفة معه، ووصل جيشه إلى شمال الصين، وخرَّب البلاد التي اجتاحها، إلا أنه فشل في الاستيلاء على مُدنها الرئيسية، لافتقاده المهارات الهندسية اللازمة لذلك، وطال وقوف جيشه أمام قلاع سور الصين، ومضى عاماً/ ٦٠٨هـ / ٦٠٩هـ / ١٢١١م /١٢١٢م، ولم يستول سوى على مراكز قليلة الأهمية، لصعبة تضاريس تلك البلاد، والتي يتخللها سلاسل جبلية متداخلة، ويمر سور الصين خلالها، من خليج بتشيلي إلى النهر الأصفر، ثم إلى الشمال من بكين وتاتونج، عند شمال شان سي.

لذلك اكتفى القائد المغولي بإحراز بعض الانتصارات غير الحاسمة، كما حصل عام ٦٠٧هـ / شباط- آذار ١٢١٣م، في معركة جبل يي، وهو الواقع بين بكين وكالجان، وتحين جنكيز خان الفرصة السانحة، في ربيع الأول ٦٠٨هـ / ١٢١٢م، عندما ثار أحد أمراء الخطاي، وهي قبيلة مغولية في الأصل، وهم الآن خاضعين لسيادة كين، ووجدوها فرصة لإعلن تأييدهم للفاتح المغولي، فأَسرع القائد المغولي إلى دعم الأمير الثائر، وأرسل أحد أعوانه، وهو القائد جيبي، إلى إقليم لياو يانج جنوب منشوريا، لكن القوة المغولية هُزمت أمام أسوار مدينة لياو يانج،

فتراجع القائد جيبي إلى منطقة مجاورة ليُعيد تنظيم قواته، ثم باغت المدينة واحتلها وأعلن يي لو ليو ملكاً على شعب الخطاي تحت السيادة المغولية [١٤].

وفي عام ٦١٠هـ/١٢٢٣م، توجهت جيوش جنكيز خان إلى الصين للمرة الثانية، وكان هدفه السيطرة على طريق كالجان / بكين الإستراتيجي، فاستولى على هسوان . هوا، وهي أول مدينة حصينة على هذا الطريق تسقطت بيده. ثم استولى تباعاً على: باور ـ آن، وهواي ـ لاي. ثم اجتاز ممر تشو ـ يونج ـ كوان "نان ـ كو" المظلم، جنوب غربي هواي ـ لاي، الذي تتحكم فيه حصون منيعة تسيطر على المنطقة التي ينحدر منها السور العظيم نحو بكين.

ثم وصل جنكيز خان إلى مدخل سهل شرقي الصين الكبير الممتد من بكين إلى نان ـ كنج، فسيطر بذلك على الطريق المؤدية إلى الأراضي الصينية، وفي المنطقة الشمالية الشرقية استولى على قلعة كويبي ـ كو، التي تتحكم بالممر الرئيسي ما بين جيهول "شانغ ـ تي" وبكين في الشمال الغربي للبلاد، كما استولت قواته على تا ـ تونغ، المعقل الهام الذي يَقع بين خطي سور الصين، ويُسيطر عل إقليم شان . سي، وانتهز جنكيز خان حالة الفوضى الناتجة عن قيام أحد الأمراء بقتل ملك الذهب: وي . شاو، في ربيع الآخر ٦١٠هـ/آب/أيلول ١٢١٣م، وقام بهجومٍ واسع على وسط مملكة كين من ثلاثة محاور، حيث وجه ثلاثة جيوش، كالتالي [١٥].

١. الجيش الأوسط، وتولى جنكيز خان قيادته بنفسه، ومعه ابنه تولوي تولي. وزحف من السهل العظيم، سهل الصين الشرقي إلى وسط الصين، متجنباً الهجوم على بكين بعد أن وضع قوات قبالتها، ثم انعطف إلى الجنوب، فنهب المدن تباعاً، بدءاً من باو ـ تونج جنوباً، حتى بكين شمالاً، ومن بكين قَطَع جنكيز خان مسافة جاوزت ٣٠٠ميل من الشمال إلى الجنوب، ولم يتوقف إلا عند وصوله إلى هو ـ باي، على النهر الأصفر، حيث لم تَستطع خيوله عبور النهر لغزارة مياهه وسُرعة جريانه، وبعد ذلك توجه جنكيز خان إلى المنطقة الجنوبية الشرقية، ووصل إلى سهل شانتونج الخصيب، وأحتل مدينة تسي ـ تان، ثم انتقل إلى

مرتفعات تاي ـ شان، وسار نحو الشرق وسيطر على مدينة لان ـ شان، على الجانب الأقصى لحدود إقليم شانتونج، فسقطت بيده القلاع الصينية الواحدة تلو الأخرى، باستثناء بعض الحصون المنيعة التي عَجز عن اقتحامها، ثم رَجع إلى سور الصين العظيم، بعد أن نهب سهل الصين الشرقي [١٦].

٢. الجيش الأيمن، ويمثل الجناح الأيمن من الجيش، وقد تولى قياده: جوجي وجغتاي وأوكتاي، أولاد جنكيز خان، فسار إلى القطاع الغربي من هو ـ باي، عن طريق بوا ـ تنبح وشانتو، واقترب من هواي ـ كنج، في مقاطعة هانون، شمال النهر الأصفر، وعبر آخر التلال المنخفضة في تاي ـ هانج، وصعد بعدها إلى إقليم شان ـ سي، ثم توجه عبر حوض نهر: فن، الذي يقسم الإقليم المذكور إلى قسمين، في مجراه المتجه من الشمال إلى الجنوب، وبسط سيطرته على المدن الواقعة على ضفتي: فن، وفي جواره وهي مدن: باي ـ بانج، فن ـ تشي، وهسن ـ تشو، كما استولى على مدينة تاي ـ يوان، وحاضرة إقليم شان سي، ثم رَجعَ إلى سور الصين العظيم عن طريق تاي تشو وتاتونج.

٣ـ الجيش الثالث، وقد تولى قيادته: قاسار أخو جنكيز خان، فسار بمحاذاة بكين، مُتبعاً الطريق الساحلية شمالاً، وأخضع المنطقة الواقعة ما بين شان ـ هاي كوان وجيهول" شانغ تي" ثم توجه للسيطرة على منشوريا العليا، في إقليم نهري نوتي وسنجاري، وصولاً إلى نهر آمور. وفي عام ٦١١هـ/١٢١٤م، انتهز جنكيز خان فُرصة مبادرة إمبراطور الصين وعرضه الصلح، وأن يَضم جنكيز خان كافة البلاد التي فتحها في الصين، سواءً كانت داخل سور الصين أم خارجه، فأعلن جنكيز خان موافقته على طلب الإمبراطور، وما إن اجتاز القائد المغولي سور الصين، في طريق عودته إلى منغوليا، من ممر تشو ـ يونج ـ كوان، حتى عدل الإمبراطور عن فكرة الصُلح وشَرع في تحصين قلاعه وحصونه، ونَقل عاصمة ملكه إلى مدينة كاي فونج، في جنوبي البلاد، لتكون أقرب إلى ساحة القتال، تاركاً بكين في عهدة ولده، فما كان من جنكيز خان إلا أن استدار بجيوشه وعاد مسرعاً إلى الصين، واشتبك مع الجيش الصيني في معركة فاصلة، سقطت على أثرها بكين في أيدي المغول عام ٦١٢هـ/١٢١٥م [١٧].

مقومات نجاح الدولة المغولية

من المنطق والحكمة أن يكون لك مشروع يسعى الإنسان إلى تحقيقه، مجموعة من المقومات تضمن الوصول إلى أفضل نتائج، فما بالنا والمشروع هو تكوين امبراطورية عالمية، تصل إن أن تكون الأولى في العالم، لذلك فالمطلع على تاريخ الدولة الأولى للمغول، تلك التي تكونن بيد قائدهم الأول والأب الروحي لهم، جنكيزخان، كانت لها من المقومات ما وصل بها إلى ما وصلت إليه، ومن هذه المقومات:

شخصية جنكيز خان

لقد كانت شخصية جنكيز خان قيادية من الطراز الأول. سمحت له بالتغلب العسكري على كل من وقف في وجهه من دول العالم وشعوبه في القرن الثالث عشر الميلادي، وقد أقام من نفسه حاكماً على نصف العالم المعروف في هذا الوقت، وأثار لدى البشر خوفاً رهيباً استمر قائماً في أعماق النفوس أجيالاً عديدة، لقد كان الاسم نفسه يحمل صفة القوة: فتيموجين وهو الاسم الأول لجنكيزخان، يعني الرجل الفولاذي، ولقد تميز جنكيز خان، هذا القائد المغولي بأمور، منها:

١. دقة التنظيم وبناء الجيش.

٢. تبني الاستراتيجيات والخطط.

٣. اتباع التكتيك.

٤. حسن التخطيط لك المستويات.

٥. معرفة كفاءات وقُدرات الرجال.

٦. اختيار الأعوان بعناية.

٧. القدرة على الاستفادة من نقاط الضعف لدى الآخرين، بعد التعرف عليها، وتسخيرها لصالحه.

هذه كلها مميزات هامة للعسكريين والمدنيين على سواء، ومن الحكمة والعقل السعي إلى معرفة كل ذلك، والتعرف على كل ما يُساعد على تحقيق الأهداف، ولأن المعرفة قوة ضد الجهل والارتجال، ومعرفة الحقائق وأسرار التاريخ، يساعد على قيام الدول، وتوسع الحضارات [١].

كان جنكيزخان، طويل القامة، متين البنية، قوي البدن، أصلع الرأس باستثناء بعض الشعر الرمادي اللون، وعيناه كعيني الهر، وكان لا يتكلم غير المغولية، بالإضافة إلى عبارات صينية قليلة: وكان في حياته الخاصة، كما في حياته العامة لا يتصنع، ونادراً ما كانت يتصرف بصورة متطرفة، فكان ذلك من أسباب احتفاظه بنشاطه العقلي والبدني حتى النهاية، ويَذكر الباحثون بأن جنكيزخان لم ينغمس قط في التطرف الجنسي، وأن المتعة المفضلة لديه هي لعبة البولو، ورَحلات الصيد، وكان في كليهما مُبدعاً، ولم يكن غريباً عن ملذات الخمر، يشترك فيها مع جميع بني قومه، أما ابنه وخليفته أوغوداي، فإنه كان على العكس من ذلك، فلم يَسمح للشراب أن يكون متسلطاً عليه، وكان يُعبر عن رأيه في هذه العادة بقوله: إذا المرء لم يستطع الامتناع عن الخمر، فليكتف بالشرب ثلاث مرات في الشهر، وإن هو فعل أكثر من ذلك، فإنه يرتكب جريمة بحق نفسه، وإذا شرب مرتين في الشهر فذلك أفضل، وإذا شرب مرة واحدة في الشهر فذلك أعظم فضلاً، وإذا لم يشرب المرء خمراً بالمرة، فذلك يكون عملاً عظيماً يستحق الثناء والتقدير [٢].

جنكيز خان شجاعاً

كان جنكيزخان يتمتع بشجاعة فائقة، ويُقدر الشجاعة لدى الأصدقاء والأعداء على السواء، وقد شق طريقه إلى السلطة بالعمل ضد أُناس كانوا على شجاعة خارقة، ومن الأمثلة على إعجابه بالشجاعة، أنه في نهاية المعركة التي أنتصر فيها على السلطان الخوارزمي جلال الدين، عند نهر السند عام ١٢٢١م، أنه من فرط إعجابه بشجاعة خصمه الشاب. ورغم ما اعتراه من أسف لفراره بالقفز مع جواده إلى النهر إلى حد حمله على أن يهتف قائلاً كمثل هذا يجب أن تلد النساء، وقد اعتبر جلال الدين صنواً له في الشجاعة والإقدام، وسأله يوماً وكان قائداً أسيراً لديه قائلاً له: إنهم يدعونك بطلاً عظيم القدرة، فما هو دليلك على ذلك؟ فأجاب جنكيز خان: في صباي كنت يوماً أسير على جوادي وحيداً في الفلاة وقد اعترضني ستة رجال، كانوا يكمنون لقتلي عند مخاضة، وقد هاجمتهم بسيفي تحت وابل سهامهم، وقتلتهم جميعاً، وتابعت طريقي دون أن أُصاب بأذى، وقد مررت بطريق عودتي، بالمكان الذي قتلت فيه أولئك الأعداء فوجدت خيولهم طليقة ولا يعتني بها أحد. فاستوليت عليها.

لقد كان الرجل يثق في شجاعته وبأسه، كما أنه يؤكد بهذه القصة اعتقاده بأنه يتمتع بحماية سماوية: لقد قررت السماء، أنهُ لن يموت قتلاً. وقد قَتل جميع أعدائه واستولى على خيولهم [٣].

جنكيز خان جواد

كان جنكيز خان سخياً في مكافأة ضباطه، لكل عمل يُظهرون فيه شجاعة فائقة، وكان معروفاً بالجود والكرم، ومما ذكره الجويني عنه في هذا الخلق، أنه قدم له بعض الفلاحين بالصين ثلاث بطيخات، فلم يتفق أن عند جنكيز خان أحد من الخزاندرية، فقال لزوجته "خاتون": أعطيه هذين القرطين اللذين في أذنيك، وكان فيهما جوهرتان نفيستان جداً، فشحت المرأة بهما، وقالت: انظر إلى غيره، فإن هذا لا يدري ما هما، فقال: أدفعيهما إليه فإنهما لا يبيتان هذه

الليلة إلا عندك، وهذا الرجل لا يمكننا أن ندعه يذهب عنا مقلقل الخاطر، وربما لا يحصل له شيء بعد هذا، وإن هذين لا يمكن أن أحداً إذا اشتراهما إلا جاء بهما إليك. فانتزعتهما فدفعتهما إلى الفلاح. فطار عقله بهما، وذهب بهما فباعهما لبعض التجار بألف دينار، ولم يَعرف قيمتها فحملها التاجر إلى الملك فردهما على زوجته [٤].

واجتاز يوماً في سوق، فرأى عند بقال عناباً فأَعجبه لونه، ومالت نفسه إليه، فأمر الحاجب أن يشتري منه ببالس، فاشترى الحاجب منه بربع بالس، فلما وضعه بين يديه أعجبه وقال: هذا كله ببالس؟ فقال: وبقي منه هذا وأشار ما بقي معه من مال، فغضب وقال: متى يجد من يشتري منه مثلي، تمموا له عشرة بوالس [٥].

وأَهدى إليه إنسان رُمانة، فكسرها وفرَّق حبها على الحاضرين، ثم أمر له بعدد حبها بوالس، وأنشد الجويني عند ذكر هذه الحادثة:

فلذلك تزدحم الوفود ببابه

مثل ازدحام الحب والرمان

جنكيز خان غيور

كانت لدى جنكيز خان غيرة مفرطاً على كل شيء يعتبره ملكاً له، فبعد احتلال مدينة جورخند، عام ١٢٢١م، تقاسم أولاده: جوشي، وجغطاي وأوغوداي، جميع الغنائم والأسلاب بينهم، دون أن يَرفعوا منها شيئاً كحصة لأبيهم، وعند عودتهم إلى المقر الإمبراطوري وجدوا أباهم في حالة غضب شديد، واستحال عليهم أن يُقَابلوه، وفي آخر الأمر راى الأوخونات: موخالي، ويوركوجي، وشيكي أن عليهم أن يتدخلوا في الأمر، فذهبوا إلى مقابلة جنكيز خان يُعاتبونه على موقفه قائلين: لقد تغلب أولادك على الخوارزميين، وكل ما في المدينة ملك يديك، وقد انتصرنا في هذه الحرب بمعونة السماء والأرض، ونحن ضباطك، مفعمون فرحاً واغتباطاً، لماذا أنت غاضباً على هذه الصورة؟، لقد اعترف أولادك

بخطئهم وهم خائفون، لقد أُعطوا إنذاراً للمستقبل، أسمح لهم الآن أن يمثلوا في حضرتك.

خف غضب جنكيز خان بعد هذه الكلمات. ووافق على استقبال أولاده، إلا أن غضبه عاوده للحال عند رؤيتهم، وأخذت أجساد الأمراء الثلاثة تتصبب عرقاً، وعندئذ بادر ثلاثة أفراد من الحرس الخاص بالتوسط بدورهم قائلين: أولادك هم كصقور ولم يتلقوا غير أول تدريبهم، أنهم يخوضون أول حروبهم، فإذا أنت ثابرت على معاملتهم على هذا النحو، فقد تتحول عواطفهم عنك في المستقبل، هناك أعداء من مشرق الشمس إلى مغربها، فأرسلنا ضدهم وسنقاتلهم كالكلاب التيبيتية، وإذا ساعدتنا السماء وانتصرنا، فسوف نأتيك بكل ما يملكون من ذهب وفضة وحرير، وفي الغرب هناك خليفة بغداد، فأَرسلنا ضده، عند ذلك زال غضب جنكيز خان وعفا عن الأمراء [٦].

جنكيز خان متشدد وحازما

رتكب جنكيز خان فظائع رهيبة، ومذابح عديدة تقشعر لذكرها الأبدان، وهذه الأعمال الوحشية لم تكن غريبة على المجتمع المغولي في ذلك العصر، وفي (البيليك) - أي الأقوال المأثورة عن جنكيز خان - ما يُلقي الضوء على هذه الناحية من مسلكه، فقد جاء فيها عن لسانه: إن أعظم مسرة للمرء هي هزيمة أعدائه، وطردهم أمامه، والاستيلاء على كل ما يملكون، ورؤية أعزائهم يبكون. وامتطاء خيولهم، وضم نسائهم وبناتهم بين ذراعيه. وكان جنكيز خان بمثل هذه الأحاسيس، يُعبر عن مشاعر بني قومه وعادات عصره وبيئته، بل لقد كان القادة المسلمون يَفعلون في إخوانهم من أمراء الدول التي تعاديهم مثل فعل التتار وأكثر، وانظر فعل الموحدين بالمرابطين، وما فعله الأمويون في العلويين. وما فعله العباسيون في بني أمية [٧].

جنكيز خان مُخلصٌ لأصدقائه

كان جنكيز خان صديقاً مخلصاً لكل أولئك الذين كانوا يُخلصون في خدمته، ولنا في معاملته لضباطه أحسن مثال على ذلك، وكان يمدهم بالنصائح القيمة، ومن الأمثلة على ذلك: وصيته لسوبوداي، عندما أرسله ضد المركيت عام ١٢١٦م، والتي جاء فيها: سيكون عليك، لبلوغ هدفك، أن تسير عبر مضائق جبلية عالية وأنهار كثيرة، وكلما طالت الطريق كلما دعت الحاجة إلى مداراة خيالتك والاقتصاد في مؤونتك، حتى لا تُرهق خيلك قبل أن تُدرك العدو، وعليك أن تنتبهه دائماً لكلي لا يتسبب اللجام أو الحزام تحت الذيل بجرح مطاياك، وإذا خالفك أحد فابْعث به إليَّ إذا كنت أَعرفه، وإلا فعاقبه بنفسك.

ولما كان جوشي، ابن جنكيزخان البِكْر موجوداً مع الجيش، بصفة قائد أسمى، فربما يكون جنكيز خان قد استهدفه بهذه الكلمات، وخاصة ما كان منها متعلقاً بالصيد، لأن جوشي كان مُغرماً به بصورة مُفرطة، ولم يكن هناك أدنى شك بأن القائد الفعلي للحملة كان سوبوداي، القائد العظيم والجنرال الخبير المجرب.. توفي عام ١٢٢٢. وكان جنكيز خان يُشجع على النجاحات التي يُحققها القادة ويَهتف بها، ففي عام ١٢٢٣م، أثنى علناً على سوبوداي للنتائج المذهلة للحملة التي قادها مع زميله جيبة، منذ صيف عام ١٢٢٠م، إلى شتاء عام ١٢٢٢م، في غرب إيران، وجورجيا، والقوقاز، وروسيا الجنوبية، وبلغاريا الكبرى، ومما قاله علناً بهذه المناسبة: لقد نام سوبوداي على ترسه، وفاز في معارك دموية عنيفة، وعَرَّض حياته لأعظم الأخطار والمهالك في سبيل عائلتنا، وإنا لراضون عنه أشد الرِّضى، وبعد سنين من ذلك التاريخ نوَّه بموخالي - وهو جنرال عظيم أيضاً - على نفس الصورة لإنجازاته المدهشة في الصين [٨].

ولم تكن الدهشة والارتباك يطرأ على جنكيز خان، بل دائماً يَتَصرف بوعي كبير عند حصول ما لم يكن يتوقعه، كأن يمنى أحد جنرالاته بالهزيمة مثلاً، ومن ذلك أنه بعد أن تَفَقدَ ميدان القتال في وادي بيروان في أفغانستان، حيث

مُني ابنه بالتبني: شيكي كوتوكو بهزيمة على يد السلطان الخوارزمي جلال الدين، فإنه لم يعمد إلى لوم أو تعديد الهفوات والأخطاء، وإنما اكتفى فقط بانتقاد اختيار القائد لميدان المعركة.

ثم وجّه كلامه إلى من كان حوله قائلاً: إن من عادة شيكي كوتوكو أن ينتصر دائماً، ولم يَسبق له أن ذاق مرارة الهزيمة وقسوتها. والآن، وبعد أن عانى من ذلك، فإنه سيكون أكثر حذراً واحتراساً. وحتى مخالفات الضباط، وهي التي يعاقب عادة عليها بصرامة. فإنه يُعالجها أحياناً برفق وتساهل. فقد كان يُعالج كل أمر بما يناسبه من حكمة، ومن ذلك انه في عام ١٢٢٠م عندما أرسل سوبوداي؛ وجيبة، وتوكوشار إلى مطاردة سلطان خوارزم، فقد أمرهم جميعاً أن يَسيروا خلال ممتلكات عاهل هرات أمير الملك دون الإساءة إلى أحد من السكان، وقد تقيد سوبوداي، وجيبة بهذا الأمر، لكن توكوشار سَمحَ لجنوده بنهب جزء من الإقليم، ولما بَلغ جنكيز خان ذلك مال في بادئ الأمر إلى إعدام الجنرال المُخالف، لكنه عاد فعدل عن ذلك بعد تفكير، واكتفى فقط بتوجيه اللوم العنيف إلى توكوشار، وبَعث إليه بضابط يشاركه في القيادة [٩].

وهكذا بالثقة، والإقرار بالفضل. والتحرر من الغيرة والحسد، اللذين أضرا كثيراً بالعلاقات بين الاسكندر المقدوني ونابليون بونابرت مع جنرالاتهما. وباستطاعته السيطرة على الغضب، اكتسب جنكيز خان لنفسه وعائلته وفاءً لا حدود له، وولاءً مطلقاً من كل أولئك الذين عَملوا معه. وكان هؤلاء جميعاً يتقيدون بعزم وتصميم، في تنفيذ أوامره وتعليماته، ونادراً ما فشلوا في تذليل الصعوبات والتغلب على الموانع والمشاق، لقد استطاع بسياسته أن يجعل قضيته هي نفس قضية قواده وجيوشه [١٠].

جنكيز خان يَعرف الرجال ويَقُد القادة

تميز جنكيز خان بمعرفته الفائقة للرجال، وقدرته على قيادة القادة، ولذلك نبغ في الإمبراطورية المغولية، قادة عظام خاضوا حروباً كبيرة بتخطيطهم وعلى مسئوليتهم الكلية، وكان هؤلاء القادة عندما يكونون برفقة جنكيز خان، فإنهم

كانوا يُساهمون إلى حد كبير ولاشك، بوضع الخطط وتنفيذها تحت إشرافه المباشر. وكانت جميع العمليات الرئيسية التي جرت في حياته تَصدر عن قراراته، ولذلك يعود له الفضل الأول في جميع انتصارات المغول المدوية، التي جعلته على مثل تلك الشهرة من القيادة المتفوقة.

إذا رجعنا حروب الإمبراطورية المغولية، فمنذ عام ١٢٢١م إلى خريف عام ١٢٢٢م، عندما كان أعظم جنرالاته بعيداً عنه، حيث كان موخالي في الصين، وسوبوداي وجيبة في روسيا في أوربا الشرقي، فإن جنكيز خان لم يحتل خوارزم وخراسان فحسب، بل سار بعد ذلك منتصراً خلال جبال أفغانستان المخيفة، دون أن يتعرض جيشه ولو مرة إلى خطر من أي نوع، وبعد موته، وحتى بقيادة أشهر الجنرالات وأولاده وأحفاده، فإن المغول لم يحققوا إنجازات مثيلة لإنجازاتهم أثناء حياته وتحت قيادته، وقد استطاع جنكيز خان انتزاع الإعجاب والتفاني من الفريق القيادي الذي كان مع، من أمثال وزيره الصيني الحكيم يلوي. تشو سي - ومن تلك الكوكبة الفريدة من القادة اللامعين الذين أحاطوا به، من المغول: بوكورجي، موخالي، سوبوداي، جيبة وساموخا وغيرهم كثير، مما يدل ان جنكيز خان لم يكن وحده شخصية كبيرة فذة فحسب، بل أن فراسته ومعرفته بالرجال، واختيارهم ما هي إلا العبقرية بعينها [١١].

ومن الأدلة على معرفته بالرجال، اختياره أثناء حياته خليفته، ودلَّ هذا الاختيار على حكمته واتساع أفقه وقوة فكره ونفاذ بصيرته، فلم يَغتر بما اشتُهر به تولوي من مواهب عسكرية، أو بما اتصف به جغتاي من صَرامة، يستطيع أن يفيد منها في تحقيق المبادئ الأساسية التي ينطوي عليها نظام جنكيز خان، بل ركز اهتمامه في أوكتاي الذي تعلقت به القلوب، لما اشتهر به من طلاقة الوجه والسخاء. ونظراً لأن ما اشتهر به جنكيز خان من قوة الإرادة، التي لم يرثها أحد من أبنائه، كان لا بد أن يشترك جميع أفراد الأسرة بعد وفاته في إدارة البلاد، إذ أن وحدة الإمبراطورية لا يحفظها إلا رجل يتصف بقوة الإرادة، والتفكير السليم، ويتحلى بخلال خُلقية تَجعله مقبولاً عند الناس [١٢].

جنكيز خان رجل دولة مُحنك

لم يكن جنكيز خان رجل حرب متفوقاً فحسب. بل كان إلى جانب ذلك رجل سياسة ودولة، وكان من خِصاله البارزة العزم الذي لا يَنثني، والمقدرة على ألا يتعدى حدود إمكاناته الشخصية، وبينما كانت مطامع وطموحاته بلا حدود، كان مع ذلك حريصاً على أن لا تتفوق مشاريعه على حدود إمكاناته، إنه لم يمن بهزيمة، ولا أُصيب بكارثة. وقد ترك لأولاده إمبراطورية مترامية الأطراف شاسعة الأرجاء، كما ترك لهم أقوى جيش في ذلك العصر، وإذا قارنا بين جنكيز خان وبعض القادة وتاريخ الإنسانية رأينا الفرق الكبير، فمثلاً نابليون بونابرت ألمع القادة الأوربيون تراجع عاجزاً أمام مدينة صغيرة كعكا وتخلى عن جيش كامل في مصر.

وارتكب حماقة في أسبانيا وخلف جيشاً كبيراً في ثلوج روسيا وانتهى أخيراً إلى الهزيمة الساحقة في ميدان واترلو، ومات سجيناً لدى ألد أعدائه في جزيرة نائية، وقد تحطمت إمبراطوريته تحت سمعه وبصره، ومزق دستوره وحرم ولده من آلوراثة في حياته، وإذا تحولنا إلى الاسكندر الكبير، ذلك الفتى المنتصر، الذي فتح العالم في زمانه بعبقريته، وأخذ جنرالاته عقب موته يتقاتلون على وراثته، واضطرا ابنه الرضيع إلى الفرار لِيُقتل مع أمه وجدته لأبيه. وأما جنكيز خان. فقد جَعل من نفسه سيداً مُطلقاً على الأرض، من كوريا حتى أرمينيا. ومن التبت سقف العالم حتى الفولغا، وخلفه ولده دون أي احتجاج، وعاش حفيده. قبلاي خان، حاكماً على نصف العالم [١٣].

نظرة في أعمال وأخلاق جنكيزخان

وإذن فكل تلك الأعمال الوحشية التي ارتكبتها جيوش جنكيزخان، والتي تهدف إلى إبادة الجنس البشري وإنتهاك حقوق الإنسان إنتهاكا صارخا، إنما هي من هذا القبيل، ولا يمكن أن تفترق في البشاعة والشناعة عما إقترفه المغول ولا شك أن هؤلاء جميعا في مختلف الأمم والعصور مسؤلون مسؤلية كاملة

أمام الله وأمام التاريخ عما إقترفوه من آثام وينبغي أن نحملهم مسؤلية أكبر من تلك التي يتحملها المغول لأنهم يدينون بدين سماوي من جهة، ولأنهم أكثر تحضرا من المغول من جهة أخرى والويل لكل هؤلاء من عذاب الضمير وعدالة السماء ونقمة الشعوب. ثم إن القتل العام الذي سار عليه جنكيز خان إنما كان جزءاً من نظامٍ حربي اتبعه البدو ضد أهل الحضر الذين لم يستسلموا في الوقت المناسب، والذين ثاروا بعد أن كانوا قد استسلموا.

وعلينا هنا أن نفهم أن مثل جنكيز خان في القتل العام مثل جلاد تجرَّد من كل عاطفة، وكُلف بتنفيذ حكم عام، لا فرق عنده بين فقير وغني، وصغير وكبير، ورجل وامرأة، ومسلم وكافر، وهو بالإضافة إلى ذلك رجل بدوي لم يَعرف مطلقاً الحضارة الزراعية والريفية، فحينما غزا إيران الشرقية والصين الشمالية ظن انه من الطبيعي أن يمحو المدن، ويُبيد المزروعات، ليعود بهذه المناطق إلى حالات السهوب كبيئته التي عاش فيها، وإن كان على هذا الرأي تحفظاً مني، إلا أن هذا ما كان منه بالضبط [١٤].

وهكذا تُجتمع الروايات على أن فتوحات المغول، كانت مصحوبة بالمجازر البشرية، ويمكن تصنيف الحروب المغولية عموماً ضمن حروب الإبادة الجماعية، فإنه ليصعب علينا أن نعرف أي صرعى جنكيز خان أكثر عدداً؟ صرعى حروبه مع القبائل وفي الاستبس، أم صرعاه في البلاد المتحضرة، ويصعب أيضا أن نثبت أن فتوحات المغول كانت نفعاً خالصاً أو ضراً خالصاً لأهل تلك المجتمعات المختلفة التي غزاها، فإنه لم يكن يبيد تلك المجتمعات تماماً.

وذلك مثلما كان حال السلاجقة حين استولوا على غرب آسيا، بل بقيت جمهرة المغول العظمى في منغوليا، وإليها رَجع جنكيز خان، وبقيت مقراً لِخُلفائه أكثر من أربيعين سنة بعد وفاته [١٥].

وهذا الميل الغريزي إلى السفك والقتل والمكر والدهاء استمر يلازم جنكيز خان إلى آخر لحظة من حياته، يَروي رشيد الدين أن (شادر غو) ملك التانجوت ظل مدة طويلة يتمرد على جنكيز خان ويُحاربه، وأخيراً عندما مرض جنكيز

خان أرسل إليه هذا الملك رسالة يَعرض عليه الصلح ليحل السلام والوئام محل الخصام والنزاع، وطلب مدة شهر لكي يُعد الهدايا والتحف ويَخرج مع أهالي المدينة ليقدم فروض الخضوع والطاعة. فوافق جنكيزخان، وأجابه قائلاً: إنني مريضٌ، فاصبر حتى تتحسن صحتي.

وكان العاهل المغولي يعلم علم اليقين أنه لن يَسلم من هذا المرض، ولهذا أوصى الأمراء قائلاً: لا تذيعوا خبر موتي. ولا تَبكوا وتنوحوا عليّ مُطلقاً. حتى لا يعلم أهالي التانجوت، وعندما يَخرجون في الموعد المحدد اقتلوهم عن آخرهم [١٦].

لقد كان تقاليد آلاف من السنين تتمثل في شخصية جنكيز خان، تلك التقاليد التي تبناها ذلك الرجل البدوي. تلك التقاليد التي لا تبالي بما يسفك من دماء ويزهق من أرواح، بل تجد السعادة والرضا حين تفتح الأقاليم، ويُقام الملك على حساب الملايين من القتلى، تأملوا حديثه وهو يقف أمام عتبة المدينة، ليُعبر عن سعادته الكبرى فيقول: مزقوا هؤلاء الأعداء إربا إربا، اطردوهم أمامكم، استولوا على ممتلكاتهم، علقوا من يحبونهم على أسلحتكم، حطموا نسائهم وبناتهم [١٧].

وكانت أسعد الأوقات عند هذا الطاغية هي التي يحطم فيها قوى أعدائه ويطاردهم، ويستولي على ممتلكاتهم، ويَرى دموع الألم تتساقط من أعين نسائهم وأطفالهم. وهو الوقت الذي يستطيع فيه أن يَركب خيولهم ويمتلك بناتهم ونسائهم. وعندما تنبأ بأن أحفاده سيطرحون وراء ظهورهم يوما ما حياة البداوة وما فيها من خشونة وتَعب، وسيحيون حياة أهل الحضر دون كُلفة أو مشقة، صرح قائلا: سيأتي أناس من بعدنا من نفس جنسنا، يلبسون أزياء ثمينة، ويأكلون أطباقاً دسمة، مضافاً إليها الحلوى، ويمتطون الجياد الأصيلة، ويضمون إلى صدورهم أجمل النساء، ولكنهم لن يقولوا إن هذا كله قد جمعه لنا آباؤنا وساداتنا، وسينسون في وقت عظمتهم أنهم مدينون لنا بهذا. وقد وقع ما تنبأ به هذا العاهل المغولي البعيد النظر وحدث بالفعل، فإن أبناؤه وأحفاده

سرعان ما تحولوا من حياة البراري القاسية إلة حياة الحضر الوادعة المترفة [١٨].

ومن هنا يتبين أن جنكيز خان نفسه كان حريصاً على المحافظة على كيان المغول والإبقاء على التقاليد البدوية مرعية ومصونة، لأن هذا يكفل لهم الانتصار على أعدائهم. إنه كان يَكره حياة المدنية حقا، ويُبغض ما فيها من نعيم وترف، ويفضل الحياة الجافة الغليظة التي تدعوا إلى الجهاد والسعي والعمل. يقول في هذا الصدد موجها نقده إلى حياة الدعة والبذخ التي كان يحياها الصينيون:

لقد برمت السماء من هذا البذخ المتناهي في الصين. أما أنا فسأبقى في المنطقة المتوحشة في الشمال، سأعود إلى البساطة، وسأرجع إلى التوسط، وسأحتفظ بنفس الرداء، وبنفس الغذاء، كحراس البقر تماماً، سواء فيما يتعلق بملابسي التي ألبسها، أو بوجباتي التي أتناولها. سأُعامل جنودي كأخوة أشقاء. لقد شهدت مئات المعارك، ووضعت نفسي دائما في المقدمة، وانجزت عملاً كبيراً خلال سبع سنوات [١٩].

ولعل جنكيز خان بهذه التصريحات كان متأثراً بكلمات أبيه التي يقول فيها: إننا لا نَبلغ واحداً من مائة من سكان الصين. والسبب الوحيد الذي من أجله امكننا مقاومتهم هو اننا قوم رُحَّل ننتقل بمؤننا من مكان إلى آخر. إنَّ لنا خبرتنا بنوع القتال الخاص بنا. إذا ما استطعنا سلبنا ما نحن في حاجة إليه، وإذا لم نستطع قبعنا بعيداً. أما إذا بدانا نبني مدناً، ونُغَيرُ من عاداتنا القديمة، ساء طالعنا، وهوى نجمنا [٢٠].

ولكن وعلى كل حال لا يمكننا إلا أن نؤكد بأنه ما كان يتيسر لجنكيزخان فتح تلك المناطق الفسيحة، وتكوين هذا الملك العريض، إلا إذا كان مزوداً بكثير من التعقل والتبصر والكفاءة الممتازة، وانه لابد وأن يكون على جانب كبير من الدهاء والسياسة. ولا يمكننا ان نُسلم بأنه كان فقط ميالاً إلى الغزو والفتح وإراقة الدماء، بل كان كذلك لديه هدف معين يَبغي الوصول إليه، ويَرى أن تحقيقه لا يجب أن يحول دونه حائلٌ. مهما أُريق من دماء، وأُزهق من أنفس،

وخُرب من مدن، فكل ذلك لا يُعد شيئاً ما دام هو الطريق الذي سوف يُبلغه مُراده [٢١].

وكل ما كان يَسعى إليه جنكيزخان أول الأمر، هو إعادة فتح الطريق التجاري القديم بين إيران والصين. وعلى هذا لم يَدَّخر وسعا في القضاء على الدول والقبائل التي كانت تعترض هذا الطريق، ولا تُؤمِّن قوافل التجار. وعندما جاور ممالك السلطان محمد خوارزم شاه، حَرص على أن تكون علاقته بالسلطان محمد قائمة على المودة وتبادل المنافع. ولكن سياسة السلطان لم تتوافق معه، إذا افترضنا أن أعمال مثل قتل التجار المغول هو السبب الوحيد لغزوهم لبلاد خوارزم شاه، وهذا بالتأكيد مغالطة لا يمكننا الوقوع فيها، واعتبارها هي السبب في تحريك جنكيز خان، إذ جعلته يسارع إلى مهاجمة الممالك الإسلامية بدافع الانتقام قبل أي شيء آخر، وإلا فما سبب تدميره ومن بعده ورثته للعالم الإسلامي وآسيا الصغرى وكثير من أوروبا [٢٢].

إن جنكيزخان في نطاق نوع حياته ووسطه وجنسه، ليبدو أيضا رجلاً حكيماً مُدبراً، ذا عزم ومضاء، يجابه الأحداث بشجاعة ورباطة جأش، كان حريص على كرامة قواده وجنوده، ويُحب أن يراهم يثقون بأنفسهم دائماً. عندما أوقع السلطان جلال الدين منكبرتي الهزيمة بجنود القائد المغولي: قوتو نويان، وجاء أمام هذا أمام جنكيزخان كاسف البال متخاذلاً، لم يُخرج هذا الخبر جنكيز خان عن هدوئه وثباته، واكتفى بأن قال له:

إن قوتو نويان تعود أن يخرج من كل معركة ظافراً منتصراً، ولم يذق طعم الهزيمة قط. وإنه لا شك سوف يأخذ حذره ويحتاط أكثر من ذي قبل بعد هذه الهزيمة [٢٣].

ونستطيع أن نستخلص من أفعال جنكيزخان ما كان له من صفات وطِباع رفعت قدره وأعلت شأنه. فما يُبهرنا فعلاً، ما كان له من شخصية بلغت من القوة قدراً كبيراً، بحيث أنها فرضت نفسها على كل من تلتقيه، وكان لعبقريته في القيادة، وإحساسه بالعدالة، وإخلاصه لأصدقائه الأثر الكبير في

إسراع القبائل إليه والتفافهم حوله، وانضوائهم تحت رايته. ولقد أضحت محبته لأصدقائه الأوائل مَضرب الأمثال، ولا غرو، فإن من طِباع سكان الخيام، المحبة الشديدة للأصدقاء التي لا يُضارعها إلا الكراهية البالغة للخصوم [٢٤].

وكان جنكيزخان أيضا متزناً إلى درجة ملحوظة، يَعرف كيف يستمع، سخي كريم عطوف رغم قسوته. فيه صِفات الإداري الحازم المنظم، ولكنه يُجيد فقط إدارة الشعوب البدوية، وليست الشعوب الحضرية التي أخطأ في فهم حياتها واقتصادها. لقد كان يرغب في أن يكون حاكماً صالحاً. فإلى جوار أحاسيسه البربرية الفظيعة، تجد جوانب أخرى لا شك في رفعتاً ونبلها، يرتفع بها هذا الرجل إلى مكانة في الإنسانية وهنا تتجلى عبقرية جنكيزخان في حبه للنظام [٢٥].

أضاً كان يفزع من الخونة ويُلقنهم دائماً دُرُساً قاسياً، فكثير ما أعدم المُرائين، الذين أرادوا أن يُظهروا له حبهم وإخلاصهم عن طريق خيانة ساداتهم وأولياء نعمتهم، والتنكر لأوطانهم. وعلى العكس من ذلك كان كثيراً ما يحترم خصومه ويُقدرهم، ويثيبهم بعد النصر، فيُلْحق بخدمته أولئك المتازين الذين ثبت إخلاصهم ووفائهم لساداتهم الأصليين [٢٦].

وهذا ما يُثبته التاريخ دائماً، أن الأقوياء لا يَحترمون الضعفاء والخائنين، ولعل هذا يكون درساً عملياً قد مارسناه في مصر وتونس واليمن وليبيا وسوريا، لقد باع الخائنون بلادهم لأعدائها، ولأصحاب المصالح فيها، بدراهم معدودة، وقهروا شعوبهم لصالح هؤلاء جميعاً، فلما هبت الشعوب في وجه الطغاة، كان أول من نفض يده من هؤلاء الخائنين هم من كانوا أشد الناس انتفاعاً من خيانتهم، إنه التاريخ لا يَرحم أحداً!

وإذا كان جنكيزخان قد سحق كل مشيئة تُخالف إرادته، وأخضع جيشه لنظامٍ دقيق، فيه ما فيه من الصرامة والشدة، فإن ذلك أدى إلى منع الصفات الذميمة كالكذب والسَّرقة، بحيث أن الجندي المغولي، كان يَعترف بذنبه إذا ما ارتكب خطأ، حتى لو كان يَعرف أن في ذلك إزهاقا لروحه [٢٧].

كذلك أخذ جنكيزخان على عاتقه حماية الضعفاء، واستمرت هذه الحماية حتى النهاية. وقد أثبت جنكيزخان إخلاصه لهذا الفريق في شتى المناسبات، فحينما قُتل رئيس التانجوت لأنه وقف على جانب جنكيزخان ضد النايمان، مد يد العون إلى أُسرته، وثبَّت ابنه على العرش. وزوَّجه من ابنته، وضمن الثروة والحياة المستقرة لهذه الأسرة. كما أن المنهزمين في الحروب السابقة: الأويغور والخطا، لم يصادفا حامياً صادقاً لهم إلا في جنكيزخان. مثلما كان أحفاده حُماة أوفياء للمسيحيين من الأرمن والسريان [٢٨].

وكان من أتباعه في مستهل حياته الأمير الخطائي، " يليو ليوكو ". الذي لقي مصرعه في الحرب أثناء قتال الخوارزميين. فأخذت أرملته تسعى للقاء جنكيزخان، حتى تم لها ما أرادت، بعد أن فرغ من حملته في إقليم " كانسو "، فأحسن استقبالها، وبذل رعايته الأبوية لابنيها. وهكذا في ظروف أخرى مشابه نلحظ في هذا البدوي الذي يلبس جلود الحيوانات، والذي حاول أن يُفني شعوبا بأسرها. مجاملة بالغة تفوق حد الوصف [٢٩].

ولما كان جنكيزخان لا يؤمن بأي دين أو دولة. فإنه كان يتجنب التعصب ورجحان أمة على أمة، أو دين على دين. ولكنه كان يُكرم العلماء والزهاد من كل طائفة، ويعفيهم من الضرائب [٣٠].

وعلى هذا لم يكن هذا السياسي الجبار أصماً بالنسبة لتجارب المتحضرين. لقد كان يَستفيد كثيراً من أرباب الخبرة والمرشدين وذوي الإطلاع فيما يتعلق بالشئون الإدارية، والمخابرات التي تُساعده على القيام بأعماله الحربية. فكان له مستشارون احتضنهم وقبِلهم في خاصته. ومن المعروف أن تنظيم الإدارة المدنية عند جنكيزخان في مستهل حكمه، كان أمرا بالغ الصعوبة [٣١].

فهم في ذلك الوقت لم يكونوا قد بلغوا من المستوى الحضاري ما بلغته القبائل التي خضعت لهم كالكرايت والنايمان. ولذا صارت الحاجة ماسة إلى الإفادة من الشعوب الخاضعة والموالية لهم عقب توحد منغوليا. وكان التجار المسلمون في مقدمة الذين ظهروا في البلاط المغولي من ذوي الحضارات. وكان

هؤلاء يجيئون من البلاد البعيدة، وهم على علمٍ كافٍ، وخبرة تامة بأحوال البلاد الواقعة خارج منغوليا نتيجة لكثرة تنقلاتهم وأسفارهم. فلا غرو أن كانوا يؤدون لجنكيزخان أجلّ الخدمات. ومن هؤلاء جماعة كانوا يلازمونه، ويَذهبون من قِبَله كسفراء لدى السلاطين، أو للقيام بمهام أخرى. وهناك ثلاثة من المسلمين كانوا من أشد الناس إخلاصا للعاهل المغولي، خصوصا في الأيام الحالكة التي صادفها في حياته المبكرة. وهؤلاء هم:جعفر خوجا، وحسن، ودانشمند الحاجب، وقد أفاد جنكيزخان من حسن ودانشمند في حملته على مملكة خوارزم شاه، بما قاما به من مفاوضات مع السكان الأصليين [٣٢].

كذلك ورد دانشمند الحاجب رسولاً من قبل جنكيزخان إلى تركان خاتون والدة السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه لِيُقنعها بالخضوع للمغول. ولما صمم جنكيزخان على مهاجمة ممالك الخطا في الصين الشمالية، ذهب برسالته أحد الرسل المسلمين اسمه: جعفر، قاصداً ملكهم: التون خان. فما كان من هذا الملك إلا أن أُلقى القبض عليه، وزج به في السجن. غير أن جعفر تمكن من الهرب وعاد إلى جنكيزخان مخترقاً طريقاً سرياً، وسرد على مسامع الخان أحوال الخطا، وما عليه ملكهم. فما كان من جنكيزخان إلا أن انقض على ملك الخطا " التون خان " سالكاً نفس الطريق الذي سلكه جعفر. وبذلك استطاع أن يُزيل عرش الخطا، ويستولي على بلادهم [٣٣].

وكان جنكيزخان يميل إلى الإصغاء إلى أقوال الحكماء، والاستفادة بتجاربهم، فهذا حكيم من الصين حذر الخان ذات يوم قائلا: لقد غزوت إمبراطورية وأنت على صهوة جوادك، ولكنك لن تستطيع أن تحكمها وأنت على صهوة هذا الجواد. وقد صدق هذا الحكيم، لأن الحكم قوامه فكر وبصيرة وروية وسياسة وبناء، وهذه كلها لا تجيء خطفا كما قد يجيء الغزو خطفا. ثم حدث لهذا العاهل المغولي مرة أخرى في حياته: وبعد أن كان له الملك كله على الصين وما يسمى اليوم بروسيا وبلاد الأفغان وفارس، وما هو أبعد من هذا كله،

أن سمع بحكيم صيني، فأرسل إليه يدعوه للشورى، وجاءه الحكيم واثقا من قوة روحه، وإن لم تكن في يده قوة السلاح، حتى مثل أمام جنكيز خان، فاستنصحه الخان: ماذا يفعل، وقد غزا ما غزا، وحكم ما حكم ؟!... فقال الحكيم: النصح عندي أن تعيش في سلام، وأن تكف عن إزهاق أرواح الناس [٣٤].

دستور الدولة المغولية: (الياسا)

اقتضت حياة المغول رغم بدائيتها وبساطتها أن تكون لهم قبل جنكيز خان مجموعة من الآداب والتقاليد، ولكنها لم تكن مدونة، لأنهم كانوا يَجهلون الكتابة، فلما جاء جنكيز خان، أعاد النظر في هذه العادات، ورد بعضها وقبل معظمها وأضاف إليها بعض الأحكام والقواعد وجَعل لها صبغة رسمية، وأَمر بأن يتعلم الأطفال المغول الخط الأويغوري، كما أَمر بأن تُدوَّن تلك النُّظم والأحكام بهذا الخط، وأن يُحتفظ بها في خزائن أمراء المغول [١].

وقد أطلق على كل حكم من هذه الأحكام والقواعد اسم (ياسا)، وهي كلمة مغولية تأتي بمعنى حكم وقاعدة وقانون، وتُكتب بصورة مختلفة في الكُتب العربية والفارسية فنجد ياسا وياسه ويساق وياساق ويسق، وتُطلق على الحُكم الذي أصدره الملك أو الأمير، ولما كان كتاب الياسا يَشتمل على جزء كبير من الأحكام التي تتعلق بالجزاء والعقاب، وغالباً ما يكون ذلك بإعدام الشخص المذنب، صار أحد معاني هذه الكلمة (ياسا) القتل والموت، وأما مجموع هذه الأحكام المكتوبة التي أقرها جنكيز خان فإنه يُطلق عليها (كتاب الياسا الكبير)، وكان جنكيز خان يَعتقد بأن تعاليم الياسا صالحة لكل زمان ومكان، وفَرَضها على الجميع بدون استثناء، بما هو نفسه وأفراد سلالته [٢].

يقول الراهب المؤرخ للإنوكاريبيني، في هذه الصدد، أنه جَرى تطبيق الياسا بصرامة، وأن هذا التطبيق جَعل من المغول أكثر شعوب العالم طاعة لرؤسائهم، إلى حد يَفوق طاعة الرهبان لأمراء الكنيسة، وكانت الياسا أول خطوة اتخذها جنكيز خان لإضعاف النزعات والميول الإقطاعية الضارة بالوحدة [٣].

ولقد رأى الخان الأعظم للمغول جنكيز خان، أنه لا يمكن جمع كلمة هؤلاء القَبَلِيينَ المتعطشين للدماء إلا بتشريع قانون يلتُفون حوله، وينزلون جميعاً على حُكمه، ولابد أن تكون مواد هذا القانون مُشتملة على عقوبات فيها جد وصرامة، تُوَقع على المذنبين في غير ما شفقة ولا رحمة. لأن هؤلاء الأتباع إن تُرِكوا وشأنهم يَحيون حياتهم القديمة. فإنهم يعودون إلى ما كانوا عليه من الفوضى، وقَتل بعضهم البعض، والتطاحن من أجل الأسلاب والمراعي. ولكن. إذا كانت الياسا قد فضت النزاع والخصام بين المغول. الذين كانوا يعيشوا من قبل كقطعان الذئاب التي لا ضابط لها ولا رابط، فإنها من جهة أخرى قد حوًلتها إلى جيوش منظمة، تَعرف كيف تَرسم خططها بدقة وإحكام، وتُغير على الأمم المتحضرة كأنها الإعصار المدمر، أو كأسراب الجراد التي تنزل على الحقول المورِقة، فتلتهمها التهاماً وتأتي على كل ما فيها [٤].

وقد تعود المغول أن يَرجعوا إلى نصوص الياسا يستشيرونها، ويَعملون وفق ما تُشير به وذلك في الأحوال الآتية:

١ . عندما يَجلس خان جديد على عرش المغول.

٢ . عند عقد مؤتمر عام، يحضره الأمراء لمناقشة السياسة العامة للدولة.

٣ . في حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال [٥].

ولقد أصدر جنكيزخان مجموعة القوانين المعروفة بالياسا، سنة – (٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م)، فنَسخت كل ما سبق من قوانين العرف في الإستيس، لكي يربط أقاليمه معاً، في ظل حكم موحد، وهذه الياسا التي صدرت مجزاة طول حكم جنكيز خان، حددت ما لرؤساء العشائر من حقوق وامتيازات وما هو مقرر للخان من شروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات، وقواعد نظام الضرائب فضلاً عن مبادئ القانون الجنائي والمدني والتجاري، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول: إن هذا القانون قد نظم علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، كما حدد علاقة الفرد بالمجتمع وتتلخص أحكام الياسا في أمور ثلاثة هي:

١- الخضوع لجنكيز خان.

٢- والاتحاد في قبيلة واحدة، أي اندماج خمسون قبيلة من قبائل المغول في مشروع واحد.

٣- والعقاب الصارم لكل مخطئ [٦].

ما قاله المؤرخون عن الياسا:

يقول المقريزي - (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ = ١٣٦٥ - ١٤٤١ م):

إن جنكيز خان القائم بدولة التتار في بلاد الشرق لما غلب الملك أونك خان، وصارت له الدولة قرر قواعد وعقوبات اثبتها في كتاب سماه ياسه، ومن الناس من يسميه يسق، والأصل في اسمه ياسه، ولما تم وضعه، كتب ذلك نقشاً في صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه، فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم، وكان جنكيز خان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض، كما تعرف هذا إذا كنت اشرفت على أخباره، فصار الياسا حكماً باتاً بقي في أعقابه لا يخرج عن شيء من حكمه [٧].

وأخبرني العبد الصالح الداعي إلى الله تعالى، ابو هاشم أحمد بن البرهان، رحمه الله: أنه راى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد، ومن جُملة ما شرعه جنكزخان في الياسه أن:

من زنى قُتِلَ، ولم يُفرق بين الُمحْصن وغير الُمحصن.

ومن لاط قُتِلَ.

ومن تَعمَّد الكذب او سحر او تَجسس على أحد، أو دَخل بين اثنين وهما يتخاصمان، أوأعان أحدهما على الآخر قُتِل.

ومن بال في الماء، أو على الرماد قُتِل.

ومن اعطي بضاعة فخسر فيها فإنه يُقتل بعد الثالثة.

ومن أَطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قُتِل.

ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يَردّه على من كان في يده قُتِل.

وأنْ الحيوان تُكتَّف قوائمه، ويُشقُّ بطنه ويُمرس قلبه إلى أن يموت ثم يُؤكل لحمه.

وأنَّ من ذَبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذُبح.

ومن وقَع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يَكرّ أو يفرّ في حالة القتال، وكان وراءه أحد، فإنه يَنزل ويُناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم يَنزل ولم يناوله قُتِل.

وشَرط أن لا يكون على أحد من ولد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مؤنة ولا كلفة.

وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومُغسلي الأموات كُلفة ولا مؤنة.

وشرط تَعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى، وجُعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى.

وألزم قومه أن لا يَأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أوّلاً، ولو أنه أمير، ومن يناوله أسير.

وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه، بل يُشْركه معه ي أكله.

وألزمهم أن لا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه.

ولا يتخطى أحد ناراً ولا مائدة ولا الطبق الذي يؤكل عليه.

وأنّ من مرّ بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم. وليس لأحد منعه.

وألزمهم أن يُدخِلَ أحد منهم يده في الماء، ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به.

ومَنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى.

ومنع أن يُقال لشيء أنه نجس، وقال: جميع الأشياء طاهرة، ولم يُفرق بين

طاهر ونجس.

وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب.

ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب، وإنما يُخاطب السلطان ومن دونه ويُدعى باسمه فقط.

وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أرادوا الخروج، زمن قد قصر في شيء مما يحتاج إليه، وتبينه عند عرضه أياه عاقبه.

وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرطال من السخرِ والكلف في مدّة غيبتهم في القتال.

وجَعل على العساكر إذا قدمت من القتال كُلفة، يقومون بها للسلطان ويؤدونها إليه.

وألزمهم عند رأس كلّ سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان، ليختار منهنّ لنفسه وأولاده.

ورتَّب لعساكره أمراء، وجَعلهم أمراء ألوف وأُمراء مئين وأُمراء عشراوات.

وشَرَّع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبَعث إليه الملك أخس من عنده حتى يُعاقبه، فإنه يُلقي نفسه إلى الأرض بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع، حتى يُمضي فيه ما أمر به الملك من العقوبة، ولو كانت بذهاب نفسه.

وألزمهم أن لا يتردد الأمراء لغير الملك، فمن تردد منهم لغير الملك قُتل.

ومن تَغيب عن موضعه الذي يُرسم له بغير إذن قُتِل.

وألزم السلطان بقامة البريد حتى يَعرف أخبار مملكته بسرعة.

وجَعل حكم الياسه لولده جقتاي بن جنكز خان، فلما مات التزم من بعده من أولاده وأتباعهم حكم الياسه، كالتزام أوّل المسلمين حكم القرآن، وجعلوا ذلك ديناً لم يعرف عن أحد منهم خالفته بوجه [٨].

ويقول علاء الدين الجويني(ت: ٦٨١هـ): يعد المؤرخ الفارسي علاء الدين عطا ملك الجويني المتوفي بعد المقريزي بما يزيد عن قرن ونصف، من أهم من كتب

عن تاريخ المغول، وقد تضمنت كتابته عن الياسه بعض التفاصيل أكثر، إلا أن عبارة المقريزي تُعتبر في الحقيقة خلاصة وافية لما جاء عند الجويني، على أن الجويني قد زاد في حديث عن ناحية لها أكبر الأثر في حياة المغول العسكرية، هي مباريات الصيد [٩].

التي كانوا يعنون بها عناية كبيرة كلما فرغوا من القتال، إذ لم تكن هي رياضتهم المحببة إلى نفوسهم فقط. بل كانت من تدريبات القتال، ووسيلة لإعداد أنفسهم إذا ما جد الجد ودُعوا لحمل السلاح وخوض غمار المعارك. فهم في حلبات الصيد يُدَرِّبون أنفسهم على ما سَيَفعلونه في وقت الحرب، ويقفون صفوفاً منتظمة كما يَقفون في ميادين القتال تماماً، ويأخذون منهم الآلات والأسلحة اللازمة للتدريب على استعمالها، وهم بالإضافة إلى هذا مُكلفون بتسمع أخبار الأعداء والتجسس عليهم. يقول بارتولد: ومن الوسائل القيمة التي تُعمل على حفظ النظام وتدريب الجند واختبارهم، حَمَلات الصيد التي كانت تُعد على نطاق واسع، وفيها تُراعى جميع الأوامر الخاصة بالنظام الحربي، بنفس الدقة التي تُراعى بها إبان الحرب [١٠].

وكان يُشرف على ميادين الصيد كبار الأمراء الذين يَصطحبون معهم الخوانين والسراري، ويتزودون بمختلف المأكولات والمشروبات. وتمتد هذه المباريات من شهر إلى ثلاثة أشهر، وعلى الجنود المشتركين فيها أن يُباشروا الصيد في تأنٍ وحذر، وأن يَنظروا إلى الحيوانات كما يَنظرون إلى أعدائهم. فلو فرض وأن جندياً قد أخطأ في إصابة الهدف، فإنه يُعاقب على ذلك بالضرب بالعصا، وكثيراً ما يكون العقاب بالقتل، بل إنهم كانوا لا يترددون عن توقيع الجزاء على أي شخص، يُنسب إليه الإهمال والخطأ مهما كان هذا الخطأ بسيطاً تافهاً، بعد ذلك تَفد الرسل إلى الخان، وهي تَحمل إليه تقارير مفصلة عن كل ما دار في هذه المباريات، التي تشبه إلى حد كبير مناورات الجيوش في العصور الحديثة، بل هي كذلك بالفعل، وهذا يُعد من السبق العسكري للمغول، من ناحية التدريب، للإبقاء على تدريب الجند. ومن حملات الصيد هذه

ايضاً، يَحصل المغول على اللحوم اللازمة لمد الجيش والبلاد، وكانوا إذا ما قتلوا عدداً كبيراً من حيوانات الصيد، أكلوا أكبر قدر من لحمها يمكنهم أكله، وذلك حتى يُبعدوا عنهم شبح الجوع في الأيام العجاف التي تنتظرهم [١١].

ويُعتبر الصيد بالنسبة للمغول جزء لا يتجزأ من حياتهم، يَحرصون على ممارسته منذ الصغر، ويُروى أن جنكيز خان سقط ذات يوم من فوق جواده، وأُصيب حين كان يصطاد خنزيراً برياً، وشاء حُسن حظه ألا يهاجمه الخنزير وهو مُلقى على الأرض، إذ كان قد انتحى جانباً فقال له الكاهن: كان ذلك نذيراً لك، لقد فعلت شراً برغبتك في قتل روح حيّ، ولولا رحمة السماء لنطحك الخنزير وقضى عليك. فرد جنكيز خان عليه قائلاً: لقد أدركت ذلك شخصياً، وأعلم أن نصيحتك تستهدف الخير، ولكنا نحن المغول قد اعتدنا منذ حداثتنا أعمال الصيد، وليس من السهل علينا أن نُغير عاداتنا. وقد كان للمغول نُظم وقواعد يلتزمونها أثناء الصيد، ويقومون بتنفيذها بكل دقة [١٢].

بُغض الخمر

نصَّ جنكيز خان في الياسا على أنه يمقت السرقة والفُحش مَقتاً خاصاً، وإن عقاب مرتكبيها هو الإعدام، وصرَّح بأنه يَغضب إذا علم بولدٍ لا يُطيع أبويه، أو بأخٍ صغير يُخالف أمر أخيه الأكبر، أو بافتقار الزوج إلى الاعتماد على زوجته، أو بمخالفة المرأة لزوجها، أو بتمنع الغني عن إعانة الفقير أو بعدم احترام المرءوسين لرؤسائهم، وقد نَهى جنكيز خان أتباعه عن الإغراق في شرب الخمر، فقال: إن الرجل السكران كالرجل المضروب على أم رأسه، يَفقد عَقله وكَفاءته، فاشربوا ثلاث مرات في الشهر الواحد لا أكثر، والأفضل ألا تشربوا أبداً، ولكن من الذي يستطيع الإحجام عن الشُراب مطلقاً، [١٣].

تفاني الفرد في سبيل المجموع

إذا كان المغول ينادون بالتعاون، فإنما يقصدون التعاون الذي يَقوم على تفاني الفرد في سبيل المجموع، وعدم الاعتراف بأي حق للمرء في حريته الشخصية، فقد نصت الياسا على ألا ينفرد أحد بكل شيء وغيره يَراه، بل عليه أن يُشركه معه في أكله، ولا يَجوز أن يتمتع أحد بالشبع دون أصحابه، بل يُقسم الطعام بالتساوي، ومن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويؤاكلهم من غير إذنهم، وليس لأحد منعه، فمثل هذه النصوص الجائرة، التي تنسف الحقوق الشخصية تماماً، وإن كان فيها روح من الاشتراكية، ينكشف لنا عن روح هذا المجتمع التعاوني الشاذ، الذي يَحرم الإنسان نتيجة سعيه وكفاحه [١٤].

الإباحية

أيضاً دعت الياسا إلى الإباحية، إذا ألزمت التتار عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه ولأولاده، وفي هذا هدم لكيان الأسرة التي هي عماد الاستقرار [١٥].

أكل المُحرمات

كان الكثير من عادات المغول وطباعهم تدعو إلى الاشمئزاز، وتُثير في نفوس المسلمين النفور، والكراهية لمنافاتها لتعاليمهم، فكانوا على استعداد لأكل كل ما حرَّمه الإسلام، بل إنهم لا يتورعون عن أكل الحيوانات الدنسة، وكانوا يكرهون الاستحمام والاغتسال، وحَرَّموا غسل الأيدي والثياب في المياه الجارية، وهي أمور مع الشريعة الإسلامية التي تأمر بالنظافة، ولذلك كانوا يتركون الثياب حتى تُبلى، ومن خالف هذه التعليمات اعتُبر مجرماً خارجاً على القانون، وعقوبته الإعدام، كذلك اعتبروا ذبح الحيوان بقطع حلقه من الجرائم التي لا تُغتفر أيضاً، فحرَّموا على المسلمين ذبح حيواناتهم وفقاً للطريقة التي أجازها الشرع، واستعاضوا عن ذلك بطريقتهم الوحشية الخاصة التي تقوم على تعذيب الحيوان، دون أن تأخذهم به شفقة ولا رحمة، فكانوا يشقون بطن الحيوان، ثم يمدون أيديهم إلى جوفه، فإذا وصلوا إلى قلبه امسكوه ونزعوه من مكانه [١٦].

تأثر مسلمي المغول بالياسا

يقول القلقشندي: ثم الذي كان عليه جنكيز خان في التدين، وجرى عليه أعقابه بعده، الجري على منهاج ياسة التي قررها، وهي قوانين ضمنها من عقله وقررها من ذهنه، رتب فيها أحكاماً وحدد فيها حدوداً ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية، وأكثرها مخالف لذلك وسماها الياسة الكبرى، وقد اكتتبها وأمر أن تُجعل في خزائنه تورات عنه في أعقابه، وأن يتعلمها صغار أهل بيته، إلى غير ذلك من الأمور التي رتبها مما هم دائنون به الآن، وربما دان به من تحلى بحلية الإسلام من ملوكهم [١٧].

إن ما صرح به القلقشندي من أنه ربما دان بالياسا من تحلى بحلية الإسلام، لَيُطابق الحقائق التاريخية تمام المطابقة، فقد اعتنق الإسلام بركة خان، رئيس القبيلة الذهبية في القيجاق، ولم يكن الخان وحده هو المسلم بل كان نساؤه ورجال حاشيته مسلمين، وكان لكل أمير عنده، ولكل خانون مؤذن وإمام، وكانت مدارس تحفيظ القرآن كثيرة، وعلى الرغم من هذا، فإن هؤلاء المغول المسلمين، كانوا لا يزالون متمسكين بكثير من عادات التتر وتقاليدهم المتبعة في منغوليا مما تضمنته الياسا، فمن ذلك عادة تتعارض مع تقاليد الإسلام، وهي عدم استعمال مياه النهر لا للغسل ولا للاغتسال، وقد نُبه على السفراء الذين كان يُرسلهم السلطان الظاهر بيبرس إلى بلاط " بركة خان " لتوثيق الروابط بين الطرفين، بألا يَغسلوا ملابسهم في الاوردو، ولكنهم كانوا يغسلونها خفية، إذا ما اشتدت حاجتهم إلى ذلك.

وأما المغول الذين قَدموا إلى مصر وعاشوا فيها، فكانوا متأثرين بالمدنية الإسلامية قبل أي اعتبار آخر، ومع هذا كانوا لا يزالون في بعض شئونهم،

يتبعون نصوص الياسا [١٨].

وكانوا إنما رُبوا بدار الإسلام ولُقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية، فجمعوا بين الحق والباطل، وضموا الجيد إلى الرديئ. والواقع أن نصوص الياسا كانت مُحترمة جداً لدى المغول، لدرجة تبلغ التقديس، فكانت عندهم بمثابة القرآن عند المسلمين، بحيث أنه لا يجرؤ شخص حتى السلطان نفسه على مخالفة أحكامها، أما إذا خَرج عليها أي شخص آخر مهما كانت منزلته، فإنه يكون عُرضة للامتهان والعقاب [١٩].

تيمور لنك يتمسك بالياسا

لقد استمرت الياسا الجنكيزخانية مُحترمة، وموضع عناية الأقوام من المغول حتى بعد أن زالت دولة الأيلخانين في إيران، فقد سار عليها تيمورلنك وأتباعه، وكانوا يتبعون تعاليمها في إدارة دفة السياسة وشئون الحكم، وفي الولائم والحفلات. فقد كان تيمور معتقداً للقواعد الجنكز خانية، وكذلك كل الجغتاي وأهل الدست والخطا وتركستان، وأولئك الطغام كلهم يمشون على قواعد جنكيز خان، على قواعد الإسلام، لذلك أفتى كل من: الشيخ حافظ الدين البزازي - (٧٢٩ - ٨١٦ هـ/١٣٢٩ - ١٤١٣م)، والشيخ علاء الدين محمد بن محمد بن محمد البخاري - (٧٧٩ - ٨٤١ هـ = ١٣٧٧ - ١٤٣٨ م)، وغيرهما من العلماء الأعلام وأئمة الإسلام بكُفر تيمور، ويكُفر من يُقدم القواعد الجنكيز خانية، أو غيرها مما يخالف الشريعة الإسلام في أمور العقيدة، وقيل إن شاه رخ أبطل التوراة والقواعد الجنكيز خانية، وأمر أن تجري سياستهم على جداول الشريعة الإسلامية، ولكن لم يقم دليلاً يقطع بذلك، خاصة وأن قواعد جنكيز خان صارت عندهم كالملة الصريحة والاعتقادات الصحيحة [٢٠].

تسجيل أقوال ملوك المغول: لقد درج المغول على تسجيل أقوال ملوكهم وتعليقها بعد موتهم، إلا أنهم لم يكونوا أحراراً في كتابة كل ما قاله هؤلاء الملوك، فكانوا يُدونون فقط ما يُجيزه الخان، وهذا القسم من أحاديث المغول

كان يُقدره رعاياهم ويُنزلونه من أنفسهم منزلة التوقير والاحترام، وكانوا يُطلقون عليه كلمة (بيليك) بمعنى (حكمة). وقد جُمعت حكم جنكيز خان وصارت مرجعاً لجميع الطوائف المغولية، يستشهدون بها، يستشيرونها في مختلف شئون حياتهم، كما يستشيرون أحكام الياسا، ولعله هنا يتماس مع مرشد ومؤسس دولة الموحدين الإسلامية - (٥٤١ - ٦٦٨ هجرية، ١١٤٧ - ١٢٦٩م)، وهو مهدي الموحدين ابن تومرت - (٤٨٥- ٥٢٤ هجرية، ١٠٩٢- ١١٣٠م)، ولعلنا لا نبتعدُ كثيراً إذ قلنا إن جنكيزخان هو مهدي المغول، ولقد ألَّف كلاً من ابن تومرت وجنكيزخان لأتباعه كتاباً يَسترشدون به في حياتهم، فكان هذا الكتاب هو النِّبراس والشُّعلة التي اهتدى بها اتباعهما إلى حين، ومن هذه الحكم التي وردت على لسان جنكيز خان [٢١].

. لا يؤذ بعضكم بعضاً في أمور الدنيا، فإذا شعر بعضكم بألم من الآخر فليُسارع لإزالته حالاً، لتكونوا بمأمن من شرور الأعداء.

. إن من يدبر بيته أحسن تدبير، يتمكن من إدارة المملكة.

. من تمكن من إدارة عشرة أفراد وأحسن سوقهم، يتيسر له سوق جيش عظيم.

ـ من تمكن من نظافة بيته، يستطيع أن يحرس حكومته من السُّرَّاق وأهل الشقاء [٢٢].

تنظيم واجبات خدمة الخان

بعد أن نجح جنكيز خان في توحيد القبائل، بدأ في وضع نظام للبلاد، وقد حدد هذا النظام في مجموعة وظائف، يتولى أمر كل وظيفة شخص أو أكثر، وإذا كانت هذه الوظائف من الوظائف الهامة أو الحساسة تولى أمرها أحد أقارب الخان الأعظم، وكانت هذه الوظائف كما يلي:

١ . أربعة أشخاص لحمل السهام والأقواس.

٢ . ثلاثة أفراد يتولون الإشراف على الطعام والشرب.

٣ . فرد واحد يتولى إعداد المراعي للأغنام والماشية.

٤- ثلاثة للمحافظة على هذه المراعي.

٥. شخص واحد لإعداد العربات العسكرية ووسائل النقل والحمل.

٦.. فرد واحد للإشراف على الموظفين والخدم في قصر الخان.

٧ . أربعة أفراد يتولون الحراسة بالتناوب وحَمل السيوف.

٨ . اثنان يتوليان أمر المحافظة على الخيول.

٩ . أربعة أشخاص لتبليغ رسائل الخان.

١٠ . اثنان من النبلاء للمحافظة على النظام في اجتماعات المغول [1].

وكان لحرس الخان الأعظم شأن كبير في دولة المغول، فقد كان الجُندي الواحد منهم أعلى مرتبة من قائد الألف رجل في الجيش، ويتم اختيار هؤلاء بعناية، وكان يتولى أمر الحراسة منهم مجموعتان أحدهم للنهار وأُخرى لليل، وقد بَلغ حوالي عشرة آلاف ممن عرفوا بالقوة وشدة البأس، ومن هؤلاء يتم اختيار الف رجل يُسمى كل واحد منهم (بهادر)، أي الشجاع المبارز، وهؤلاء الألف

يقومون بخدمة الخان ويُلازمونه ولا يَخرجون للقتال، إلا مع الخان نفسه ولا يتلقون الأوامر إلا منه.

وكانت هناك طبقة الأمراء وهم معفون من الضرائب ولهم حق الاستيلاء على الغنائم أثناء الحروب، وكان هؤلاء الأمراء لا يستأذنون عند الدخول على الخان، وكان من عادة الخان إكرامهم وذلك بأن يُقدم لهم الشراب بنفسه، واعتبر كافة المغول جنوداً في الجيش وعليهم حمل السلاح إذ ما دعت الحاجة، ولذلك اعتُبر المغولي راعياً للأغنام والماشية في السلم جُندياً في أوقات الحرب، وكان على الجميع تدريب أنفسهم وإعداد الأسلحة اللازمة للقتال، وقد عُرف المغول جميعاً بالطاعة العمياء لقوّادهم، كما عُرفوا بالخيانة وعدم الوفاء بالعهود لأعدائهم، وأيضاً القسوة المفرطة ضد كل يحاربون، لا فرق بين الأطفال أو النساء أو الشيوخ، أو المريض. ولذلك اتسمت حروبهم بالقسوة والتدمير والتخريب [٢].

واستطاع جنكيز خان ان يكسب احترام جيشه، فقد كانوا يَعتبرونه رئيسهم الأعلى، يُقدسون اوامره، وينزلون على طاعته، كما رَفعوه إلى مرتبة التأليه، ولم يكن أحدهم يَستطيع مخالفة الخان الأعظم. ويعكس النظام العسكري الذي وضعه جنكيز خان، من حيث المهارة والكفاءة ودالهاء، وهذه الطاعة العمياء الدائمة لجنكيز خان، كان جيش العثمانيين المسمى بالانكشارية، حيث كانوا دائمي التمرد، ولهم مطالب خاصة دائماً [٣].

تنظيم الجيش المغولي:

نظَّم جنكيز خان جيشه على التدرج العسكري كالآتي:

١- التوكان (تومان): يتكون من عشرة آلاف شخص محارب، ويسمى قائدة (نُويان)، او (نوين).

٢- الكوكبة: وتتألف من خمسين شخصاً مُحارب، ويُسمّى آمره (يوزباشي).

٣- المقدّمة: تتألف من خمسين شخصاً مُحارب، ويُسمّى آمره (أو نباشي).

٤- الجماعة: تتألف من عشرة أشخاص محاربين، وتعتبر هذه أصغر وحدة مقاتلة، وقد يَجوز تجزئتها، فتُقاتل وتعيش وتموت سويّة [٤].

وكانت جميع وحدات الجيش المغولي مزوّدة بخيول من لون واحد، وبمعدّل خمسة خيول احتياطيّة لكلّ مُحارب، إذ إنّ الجواد كان السلاح الرئيسي في جيش المغول، فكانت جيوشهم تتألف من الخيالة فقط، عدا المدفعية والهندسية التي كانت أدواتها تُحمل على عجلات، ولا يُوجد مُشاة بينها، وكانت هذه الخيّالة مُقسّمة إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ السرايا الفدائيّة: مهمتها فتح المعركة، وذلك بالشروع بالقتال والاشتباك مع العدو.

٢ . سرايا الصاعقة: وهي الخيّالة الثقيلة، واجبها التغلغل في صفوف الأعداء واستثمار الفوز.

٣ ـ السّرايا الخفيفة: وهي من الخيّالة الخفيفة، واجبها المطاردة، وستر الجناحين في القتال.

وكان سلاح خيّالة الصّاعقة الثقيلة، السيف وقوسين للسّهام وسهاماً كافية، وفأساً ثقيلة.

أما تجهيزاتهم، فكانت الدروع الجلديّة لحمايتهم وحماية خيولهم، وخوذ فولاذية مظلّة فولاذية أيضاً لحماية الرأس والرّقبة، وحقيبة للسهام واقية ضد الرطوبة، يَحفظ فيها الجندي سهامه الاحتياطية مع مسَن لسنّ السّهام، وحَدّها، وأوتاراً احتياطية للأقواس، بالإضافة إلى ذلك كان المقاتل يَحمل حبلاً طويلاً ذا أنشوطة يستخدمه في جرّ أدوات الحصار، أو سحب العجلات الغاطسة في الأوحال، أو المنقلبة أو العاطلة عن السَّير. وكان المقاتل يَحمل أيضاً إناء لغلي الحليب وحقيبة يَضع فيها أرزاقه الاحتياطيّة، من اللحم المجفّف والخبز واللبن الخاثر، الذي يضعه في إنائه، ويَضع فوقه الماء، ويَغليه، ويَستعمله كالحليب، وقِربة صغيرة للماء.

أما سلاح السَّرايا الفدائية، والخيَّالة الخفيفة، فكان الرُّمح مع القوس، وكانت تَجهيزاتهم تُشبه الخيَّالة الثقيلة عدا الفأس الثقيلة والحبل ذي الأنشطة، إلا أن فِرقة الحرس تمتاز عن بقيَّة الخيَّالة بالترس الذي كان يَحمله الخيَّال ليتلافى به ضربات سُيوف الأعداء، وكان لكل فارس في الجيش أربعة أو خمسة خيول احتياطية، عدا الذي يَركبه، وكانوا يَعتمدون في جميع عمليَّاتهم الحربية على خطَّة حركتهم الرَّائعة، وتحركاتهم الخاطفة، وكان لجنكيز خان احتياطي عام، كما كان له محاربون للمحافظة على مصالح الإمبراطوريَّة في الخلف، ومُحاربون آخرون لإدارة المقاطعات المحتلة، كما كان لديه هيئة خاصة للاستخبارات، وانشأ رتلاً خامساً في الدول المجاورة، معتمداً في ذلك على الهدايا والوعود والزواج، وأخيراً شكَّل جيشاً بقيادة معونه: جيبي نويان، تحت تصرُّف الإمبراطور الصينّ (إمبراطور الكين) لمقاتلة سُلالة السُّنج. وهكذا، تمكن جنكيز خان من التَّعرف على إمبراطوريَّة الكين، وأساليبها، وخُططها وكشف سرِّ قلاعها، وحصونها، ونقاطها الحيويَّة، ومواردها الاقتصادية [٥].

وصايا جنكيز خان لجيشه

١. يُمنع اتِّصال قائد التُّومان"النُّيان" بآخر مثله، وليس له أمر على الآخرين.

٢ـ عدم التجاوز في أي إهمال فردي، كعدم قبول تقصير الفرد في تجهيزاته من الخيط والإبرة إلى ملابسه، وإلى كل ما يكون مسؤولاً عنه من تجهيزات، والمخالف يُعاقب بأشد العقوبة.

٣. المعاقبة بشدَّة لكل من الابن لأبيه وأخيه الأكبر، والزوجة لزوجها.

٤. مراعاة السّلسلة في تنفيذ وإصدار الأوامر، فالفرد لا يُراجع إلا آمره، وهكذا إلى أعلى الرتب، وهو ما يُسمى الآن بالتسلسل الوظيفي، وهو نوع من أنواع الكبت، ولا يمكن قبوله في الأنظمة الديمقراطية، إلا إن كان في الجيوش لاستحباب الطاعة فيها.

٥. المعاقبة الشديدة، لكل من يسرق أويَقطع الطريق، أو يقوم بجريمة.

٦. حُسن اختيار القادة، فلا يُكلف بالقيادة إلا من كان عاقلاً شجاعاً، وبقية الناس هم أفراد في الجيش، وأما الضُعفاء، والعجزة فيتخذهم رعاة، فيوزع الأعمال بهذه الصورة.

٧. على جميع القادة من أدنى مستوى إلى أعلى مستوى مواجهة جنكيز خان في السنة مرة، ليتلقوا منه الأوامر، ويَصغوا إلى نُصحه، وكانوا يرجون لمن فعل ذلك أن يصير قائداً لجيش عظيم [٦].

التسليح والتجهيز في الجيش المغولي

كان الجواد في الجيش المغولي يُعتبر السلاح الأساسي، ويُسلَّح المقاتل بسيف ورمح وقوسين، أحدهما للرَّمي أثناء رُكوب الخيل، والثاني للرَّمي بدقة، كما كان يُجهَّز الثلاث جُعب مُعبَّأة بسهام مختلفة، وبأدوات حَفر خفيفة وأرزاق احتياطية، وقُربة تُعلْق بذيل الجواد، لوضع أجهزته فيها، وتُساعده في اجتياز الأنهار والتُّرع والجداول المائية، وكان المقاتل يتدرَّع بدرع من الجلد [٧].

وأمَّا القادة فبالإضافة إلى الأسلحة، كانوا يُزودون بجلدٍ رقيق مُستدير، تحيط حافته عُري (فتحات أو خروم) يُربط فيها حبل، بحيث يُصبح جيباً مستديراً يُلقون فيه ملابسهم، وأسلحتهم وغيرها من الأمتعة، حتى يمتلئ تماماً، ويُقفل، ثم يَضعون وسط كل هذا أسرجتهم وأمتعتهم بالقارب ثم يُربط بالجواد، فيجره خلفه، ويزودون أحياناً بمجاديف تعينهم على العبور، ثم يَدفعون الخيل الباقية ليشبع ذلك الجواد، وأما المقاتلون الآخرون، فكان يَحمل كلُ منهم قِربة متينة الحياكة، يَضع فيها كُلَّ أمتعته، ثم تُعقد فوهتها، وتُربط بذيل جوادٍ لعبور النهر، كما تُستخدم هذه القِربة نفسها لخزْن الماء حين اجتياز الصَّحاري [٨].

أساليب القتال عند المغول

كانت الجيوش المغولي تتقدم بقيادة جنكيز خان على جبهة عريضة وبثلاثة أرتال: جناح أيمن، وجناح أيسر ووسط، وكان الجناحان الأيمن والأيسر يتقدمان

على مستوى واحد تقريباً، في حين كان وسط الجيش يتقدم متأخراً قليلاً عن الجناحين الأولين، بحيث يُسمح له بمساندة أي منهما، دون أن يُعرض نفسه للصدمة المعادية، كما يُسمح في الوقت نفسه للجناحين الآخرين بتطويق مؤخرة العدو، إذا تعرض الوسط للمهاجمة، ولقد اعتمد جنكيز خان في بناء جيشه على مبدأ الشعب المسلح كما سبقت الإشارة، حيث كان يعتبر الشعب كله ضمن القوات القابلة لحمل السلاح، ما عدا العجزة والأطفال والنساء، كما كان يعتمد خطط الحرب الخاطفة، وكانت المسافة الأرتال الثلاثة لا تتعدى مسيرة يوم واحد، وكان جنكيز خان يتقدم بجيشه ليلاً ونهاراً؛ فقد تمكن جيشه من قطع مسافة ١١٣٠كم في خمسة عشر يوماً؛ أثناء حملته على؛ مدينة بولونيا في شمالي إيطاليا، ومسافة ٤٥٠كم في مدة ثلاث أيام أثناء حملته على هنغاريا، أي المجر الحالية، وقبل وصوله إلى هدفه بأيام قليلة كان تقدمه ليلاً فقط، وفي منتهى الكتمان، ثم يَعقب ذلك التسلل هجوم عنيف ومفاجئ فجراً.

وكان جنكيز خان يَستخدم إشارات الميدان أثناء القتال، فيستعمل الأعلام نهاراً والمصابيح وإشعال النِّيران ليلاً؛ ولقد استخدم في حروبه جميع خطط المخادعة والمباغتة، وكان يَعقد المعاهدات مع خصومه لشلهم، وإيقاع الشقاق في المملكة التي يُريد دمارها قبل إعلان الحرب عليها، وكان يُرسل عناصر من استخباراته لشن حرب نفسية على أعدائه قبل أية معركة، كما كان يستخدم حرب الصاعقة لقهر جيوش أعدائه، ولقد امتاز جنكيز خان بالزعامة والقيادة، وتمكن من تأليف أقوى جيش، وتأسيس أقوى إمبراطورية عرفها تاريخ القرون الوسطى، بغض النظر عن كونه سفاحاً ووثنياً وغير ذلك من الصفات التي تتعارض مع الدين والخُلق القويم [٩].

الاتصالات في الجيش المغولي

اهتم جنكيز خان كثيراً بتحقيق الاتصالات داخل الجيش المغولي، كالآتي:

١. الاتصالات بين التشكيلات، وكانت تقام بأسلوبين:

الأول: بواسطة المخابرة البصرية، وتتم نهاراً لإعطاء الإشارة بالعَلَم الذي يحمله حامل العلم المُرافق لقائد التومان، وليلاً بواسطة فانوس أحمر. وكانت إشارة واحدة من العلم أو الفانوس كافية لتحريك السراية الحركة المطلوبة.

الثاني: الاتصالات بين مقر الجيش في الجبهة ومجلس الحرب الأعلى في العاصمة (قرة قورم)، وتتم بواسطة آمر خط المواصلات، كالآتي: كان الطريق بين الجبهة والعاصمة يُقسم إلى قواطع، يكون مركز كل منها في أكبر مدينة في ذاك قاطع، وكان (الداروجا) أو آمر خط المواصلات آمراً لمركز الاتصالات، أو كما يُسميه المغول (يام)، يوجد في هذا المركز آمر مركز الاتصالات، وكاتب لتسجيل وقت مرور السُّعاة ومغادرتهم المركز، والأشخاص الذين مروا بهم في ذهابهم إلى الجبهة أو إيابهم إليها، وعدد من الأشخاص لحراسة المركز، وعدد كبير من الخيول السريعة التي كان كثير منها مُسرجاً متهيئ للحركة، وكانت واجبات الرجال المخصصين بواجبات المراسلة من أولئك الذين يستطيعون قطع (٨٠ ـ ١٠٠كم) في اليوم الواحد، وكان قد تم تخصيص (٣٠٠ ألف) جواد لإدامة هذه الاتصالات [١٠].

٢ ـ القيادة: كان جنكيز خان يُعين قادته من بين حَرسه الخاص، وبهذا الأسلوب، جَعل قيادة القوات العسكرية في جميع أنحاء الإمبراطورية الشاسعة، بأيدي رجال يَعرفهم معرفة شخصية مُباشرة، وقد جرَّبهم بنفسه، فكان ما قام به أولئك القادة من أعمال مجيدة بالنسبة للمغول، خير دليل على حُسن اختياره لهم، وكان يقول: إن من يُدبر بيته أحسن تدبير يتمكن من إدارة المملكة. وقال أيضاً: من تمكن من إدارة عشرة أفراد، وأَحسن سوقهم، تيسر له قيادة جيش عظيم. ولم يكن قادة المغول أكثر من منفذين ماهرين بإرادة إمبراطورهم [١١].

وكان جنكيزخان يقتطع الوحدات من جيشه ويُجحفلها من جديد طبقاً لمتطلبات الأحوال والظروف، وكان يتخذ إجراءاته سريعاً، ويتحاشى نتائج الفشل الذي قد تتعرض له قواته في بعض الأحيان، ولقد أَعطي لقب (النوين الأكبر) لأصغر أبناء جنكيز خان (تولوي)، والذي كان اليد اليُمنى لأبيه في

الشئون العسكرية، كما حَمل لقب (نوين) إخوة جنكيز خان الأصغران وهما: (تموغا) و(بلغوطاي)، ولم يتمتع أحد من صُلب إخوة جنكيز خان بحقوق الإمارة، إلا سلالة (جوجي قسر)، بينما دخل الباقون طبقة الأرستقراطية . النبلاء، وحَمل أعضاء الأرستقراطية العسكرية لقب: (طرخان).

ويتمتع حامل لقب طرخان بالامتيازات الآتية: الإعفاء من الضرائب، كما استقر حقهم في الغنائم التي تقع في أيديهم في الحرب والصيد، واستطاعوا دخول البلاط في اي وقت يشاءون، دون إذن خاص، كما أنهم غير مسئولين عن جريمة يرتكبونها، إلا عند الجريمة التاسعة، وهي الجرائم التي عقوبتها الإعدام، أيضاً يأخذون موضع الشرف في المآدب، ويُقدم لكل منهم كأس من النبيذ، وكان في عهد جنكيز خان ثلاثة من قادة التومانات أحدهم: (موقالي)، وكان يقود الميسرة، أو الجبهة الشرقية، والثاني: (بوكورجي) قائد الميمنة أو الجبهة الغربية، والثالث: (أنايا) يقود قوة الوسط [١٢].

أساليب المغول مع المغلوبين

وكان الأمراء . النويد . أعلى طبقة أرستقراطية في البلاد، أما الكتل الشعبية، فإنها لم تكن سوى أداة في أيدي مساعدي جنكيز خان قبل أن يقوم المغول بغزو إقليم من الأقاليم، حيث تُطرح الخطة الحربية، المقترحة على بساط البحث في جلسة "القوريلتاي" فإذا استقر الرأي على الغزو، أطلق المغول جواسيسهم في بلاد العدو، يجمعون الأخبار من هنا وهناك، ويَستقصون حالة جيش العدو، ويختبرون حصون المدن، ثم يعودون بهذه المعلومات فيُطلعون قادة الجيش عليها، بعد ذلك يُرسل الخان رُسلاً من قبله إلى حكام الأقاليم وسكان المدن، يَدعونهم إلى التسليم والنزول على طاعته، وكانت للمغول أعمل إرهابية في البلاد التي يستولون عليه، تُلقي الفزع في نفوس سكان البلاد، وكانت قلوبهم تنخلع رعباً وفزعاً حينما عندما يُوجه إليهم المغول إنذارهم المعتاد:.. ولسنا نعلم ماذا تَفعل بكم الأقدار إذا لم تُسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام، والله وحده هو الذي يَعلم ما هو نازل بكم [١٣].

فإذا رَفضوا التسليم وأصروا على المقاومة، تقدم المغول لمحاربتهم، حتى إذا ما شارفوا أبواب المدينة، دعوا الناس للمرة الأخيرة إلى الدخول في طاعتهم، فإذا خَرج عظمائهم وذوو الرأي فيهم، وحَملوا إليهم الهدايا والتحف، وقبلوا تزويد الجيش المغولي بما يحتاج إليه من مؤن، فإن المغول لا يتعرضون لهم بالأذى، ويكتفون بأن يُرسلوا إلى المدينة حاكماً من قبلهم، ويُصدر الخان مرسوماً بذلك حتى يكون لهذا الحاكم الاحترام والمهابة في النفوس، وكان التسليم في هذه الحالة معناه التبعية المطلقة، وتسليم عُشر خيرات الإقليم أو المدينة [١٤].

أما إذا اتبع السكان العصيان، وسَلكوا سبيل المقاومة، فنتج عن مقاومتهم خسارة المغول خسارة قليلة أو كثيرة أمام المدينة المحاصرة، فإنهم لا يَعقدون مع أهلها صلحاً في حالة عجزهم على مواصلة القتال واضطرارهم إلى التسليم، بل يُصدر الخان أوامره بقتل جميع السكان، لا فرق عنده بين صغير وكبير، ولا بين رجل وامرأة، كذلك يأمر قواته بتخريب المدينة وإباحة القتل العام، والطريقة المتبعة في ذلك، أن يدعو المغول الأهالي بالخروج إلى ظاهر المدينة، ولا يُبقوا إلا على الصُنّاع وأرباب الحرف، الذين يُرسلونهم إلى تركستان ومنغوليا، ويختارون من بين الأسرى من يَصلح للقتال، فيكونون منهم قوات غير نظامية، يُطلقون عليهم اسم: حشر، ثم يُعملون سيوفهم في الباقين، أما إذا أصرَّ أهالي المدينة على المقاومة، رغم الحصار، فإن المغول يهاجمونها ويستولون عليها عنوة، أما إذا التقى المغول بجنود أعدائهم في أرض سهلة، فإنهم يهاجمونهم ليلاً ونهاراً حتى ينهكوا قواهم، وتكون النتيجة إما أن يستسلموا لهم، وأما يلوذن بالفرار، وبعد المعركة يُعطي الخان كل محارب من جنوده نصيباً عادلاً من الغنائم والأسلاب، كما يترجل عن حصانه ليعطيه من هو في حاجة إليه [١٥]. وكانت طريقة القتال التي سلكها المغول وجميع البلاد المتحضرة: كالصين وغرب آسيا، ثم في روسيا فيما بعد واحدة على الدوام، فقد كانوا في كل مكان يسوقون سكان القرى العُزَّل أفواجاً لشد أزرهم في حصارهم للمدن الحصينة، واعتاد المغول عند اقتحام الحصون أن يَجعلوا هؤلاء السكان التعساء كدروع بشرية، في المقدمة لكي يتلقوا

هـم السـهام المنهالـة علـيهم، وليمهـدوا الطريـق للجـيش الـذي يتـبعهم، وكانـت الأعلام في بعض الأحيان توزع عليهم لإيهام العدو بأن الجيش وافر العدد، ويُقال إن عـدد المغـول عنـد حصار خنجـد كـان عشـرين الـف فقـط، بينمـا كـان عـدد الأسرى الذين أُجبروا على مصاحبة الجيش خمسين ألف نسمة [١٦].

كذلك كان هـؤلاء الأسـرى يكلفـون بحفـر الخنـادق، ونصـب أدوات الحصـار ومـا يَـراه المغـول ضـرورياً مـن الأعمـال الحربيـة العنيفـة الشـاقة، فكـان الأسـرى المغلوبـون علـى أمـرهم يتعرضـون للأخطـار الجسـيمة، مـن جـرَّاء ذلـك، دون أن يجـدوا سـبيلاً للفـرار، إذ أن أعـين المغـول مـن ورائهـم سـاهرة علـيهم، حتـى إذا مـا أنهك الأسرى قوى أعدائهم، يجيء دور المغول للإجهاز عليهم. ووصـف ابـن الأثـير فعل المغول هذا، عند أخذهم لمراغة، بقوله: كانت عادتهم، إذا قصدوا مدينـة ورأوا عنـدها امتناعـاً عـدلوا عنهـا، فوصلوا إلى تبريز، وصـانعهم صـاحبها بمـال وثيـاب ودواب، فساروا عنه إلى مـدينة مراغـة، فحصـروها ولـيس بهـا صـاحب يمنعهـا، فلمـا حصروها قاتلهم أهلها، فنصبوا عليها المجانيق، وزحفوا إليها، وكانت عـادتهم إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيـديهم يـزحفون ويقـاتلون، فإن عادوا قتلوهم، فكانوا يقـاتلون كرهـاً، وهـم المسـاكين، كمـا قيـل: كالأشـقر إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقر. وكانوا هم يُقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتـل في المسلمين الأسارى، وهم بنجوة منه [١٧].

وكـذلك بـرع المغـول في الالتجـاء إلى وسـائل الخـداع والتمويـه، فكـانوا إذا حاصروا مدينـة مـن المدن وطـال حصارهم لهـا دون جدوى تظـاهروا برفـع الحصـار عنهـا، والعـودة مـن حيـث أتـوا، حتـى إذا اطمـأن أهـالي المدينـة إلى رحيـل أعـدائهم وألقـوا سـلاحهم، عـاد إلـيهم المغـول، وانقضـوا علـيهم فجـأة قبـل أن يَسـتعدوا، فتَسقط المدينة في أيديهم على الفور [١٨].

الاهتمام بأهل الخبرة

على الرغم مما اشتهر به جنكيز خان من الصلابة والعناد في سياسته، إلا أنه لم يُغفل الإفادة من تجارب المتحضرين، وتلقى المساعدة من أرباب الخبرة والمرشدين وذوي الاطلاع، فيما يتعلق بالشئون الإدارية والمخابرات، التي تُساعده على القيام بأعماله العسكرية، ومن المعروف أن تنظيم الإدارة المدنية في أول أيام دولة جنكيز خان، كان أمراً بالغ الصعوبة، فلم يكن المغول في هذا الوقت قد بلغوا من المستوى الحضاري، هذا المستوى عند القبائل التي خضعت لهم كالكرايت والنايمان، لذا كانت الحاجة ماسة إلى الإفادة من كل الشعوب الخاضعة والموالية له، عقب توحيد منغوليا، وكان التجار المسلمون أول من ظهر في بلاد المغول من أصحاب الحضارات، بل كان هناك ثلاثة من المسلمين من أشد الناس إخلاصاً لجنكيز خان، في أيامه المبكرة في الحكم، وهم: جعفر خوجا، وحسن، ودانشمند الحاجب.

وأفاد جنكيزخان من حَسن ودانشمند في حملته على مملكة خوارزمشاة، بما قاما به من مفاوضات باسم سيدهما مع السكان الأصليين، بل حدث حينما عزم جنكيز خان على مهاجمة الصين الشمالية، أن أنفذ إلى الملك التون خان، جعفر خوجا، ولم يَلبث أن نقل إلى جنكيز خان أحوال البلاد، ووصف الطريق الذي سلكه، فأفادت هذه المعلومات في حملة جنكيزخان التي انتصر فيها على التون خان، كما اتخذ جنكيز خان له مستشارين من الموالين له على اختلاف عناصرهم، ومن هؤلاء:

١ - محمود يلواج من المسلمين.

٢ - تا تات أونجا: t'a - t'a - t'ong -a من الأويغوريين.

٣ - يي ليو جو تساي، ye – Liu Tch' ou –ts'ai. من الصينيين، وهو الذي خدم آخر ملوك النايمان، وعلّم أبناء جنكيز خان الكتابة الأويغورية.

ومحمود يلواج هذا، هو محمود الخوارزمي، كان قد التحق بخدمة جنكيز خان قبل مهاجمته للدولة الخوارزمية، وهو أحد السفراء الثلاثة الذين وجههم

جنكيز خان إلى محمد خوارزمشاه، سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧م، لذلك لُقب بـ: يلوج. وهو لفظ تركي معناه السفير أو المبعوث، ومنذ هذا الوقت ظل يَعمل مستشاراً لجنكيز خان، فعيَّنه نائباً، ثم حاكماً على إقليم ما وراء النهر، بعد سقوطه في أيدي المغول فأحسن إدارته. واستطاع بحسن تدبيره أن يُخفف عن الناس ما أوْقع المغول بهم من تدمير وقتل [١٩].

وأما تا تات أونجا: t'a - t'a - t'ong -a الأويغوري. فقد كان قبل التحاقه بخدمة جنكيز خان مستشاراً لآخر ملك نايماني، ثم اتخذه جنكيز خان مستشاراً له، ومعلماً لأطفاله، يُعلمهم الخط الأويغوري.

واشتهر: يي ليو جو تساي، ye – Liu Tch' ou –ts'ai. وهو من أهالي الصين الشمالية، وقد شغل أبوه منصب الوزارة لأسرة كين، بثقافته العالية، ودرس علوم الفلك والجغرافيا والأدب، حيث استفاد جنكيز خان من خبرته وأفكاره في إدارة الدولة، فقد قامت أصول الإدارة المغولية على أفكار وثقافات الآخرين، التي استفادها جنكيز خان من الخبراء والمستشارين من الشعوب والأمم الأخرى، كالحضارة الصينية والاويغوريين وغيرها [٢٠].

ولقد وقع على يي ليو جو تساي، ye – Liu Tch' ou –ts'ai. أن يلعب دوراً هاماً وصعباً أثناء قيام الإمبراطورية المغولية، فقد حظي بإعجاب جنكيز خان منذ أن وقعت عينه عليه، وكان أول فيلسوف صيني يلتحق بالجيش المغولي، ولم يَجعل المغول الأمور ممهدة أمام هذا الطالب للفلسفة والطب والفلك، وحدث مرة أن سخر ضابط معروف بمهاراته في صُنع الأقواس بالصيني العالي القامة والطويل اللحية، يقول له: ما هي الفائدة من وجود رجل كُتب مع محاربين؟ فرد الصيني: إن صُنع أقواس جيدة يحتاج إلى نجار، وأما عندما يَستدعي الأمر إدارة إمبراطورية، فالحاجة تدعو إلى صاحب حكمة.

وقد وصار هذا الرجل حظياً لدى جنكيز خان، وأثناء حروبه الكثيرة والطويلة، بينما كان المغول يَجمعون الأسلاب والغنائم، كان هذا الحكيم يَجمع الكتب والجداول الفلكية والأعشاب الطبية، وقد سجل جغرافية الحملات والمعارك

والمواقع، وعندما اجتاحت الجيوش موجة من الوباء، لاحت له الفرصة عندئذ للأخذ بثأره من الضباط الذين كانوا يهزأون به وبكُتبه، لقد سقاهم من ماء أعشابه، وجَعل الله لهم فيه شفاء.

وكان جنكيز خان يُقدر هذا الرجل لعلمه ونزاهته، ولم يترك الحكيم الصيني فرصة تمر إلا حاول فيها إيقاف القتل الذي لا ينقطع طوال طريق الجيش المغولي، وتقول أسطورة إن جنكيز خان شاهد مرة في مضائق جبال هملايا السفلى، حيواناً، عجيباً بشكل أيل، لكنه أخضر اللون وبقرن واحد لا غير، فاستدعى هذا الصيني ليسأله عن ذلك الحيوان، فأجاب هذا بصوت خفيف وقور: هذا هو كيو ـ توان. إنه مخلوق يَعرف جميع اللغات الأرضية، ويحب الأحياء من بني الإنسان، ويشمئز كثيراً من أعمال التقتيل. إن ظهوره هو بلا شك تحذير لك أيها السيد الخان، ودعوة إلى الكف عن اتباع هذا السبيل [٢١].

وتُعتبر كتابات الحكيم الصيني: يي ليو جو تساي، من أدق المصادر وأوثقها بخصوص المغول، ويَرجع إليه الفضل فيما كان للمدينة الصينية من تأثير على جنكيز خان، وفي الحد من المذابح التي كان يقوم بها المغول ضد السكان بعد الاستيلاء على بلادهم، وفي إنقاذ الكتب من النهب والحريق الذي تعرضت له المدن على أيدي المغول.

ومن مظاهر اهتمامات هذا العالم أيضاً، ما أجراه من أبحاث لاستخلص عقاقير طبية، لمكافحة ما ينبعث من جثث الضحايا من أوبئة، وعلى الرغم من إخلاص: يي ليو جو تساي، للدولة المغولية، ولأسرة جنكيز خان، فإنه لم يستطع أن يُخفي شعوره وعاطفته حينما المتمثلة في طلب الرأفة بمدينة أو إقليم، حل به قضاء المغول وحكمهم، ويُشير إلى ذلك اوكيتاي ابن جنكيز خان بقوله: الا تزال تبكي على هؤلاء القوم [٢٢].

ومع ذلك كان لوساطته الفطنة الحكيمة أهمية، في وقف إجراءات يتعذر تلافيها أو إصلاحها، فنظراً لأنه ينتمي أصلاً للعنصر المغول، ولأنه تَشَبع بالحضارة الصينية، فهو يُعتبر وسيطاً طبيعياً بين عنصر المغلوبين على أمرهم

وبين الطغاة المغول، على أنه ما كان ليسعى مباشرة عند المغول للدفاع عن قضية إنسانية، خوفاً من أنه لا يتم الاستماع إليه، بل حرص على أن يُثبت لهم أن الرأفة من دواعي السياسة السليمة، وبذلك كان يحقق غرضه، فما كان يرتكبه المغول من همجية ووحشية، يرجع إلى ما اشتهروا به من الجهل، فكانت مواجهة هذا الجهل لا تتأتى إلا بالحكمة.

وقد حدث في أثناء الحملة الأخيرة التي قادها جنكيز خان على كانسو، أن أشار قائد مغولي إلى أنه لا جدوى من الرعايا الصينيين الجدد. لأنهم ليسوا صالحين لاستخدامهم في الحرب، ولذا يَحسن استئصال شأفة كل هؤلاء السكان، الذين يبلغ عددهم نحو عشرة ملايين نسمة، حتى يُصبح تحويل جانب من الأرض إلى مراعي لخيل العساكر، وأعرب جنكيز خان عن تقديره لهذه النصيحة، غير أن الحكيم الصيني لم يَلبث أن أعلن للمغول الذين لا يرتابون في إخلاصه مُطلقاً ما يعود عليهم من المزايا باستغلال الأراضي الخصبة والإفادة من هؤلاء الرعايا المجدين، وشرح أن ما يُفرض من الضرائب على الأرض، ومن مكوس على المتاجر سوف يتحصل منها كل سنة نحو ٥٠٠ ألف أوقية من الفضة، و٨٠ ألف ثوب من الحرير، ٤٠٠ ألف غرارة من الحبوب، فكسب بذلك المعركة، وعهد إليه جنكيز خان أن يَضع على هذه القواعد مقدار ما يتحصل من الضريبة، وهكذا استطاع هذا الرجل العالم إيقاف بحر من الدماء كان على وشك الانفجار [٢٣].

ومما يُذكر لجنكيز خان تقديره واحترامه واستفادته من المتحضرين والمثقفين وأصحاب الخبرات وفي عهد أوغوداي، خليفة جنكيز خان وابنه، كان هذا الصيني يدير الإمبراطورية بمفرده تقريباً، وقد استطاع أن يأخذ أمر تنفيذ العقوبات من أيدي الضباط المغول القساة القلب، ليَضع ذلك في أيدي قُضاة عَيَّنهم لهذا الواجب، كما عيَّن جُباة ضرائب لصالح الخزينة. وكانت شجاعته وحكمته وسُرعة خاطره، وذكاؤه يستدعي إعجاب القادة المغول وكان يعرف كيف يؤثر فيهم، فمثلاً كان الخاقان أوغوداي مدمناً على الشراب بكثرة، وكان

للحكيم الصيني رغبة كبيرة في أن يظل هذا الخاقان على قيد الحياة أطول مدة ممكنة، ولما رأى أن نصائحه لأغوداي واعتراضه على إغراقه في شرب الخمر لا تجدي فتيلاً، جاءه يوماً بوعاء من حديد تحتفظ به الخمرة، وقد تآكلت حافته بفعل الكحول، عرض هذا الوعاء على العاهل المغولي وهو يقول: إذا كانت الخمرة تحدث مثل هذا التأثير في الحديد، فاحكم بنفسك كيف يكون تأثيرها في أحشائك وتأثر أوغوداي بهذه البرهنة، فاعتدل في شرابه.

وفي أحد الأيام غضب أوغوداي لعملٍ قام به الوزير الصيني، وأمر بإلقائه في السجن، ولكنه غيَّر رأيه بعد فترة وأمرَ بالإفراج عنه، ولكن الصيني لم يَرغب في مغادرة السجن، وأرسل أوغوداي يستفسر عن السبب الذي منعه عن الظهور في البلاط، فأجاب: أنت جعلتني وزيراً لك، وأنت وضعتني في السجن، إذن فإني مذنب، وأنت أطلقت سراحي، إذن فأنا بريء، إنه لسهل عليك أن تَجعل مني ألعوبة في يديك، ولكن كيف أستطيع بعد ذلك أن أُدير شؤون الإمبراطورية؟ ولقد أُعيد بعد ذلك لوظيفته، وكان بعض الضباط المغول يتهمونه باطلاً بجمع ثروة كبيرة من وراء عمله مع جنكيز خان وأوغوداي، ولذا عمدوا بعد موته إلى تفتيش مسكنه لكي يجدوا هذه الثروة المزعومة، غير أنهم لم يجدوا غير أدوات موسيقية متحفية ومخطوطات، وخرائط وجداول وحجارة عليها كتابات منحوتة [٢٤].

المجلس العام المغولي: الكوريلتاي

كان المجلس العام "الكوريلتاي" يعقد كل عام، وكان المكان الذي اختير لانعقاد آخر كوريلتاي في حياة جنكيز خان، مرجعاً تبلغ دائرته ٤٠ كلم تقريباً، وكان مكان مثالياً، وفقاً للتفكير المغولي، فالعشب يُغطي الأرض على جوانب النهر والكلأ وفير والصيد كثير، وكان الوقت أوائل الربيع، وهو الشهر المفضل لاجتماع الكوريلتاي وأخذ قادة الجيش يفدون في المواعيد المحددة، ولم يتأخر قليلاً سوى سوبوداي المستدعى من أوروبا، لقد قَدِموا من جميع أركان المعمورة المعروفة، جنرالات، خانات، ملوك وسفراء، قاموا برحلة طويلة للوصول إلى

مجلس نبلاء الإمبراطورية المغولية، وقد أحضروا معهم عدداً كبيراً من البطانة والحاشية، وكانت المركبات القادمة من الصين مجرورة بالبقر ومغطاة بالحرير، وكانت ترفرف فوقها الأعلام المغتنمة، وكانت مركبات الضباط القادمين من سفوح التيبيت مسقوفة مذهبة ومبرنقة، مجرورة بجمال التيبيت (الياك)، ذوات القرون العريضة والأذيال الحريرية البيضاء، العظيمة القيمة لدى المغول، الذين يستعملونها زينة للرايات والأعلام.

وجاء تولي أمير الحروب، قادماً من خراسان جالباً معه عدداً كبيراً من الجمال البيضاء، وجاء جغطاي، هابطاً من ثلوج الجبال، يقود مائة ألف رأس من الخيل هدية لأبيه، كان الجميع يرتدون ألبسة من ذهب وحرير، ومعاطف من فراء السمور، ويتدثرون إضافة بأردية من جلود الذئاب وقاية لملابسهم الثمينة، وكانت الخيل عوضاً عن الجلد المبقع بفعل الأنواء والمناخات، مبردعة بقمصان من الزرد المجلجل، وسروجها تلمع بالفضة المجلوة وتخطف الأبصار بأضواء الجواهر النفيسة، واجتمع الكل في فسطاط أبيض كان من الضخامة بحيث يستوعب ألفي شخص، وكان للفسطاط مدخل لا يَستعمله سوى الخاقان، وكان الجنود حاملوا التروس من الشدة والصرامة، بحيث لم يكن قط ليجرؤ أحد على المجازفة بالاقتراب من مقر جنكيز خان.

وكما فعلوا في مناسبات سابقة: فقد أتوا معهم بهدايا للخاقان، بأحسن أسلابهم من الخيل والنساء والأسلحة وبالكنوز الملتقطة بعناية عن خزائن نصف العالم تقريباً. ويقول مؤرخ مغولي إنه لم يسبق قط أن شاهد المغول مثل هذه الفخامة والأبهة من قبل. أمراء الإمبراطورية يشربون الآن، عوضاً عن حليب الأفراس، خمر العسل ونبيذ فارس الأبيض المعتق وكان جنكيز خان محباً لنبيذ شيراز. جنكيز خان يجلس الآن على العرش الذهبي الذي كان للسلطان محمد الخوارزمي، وقد جئ به من سمرقند وكان إلى جانبه تاج وصولجان السلطان الراحل، وعندما اجتمع الكوريلتاي في أول جلساته، واستهل جنكيز خان أول جلسة بأن أعطى للحضور خلاصة عن حملات السنوات الثلاثة الأخيرة إلى أن

قال: لقد جنيت سطوة عظيمة، وسلطاناً كبيراً بفضل"اليسا" وعليكم جميعاً أن تعيشوا في طاعة القوانين [٢٥].

لم يتبجح جنكيز خان الداهية بإنجازاته، وكان الشيء الأهم في نظره، والواجب تحقيقه، هو الخضوع لدستور الإمبراطورية المغولية (الياسا)، إنه لم يَعد بحاجةٍ إلى توجيه النصح لضباطه، ولا إلى قيادتهم بنفسه، فهم الآن قادرون على شن الحروب على مسئوليتهم؛ وكان يرى بوضوحٍ مدى الخطر الكبير الذي كان من المتوقع أن ينجم عن وقوع التفرقة والتنازع فيما بينهم، وقد التفت إلى أولاده الأشقاء الثلاثة وقال: لا تسمحوا أبداً للخصومات أن تحل بينكم! وجَرت حفلات ومآدب لمدة شهر، ثم انفرط عقد الحشد، فغادر جغطاي إلى جباله، وتوجه آخرون في طريقهم إلى كراكوروم وعلى رأسهم جنكيز خان، وكان سوبوداي يسير إلى جانبه ويُحدثه عن مغامراته في عالم الغرب، وكرّس جنكيز خان بعد ذلك ما بقي من حياته لتوطيد دعائم إمبراطوريته العظيمة: التي امتدت من كوريا حتى الخليج العربي، وجرى تنظيم الإدارة بصورة كاملة، دقيقة ومنظمة بإشراف الحكيم الصيني: يي ليو جو تساي، ye – Liu ou –ts'ai Tch'. وربما كان الشيء الأكثر إلفاتاً للنظر، في هذه الإمبراطورية تعدد الديانات، وقد جمع جنكيز خان حوله مستشارين من جميع الأديان: وثنيين ومسيحيين وبوذيين ومسلمين [٢٦].

الاستراتيجية المغولية

كان المغول على مقربة من الحضارة الصينية، لذا فإن تأثير الثقافة الصينية المتفوقة على المجتمع المغولي أمر لا يمكن تجاهله، وهناك احتمال بأن يكون جنكيز خان قد تأثر، بالتفكير العسكري الصيني في مجال المحاربة، وسبب ذلك أن جنكيز خان، بعد أن نجح في تدمير إمبراطورية كين الصينية، التي كانت تُعرف بالإمبراطورية الذهبية، أَكره عدداً كبيراً من العلماء والعسكريين وأصحاب الحرف والفنون الصينيين على العمل في خِدمته، وكان المغول بلا شك حتى قبل اجتيازهم لجدار الصين الكبير، قد تأثروا بمن كانوا يزورهم من

الصينيين من، تجار وعلماء ومنفيين سياسيين وعسكريين فارين من حاميات الحدود، والسر في ذلك النجاح العجيب للمغول في قيادة الجيوش هو تفهم الكامل لطبيعة الحرب، فلقد قاتلوا بدهاء غير معطين عدوهم إمهال، ينتزعون المبادرة ويحتفظون بها دون تراخ أو مُهادنة، ويَعملون في نفس الوقت على تسكين مخاوف الخصم بحمله على شعور بالأمان الكاذب، وذلك قبل أن يتحركوا منقضين عليه كالصاعقة.

لقد كان المغول يُعدون لكل حرب خططها بعناية ودقة. في المجلس العام (الكوريلتاي)، لقد كانوا يُرسلون العملاء والجواسيس إلى أراضي العدو، ليأتوا بالخبر عن أموره العسكرية، والسياسية والاقتصادية، والجلوغرافية في تلك البلاد المقصودة، وكانوا يَستعملون تكتيك الرتل الخامس بكفاءة عالية، وهذه تسمية حديثة، إلا أنهم كانوا يستخدمون نفس خطواته، ويتعاطون المحاربة النفسية، وقد استخدموا في الصين وأوربا الشرقية، سياسة الإرهاب الكلية، وادَّعوا في فارس وبلاد ما وراء النهر، بأنهم غضب الله على الظالمين، وكان يُترك لقادة الميدان، بعد وضع الخطة، كامل الحُرية في استخدام مواهبهم ومبادراتهم في نطاق حدود واسعة، لتنفيذ الاستراتيجية العامة عند بداية فصل الحصاد، وبينما يكون الفلاحون في البلد المقصود، غارقين عاكفين على حصاد مزرُوعاتهم، وإذا بهم يُفاجئون بنزول المغول عليهم كالجراد، لالتقاط حاجتهم من الحبوب، ولإتلاف ما يَزيد عن هذه الحاجة [٢٧].

وكانت تعليمات جنكيز خان تقضي، كنوع من الحرب النفسية ضد الخصم، بأن يعم الرعب والهلع جميع الأرجاء عقب الضربة الأولى، وأن يعمّ الشلل الأرض ومن عليها، وإثارة الإحساس بالعجز التام لدي العدو، كهذا الذي تحدثه كارثة طبيعية لا رماد لها ولا وقاية منها، وبحيث يَفقد العدو أي أمل من جرَّاء المقاومة، وبأنها لن تكون سوى الجنون المطبق بعينه [٢٨].

لقد ظهر جنكيز خان للعالم بصورة دراماتيكية، وكشف عن القيمة الحقيقية للحرب النفسية والإعلام الموجه تجاه الخصم، وتحقيق المزج العسكري

بين: الاستعداد، والإعلام، والانضباط، والحركية، وضربة المطرقة. لقد اعتُبرت حروب جنكيز خان، دروساً مُستفادة من حيث الجوهريات، لا تزال إلى اليوم صالحة كما كانت في أيامه، ولذلك فإن واضعي نظرية القتال الميكانيكية الحديثة، والداعين إلى حرب الدبابات ومُنظريها، كالجنرال فوللر والسير ليدل هارت وآخرين، قد لجأوا إلى حروب جنكيز خان، ليستوحوا منها التوجيه والإرشاد [٢٩].

إن أهم ما يمكن أن نتعلمه من الاستراتيجية المغولية وإنجازاتها العسكرية، يتمثل في أنه ما لم يكن الجيش مشمولاً بروحٍ واحدة من التفاهم، والانسجام، والهدف والغاية الواحدة، ابتداءً من القائد الأعلى حتى جندي الصف، فإن ذلك الجيش لا يستطيع أن يقاتل ويفوز [٣٠].

لقد تميز التخطيط الاستراتيجي المغولي بالتركيز على المؤسسة العسكرية، والتي اشتهرت بالعمليات الحركية السريعة الخاطفة، واستعمال الخِداع والمخاتلة وإخضاع المجتمع كله لأغراضهم الخاصة، وجني طاقة عمل ضخمة من شدة الانضباط والتقيد بالقوانين والسهر على تطبيقها، كما كانت تلك العسكرية تتميز بالأمور التالية:

١ـ تأمين الإعلام الاستراتيجي اللازم لمناورات المخادعة والتضليل، بقصد تشتيت العدو.

٢. توسيع الخلافات الداخلية لدى الخصم، بما يفت في عضده.

٣. استغلال السُّرعة وطاقة الاحتمال لديهم، للمناورة والمفاجأة.

٤ـ تجنيد الطاقة البشرية المحلية المغلوبة، لتغطية الخسائر في الصفوف وتدثيرها، بضمهم لجيوشهم، وجعلهم في المقدمة لتلقي الضربة الأولى، ولتكون الخسائر فيهم.

٥. احتلال المدن قبل أن تظهر فيها أية مقاومة جدية.

٦. القدرة على التنسيق الصحيح، وفي حينه، بين مفارز متباعدة.

وهذه الميزات جميعهاً تؤدي إلى الحفاظ على الطاقة البشرية المحدودة، وإلى الانتصار أيضاً، ولم يقم النجاح العسكري المغولي على كفاءة واحدة، وإنما قام على اشتراك وتعاون من جميع الكفاءات، ولو غير مغولية، كان الصينيون ينتجون مهندسين أفضل، والأتراك خيالة أسرع، والمسلمون أكثر بطولة، إلا أن المغول كانوا يُظهرون جميع إمكانياتهم وخواصهم، المادية والروحية والنفسية، في نموذجية عسكرية صالحة لشعب مكرَّس بكليته للحرب، لقد حوَّل المغول مجموع قبائلهم إلى دولة عسكرية عديدة الأوجه والأدوار، وحافظوا على جيوشهم قوية بالانضباط الصارم وافتراس العدو، وكانت الشَّبكات البريدية ومحطاتها المرحلية تَسمح باستجابةٍ عاجلةٍ إلى كل تحرٍ على حدودهم المترامية الأطراف، وكانت استراتيجيتهم ذاتية المنبع، قامت وتطورت، حسب الاستطاعة التكتيكية والإمكانات الاستراتيجية المتاحة لهم [٣١].

العادات والتقاليد الاجتماعية عند المغول

لكل مجتمع عاداته وتقاليده، وككل الشعوب كان للمغول عادات وتقاليد اجتماعية، سار عليها جنكيز خان وأبناؤه من بعده، نذكر بعضها:

كان المغول يَسكنون الخيام، كما هو الحال عند البدو، وكانوا يسمون أمكنة إقامتهم في المصايف والمشاتي: يورث، أو: أوردو، وجرياً على هذه العادة كانوا يختارون أماكن معينة يقضون فيها الصيف، يُقال لها: بيلاق، وأخرى يمضون فيها الشتاء تُسمى: قيشلاق، واستمروا على هذا حتى بعد أن فتحوا كثيراً من البلاد المتمدنة، واضطروا إلى سكن العواصم، فكانت لهم أمكنة يُقيمون فيها صيفاً، وأخرى يُقيمون فيها شتاء.

وهذه الخيام في المصايف والمشاتي، كانت تَتخذ صفة المدينة الكبيرة، إذ أنه بالإضافة إلى كثرة الخيام والأكواخ، فإن السكان الذين يصحبون الخان، كانوا يمثلون جميع الطوائف: من قواد الجيوش إلى القُضاة والكتاب والصناع والتجار وغيرهم، وكان أرباب الحرف والصنّاعات يزاولون عملية البيع والشراء، ويمدون هذه المدن المتنقلة بما يلزمها من الحاجيات، وكانت عادة المغول في حالة حدوث أمرٍ هام، كتنصيب ملك جديد أو القيام بحملة حربية، أن يُدعى أُمراء المغول وأقاربهم إلى الاجتماع بواسطة رسل يُقام لهم: إيلجيان، مفرد: يلجي. أي مبعوث أو سفير، للتشاور في مختلف المسائل المطروحة على بساط البحث، وهذه المجالس يُقال لها بالمغولية: قوريلتاي [1].

الزواج عند المغول

كان للخان عند المغول أن يتزوج بمن يشاء من النساء، وكان يأخذ بمبدأ تعدد الزوجات والعادة المتبعة أنه إذا تغلب على ملك أو أمير أو عقد معه اتحاداً أو تحالفاً، فإنه كان يتزوج من ابنته او اخته وامه، إما إذا تَغلب عليه وقَتله، فكان يتزوج امرأته، وكان جنكيز خان يسير على تلك الطريقة، حتى قيل إن عدد زوجاته كان يزيد عن ٥٠٠ زوجة [٢].

وكان المغول يُفضلون يكون أبناءهم من أقرب الزوجات إلى قلوبهم. وبعد موت الخان كانت جميع نسائه تكون من حق أكبر ابنائه، وله الحق في أن يتزوج بمن يشاء منهن، وذلك باستثناء والدته بالطبع، كما أن له أن يمنحهن لأصدقائه أو يُطلق سراحهن، على اعتبار انهن ملكية خاصة لا راي لهن، مع ملاحظة أن المرأة المسلمة في هذه الفترة ومن قبلها بأكثر من خمسة قرون، كانت تتمتع بحقوق لم تتحصل عليها المرأة حتى اليوم في أرقى الديمقراطيات حسب وصفهم لأنفسهم، ولا أظن أن تصل المرأة لحقوق كالتي يكفلها لها الإسلام. وفي مملكة المغول، كان يُطلق لقب: أُروغ. بمعنى: عشيرة، أو سلالة. على مجموع الأبناء والأقارب والأشخاص الذين هم من عشيرة الخان او الأمير، أما رعايا الخان الذين يَخضعون لسيطرته، فقد كان يُطلق عليهم لفظة: أولوس [٣].

الخرافات بين المغول

لكون البداوة كانت غالبة على قبائل المغول، علاوة على تفشي الجهل، وهذه بيئة طيبة ومناسبة جداً لانتشار كل ما يخالف العقل السليم من خرافات وأفعال لا يَقبل بها المجتمع السليم، كان المغول يعتقدون أن للشياطين تأثير كبير على حياتهم، وكانوا يخشون السحر، ويَخافونه. وقد تضمنت الياسا أحكاماً شديدة رادعة، توقع على كل من يُتَّهم بالسحر والشعوذة بقصد الأضرار بالغير، وكانوا يَنظرون إلى طائفة الكهنة من البوذيين، على انهم وحدهم هم الذين يستطيعون إبطال تأثير السحر ودَفع ضرره، ويَعرف كل واحد منهم

باسم: بخش. أما الساحر الملم بضروب السحر فيُقال له: قام. ولقد كان هؤلاء الكهان يدَّعون أنهم يَستطيعون تسخير الشياطين، كما أن ذوي الأرواح الشريرة يألفونهم ويأتمرون بأمرهم، وأنهم قادرون على التنبؤ بالغيب عن طريق تحضير الشياطين والأرواح، لذا اعتاد المغول أن يتم تقرير الأمور تحت مشورة هؤلاء السحرة والكهنة.

كذلك كان المغول يخشون الرعد ويفزعون من وقوعه، وكانوا عند قصف الرعد أو ظهور البرق، يقفون مشدوهين صامتين كأن على رؤوسهم الطير، وإذا اتفق أن أصابت صاعقة شخصاً ولم يهلك، فإن أفراد أسرته وقبيلته يَطردونه عنهم على الفور، ولا يُصرِّحون له بالعودة إلى الخيمة قبل مضي ثلاث سنوات.

ومن غرائبهم أيضاً أنهم كانوا يتصورون أنه إذا جلس شخص في الماء وقت الربيع أو الصيف، أو غَسل يده في النهر، أو وضع الماء في أواني ذهبية أو فِضية، أو ألقى بلباس مغسول في الصحراء، فإنه يَنتج عن هذا كله رعد وبرق كثير، وهو أشد ما يَخشاه المغول، وتجنباً لكل هذا، نصت الياسا على عقوبات قاسية تُنَفذ فوراً فيمن يقترف تلك الخطايا. وكان المغول يسمون تلك الأمور بقوة السماء الأبدية، ولأنها قوة السماء التي لا يَقدر على مقاومتها البشر، فهم يخافونها أكثر من أي شيء آخر، فمن السماء تأتي الأعاصير والرعد والبرق والعواصف الثلجية، ومن السماء أيضاً يأتي دفء الربيع الذي يَهب الحياة، والأمطار التي تغذي الحشائش.

وفي بعض الأوقات كان جنكيز خان يتجه بمفرده إلى قمة جبل مرتفع، ليتضرع إلى هذه القوة الخفية في السماء قائلاً: ابعث إلي بأرواح طبقات الهواء العليا لتصادقني، أما على الأرض فأبعث إلي برجال يكونون عوناً لي [٤].

ولعل جنكيز خان كان يعتقد أن هذه الأشياء تتجاوب معه، ولكن الحقيقة أن الله وحده هو الذي حقق له ما حققه من انتصارات مفحمة للمسلمين قبل غيرهم، وليس هذا لخيرية دينية يتميز بها جنكيزخان على المسلمين، بل لأنه

أخذ بالأسباب التي تركها المسلمون وراء ظهورهم، فقد قال الله تعالى: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) [الأنفال: ٦٠].

فلم يَفعلوا، وفَعلها جنكيز خان، فانتصر عليهم، لماذا؟ لأن الله تعالى قال: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) [الأنفال: ٤٦، ٤٧]. وكلنا يعلم حجم الفساد الذي ساد العالم الإسلامي في تلك الفترة، وكلنا يَعلم حجم العداوة والتفتت الذي شمل كل العالم الإسلامي، وصار دويلات متناحر، فضربهم الله بهذا الرجل وأتباعه.

أيضاً من علامات الجهل العقائدي لدى المغول، ما وقر في نفوس البعض منهم أنه بدون التمتمات والطقوس والخزعبلات التي يلجأ إليها الساحر، لا يمكن أن يَنزل المطر والثلج. أيضاً تعاملهم مع مرضاهم، فقد كانوا يُعاملون المرضى معاملة قاسية، وكانت عاداتهم عندما يمرض أحد منهم، يعزل عن مرقده، وتُوضع علامة على مسكنه تُشير إلى وجود مريض في الداخل، وإلى المنع من دخول أحدٍ عليه، فلا يزور المريض أحدٌ أبداً إلا من يتولى خدمته، وقد توضع حرية خارج خيمة المريض، تُلَف حولها قطعة من الصوف الأسود، وبذلك لا يجرؤ شخص غريب على دخولها، وعندما تشتد عِلة المريض، يَتركه الجميع، لأنه ليس مُصرحاً لمن يُشاهد موته أن يَدخل قصر الإمبراطور، أو مسكن عظيمٍ من العُظماء حتى يبزغ القمر الجديد، فكانت نظرتهم هذه إلى المريض توحي بأن هذا المريض شخص نجس ومشؤم. وهكذا ذاعت تلك الخرافات، وانتشرت بين أقوام المغول انتشاراً عجيباً، وقد تحدث عنها أغلب المؤرخين والرحالة [٥].

حفظ الجميل والاعتراف بالذنب

وكان المغول يقدرون الأشخاص الذين يؤدون لهم خدمات جليلة، أو يقدمون لهم مساعدات قيمة في أوقات المحنة والشدة واعترافاً بهذه المنة، كانوا يَعنون

بمثـل هـؤلاء الأشـخـاص، ويتعطفـون علـيهم وهـذا العطـف والتقـدير يُسـمى بالمغولية: سيورغاميشي، ويهبونهم الأراضي والأملاك ليستغلونها، ولينتفعوا بما تُدره عليهم، ثـم تئـول تلـك الأمـلاك إلى أعقـابهم بالوراثـة، وأحيانـاً كـانوا يُعطونهم لوحات شبيهة بالميداليات في العصر الحديث، وهي من الذهب أو الفضة أو الخشب، حسب مقام كل شخص، وهي في حجم كف اليد، ويُنقش عليها اسم الله واسم الخان، وأسْمى الأنواع منها ما كانت تُزينها صورة الأسد، وأما إذا شك الخان في أحد اتباعه، فإنه يُحيله إلى المحاكمة لمحاكمته.

وفي العادة كان الرجل المتهم يعترف بذنبه، أو جريمته، فقد كان الغالب على المغول حُب الصراحة وكراهة الكذب، وقد استمرت تلك العادة عندهم، حتى بعد تأسيس امبراطوريتهم، وكانت اليسا لا تعتبر المرء مذنباً إذا لم يعترف على نفسه، إلا إذا تم القبض عليه متلبساً [٦].

ومـن عِظَـم هيبـة جنكيـز خـان في قلـوب رجالـه، كـانوا ينظـرون إليـه بـاحترام وإجـلال، يرتقـي إلى درجـة التأليـه، فهـو الـرئيس الأكـبر، صـاحب الأمـر الأول والأخير، وكان يَعتقدون أنـه لا يصـح أن يوجـد إلى جانبـه حـاكم آخر علـى ظهـر الأرض ينازعه السيطرة والسلطان، فهو: رب في السماء وحاكم في الأرض.

وكـان المغـول يَعتقـدون أن الخـروج علـى طاعـة جنكيـز خـان ومخالفـة أوامـره، يُعـد جرمـاً عظيمـاً لا يغتفـر في نظـر المغـول، ذلـك لأن أوامـره في عقيـدتهم إنمـا تصـدر مـن السـماء، فعِصيانه إذاً إنمـا عِصـيان لله. وكـان ينظـر أيضـاً إلى أفـراد أسرته نفس نظرة التقديس، فالدنيا تقوم وتَقعد إذا اعتدى على واحد منهم أو أُصيب بأذى، ويؤيد هذا الرأي، تخريبهم مدينة نيسابور، وجَعلهم عاليها سافلها، بسبب قتـل طغاجـار، صـهر جنكيـز خـان، وتسـوية باميـان بـالأرض، علـى إثـر قتـل موتوجن ابن جغتاي، وحفيد جنكيز خان [٧].

ولم تكن فكرة العفو قائمة عند جنكيز خان، فما كان ليعفو عن من عصاه، حتى صـديقه الحمـيم: بواورتجـو، الـذي كـان لـه مُطلـق الحريـة في الـدخول والخـروج عليـه في خيمتـه، في أي وقـت، ومُشاركته طعامـه وشـرابه ومُسامرته، لم

يكن له أن يُخالف أمره أبداً. فلقد أسس جنكيز خان نظاماً حكومياً صارماً، زرع الرهبة في قلوب القاصي والداني، بتلك المذابح الرهيبة التي نفذتها جيوشه، ونحن لا نعوّل عليه في تلك التصرفات باعتبارها شيء شاذ تماماً، فقد كانت تلك الأمور واردة ومتوقعة من المحاربين، بل لقد كان يقع مثلها من جيوشٍ إسلاميةٍ، ضد جيوش إسلامية أخرى على مر التاريخ الإسلامي، ولننظر ما فعله الخوارزميون في الدول الإسلامية التي ضموه، وما فَعله الموحدون في المرابطين، وما فعله العباسيون في بني أمية والعلويين، وما فعله بني أمية في العلويين، والأمثلة كثيرة، وكانت أجواء الحروب هكذا تدور.

زحف جنكيزخان على العالم الإسلامي

الغزو المغولي لبلاد ما وراء النهر

كان علاء الدين محمد خوارزمشاه قد بعث، وهو مقيم بمدينة بخارى، بعض جواسيسه إلى بلاط جنكيز خان، للوقوف على مدى استعداد المغول للحرب، وذلك عام ٦١١هـ/ ١٢١٥م، فقضوا مدة طويلة، استطاعوا خلالها أن يؤدوا المهمة التي عهد إليهم بها، وقالوا بعد عودتهم: إن عدد المغول لا يبلغه الحصر، وأنهم من أصبر الناس على القتال، وأعرفهم بفنونه ولهم مصانع للسلاح، تكفي حاجتهم منه، وأنهم يَعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم، ومواد تموينهم وافرة، وأوضح أولئك الجواسيس أن حقائق الأمور هناك تشير إلى أنه لا قبل لأحد بمقاتلة المغول [١].

ودرس علاء الدين محمد خوارزمشاه بإمعان هذه المعلومات، فأدرك فداحة ما وقع فيه من خطأ بقتله تجار المغول ورُسلهم، وندم على ذلك، ولكنه لم يكن وقت الندم الآن، ثم أخذ يُعمل فكره ويدبر أمره، واستشار رجلاً يثق به ويدعي الشهاب الخيوي في الفقيه، فلما مثل بين يديه قال له: قد حدث أمر عظيم لابد من الفكر فيه، وإجالة الرأى فيما نفعل، وذلك أنه قد تحرك إلينا خصم من الترك في عدد لا يُحصى [٢].

فأشار عليه الخيوي في بإعلان النفير العام، ودعوة من بقي من ملوك الأطراف ليلحقوا به في جيوشهم، فإذا اكتملت تعبئة الجيوش سار بها إلى جانب نهر سيحون حيث حدود دولته الشرقية مع المغول، غير أن أمراء وأرباب المشورة في دولته رأوا عكس هذا الراي، وأشاروا بأنه من الأصوب ترك المغول حتى يَعبروا سيحون، ويتقدموا في الوهاد، والصحارى والمضايق والوديان التي يجهلون

مسالكها، حتى إذا وصلوا بخارى كان التعب قد أخذ منهم كل مأخذ، ونحن مستريحون، وبذلك يمكن الظهور عليهم، وإفناؤهم عن بكرة أبيهم ولم يلبث خوارزمشاه أن عمل على تجهيز جيشه للقاء المغول [٣].

أول لقاء بين الخوارزميين والمغول

تجهز خوارزم شاه، وسار ليكبس المغول في بلادهم قبل أن يتجهزوا له، فأدمن السير، ومضى يواصل الليل بالنهار، فقطع مسيرة أربعة أشهر، فوصل إلى بيوتهم، فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأثقال، فأوقع بهم وغنم الجميع، وسبى النساء والذرية.

وكان سبب غيبة المغول عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة كشلوخان، فقاتلوه، وهزموه، وغنموا أمواله وعادوا، فلقيهم في الطريق الخبر بما فعل خوارزم شاه في ديارهم، فجدوا السير مُقبلين عليه، فأدركوه قبل أن يَخرج عن بيوتهم، وتصافوا للحرب، واقتتلوا قتالاً لم يُسمع بمثله، فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها، فقُتل من الطائفتين ما لا يُعد، ولم ينهزم أحد منهم [٤].

أما المسلمون فإنهم صبروا حمية للدين، وعلموا أنهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية، وأنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم.

وأما المغول فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم، واشتد بهم الأمر، حتى إن أحدهم كان يَنزل عن فرسه ويقاتل قرنه رجلاً، ويتضاربون بالسكاكين، وجَرى الدم على الأرض، حتى صارت الخيل تزلق من كثرته، واستنفذ الطائفتان وسْعَهم في الصبر والقتال. وكان هذا القتال جميعه مع ابن جنكزخان ولم يحضر جنكيز خان نفسه الوقعة، ولم يَشعر بها، وقد أُحصي من قتل من المسلمين في هذه الوقعة فكانوا عشرين ألفاً، وأما من الكفار فلا يحصى من قتل منهم، وذلك شرق نهر سيحون، وهو يُعرف الآن بنهر سرداريا، ويَقع في دولة كازاخستان المسلمة [٥].

فلما كان الليلة الرابعة افترقوا، فنزل بعضهم مُقابل بعض، فلما أظلم الليل

أوقد الكفار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا، وكذلك فعل المسلمون أيضاً، كل منهم سئم القتال، فأما المغول فعادوا إلى ملكهم جنكزخان، وأما المسلمون فرجعوا إلى بخارى، واستعد خوارز شاه للحصار لعلمه بعجزه، لأن طائفة عسكر المغول لم يقدر خوارزم شاه على أن يَظفر بهم، فكيف إذا جاؤوا جميعهم مع ملكهم؟ إذن لقد تمكن الخوف من المغول في قلب علاء الدين خوارزم شاه، فأَمرَ أهل بخار وسمرقند بالاستعداد للحصار، وذلك عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥- ١٢١٦م [٦].

لقد تمكن الرعب في قلب السلطان علاء الدين خوارزم شاه، وعاد إلى سمرقند. ثم راسله جنكزخان وهاداه، وطلب منه أن يفسح للتجار أن تتواصل من بلادهما [٧].

فأجاب السلطان خوارزم شاه إلى المهادنة، وعمل جنكزخان بعد إبرام هذه المعاهدة على تأمين التجارة بين شرق آسيا وغربها، وتوسيع نطاق التجارة، وحرص على تأمين الطرق والأخذ على يد المعتدين وقُطّع الطُرق، وزود الطرق الرئيسية بقراقجية، وهم المستحفظين أو الحرس، وكلّفهم بأن يُرافقوا كل أجنبي يحمل تجارة ما إلى معسكرات المغول [٨].

أسباب غزو جنكيزخان للخوارزميين

مع كل هذا الانهيار المنقطع النظير في قوى الدولة العباسية ببغداد، إلا أن هيبتها كانت لا تزال موضع اعتبار لدى القائد المغولي الذي لم يعد يتقهقر، فهو مُصرٌ لا مَحالة على اكتساح كل العالم الإسلامي، بما فيه عاصمة الخلافة العباسية، إلا أنه رأى بثاقب فكره أنه لا يَصح قصد دار الخلافة مباشرة، في وقت توجد فيه دولة إسلامية مجاورة له تُعتبر هي أقوى دولة إسلامية في هذا التاريخ، الذي هو بداية القرن السابع الهجري، حيث أن ذلك يَضعه بين خطرين، الأول تجاوزه الدولة الخوارزمية، وجَعلها من ورائه حاجزاً بينه وبين بلاده سواء بالنسبة للإمداد، أو الرجوع لو هُزِم، الأمر الثاني احتمال حدوث التوافق والتعاطف بين دول الغرب الإسلامي، ودول الشرق علاوة على الخوارزميين، وفي

هذه الحالة تصير الجيوش المغولية بين شقي رحى، فتكون عُرضة للإبادة بكاملها.

لذلك اعتبر جنكيز خان أن أفضل طريقة لإسقاط الخلافة العباسية في العراق، هي التمركز أولاً في منطقة أفغانستان وأوزبكستان، لأن المسافة ضخمة بين الصين والعراق، ولابد من وجود قواعد إمداد ثابتة للجيوش المغولية في منطقة متوسطة بين العراق والصين، كما أن هذه المنطقة التي تعرف بالقوقاز غنية بثرواتها الزراعية والاقتصادية، وكانت من حواضر الإسلام المشهورة وكنوزها كثيرة، وأموالها وفيرة، فيكون بذلك أمن الأخطار السابق ذكرها، علاوة على ضمان مصادر مجانية للتمويل والإمداد.

لهذه كله قرر جنكيز خان في خوض حروبٍ متتالية مع دول المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية، والتي تُعرف بالدولة الخوارزمية، وكانت تضم عدة أقاليم إسلامية هامة مثل: أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران، وكانت عاصمة هذه الدولة الشاسعة هي مدينة أوجندة في تركمنستان حالياً، وكان هناك شبه اتفاق بين جنكيز خان ومحمد خوارزم شاه على حُسن الجوار، ومع أن جنكيز خان لم يكن من الذين يهتمون بعقودهم، أو يحترمون اتفاقياتهم، إلا أنه عَقَدَ هذا الاتفاق مع ملك خوارزم لِيُؤمن ظهره إلى أن يستتب له الأمن في شرق آسيا، أما وقد استقرت الأوضاع في منطقة الصين ومنغوليا، فقد حان وقت التوسع غرباً في أملاك الدولة الإسلامية، وحتى تكون الحرب مُقنعة لكل الطرفين، لابد من وجود سبب يَدعو إلى الحرب، وإلى الادعاء بأن الاتفاقيات لم تعد سارية، وقد بحث جنكيز خان عن سبب مناسب [٩].

والمتتبع لتاريخ الدّول يَعرف أنه ما كانت هناك دولة، إلا بانشقاق جماعة من دولة قديمة، دب فيها الفساد والضعف، أو نبوغ شخص أو أشخاص تطاول لديهم الطموح إلى الخروج على الدولة القائمة، وتكوين دولة مستقلة عنها، وفي هذه الحالة يبدأ السعي الحثيث من أجل تحقيق هذا الأمل، ولا يزال هذا الفرد أو هذه الجماعة تعمل، فإما يتم السيطرة عليهم وغالباً يتم قتلهم، ليكونوا عِبرة

لغيرهم، وإما تتوفق مساعيهم، وتتحقق لهم الغَلبة، وفي هذه الحالة لا تتوقف طموحاتهم عن حد معين، بل تظل هذه الدولة الناشئة تزداد وتستولي على البلاد أو حتى الدول المجاورة، حتى تنفذ فيها إرادة الله، وتبدأ هذه الدولة هي الأخرى في الضعف، في هذه الحالة فقط يبدأ توقفها عن ضم أراضي جديدة لها، ثم تبدأ في التنازل طائعة أو مُرغمة عن أجزاء من أراضيها، وأخيراً تَفنى كما فَني غيرها من الدول.

وهكذا كانت دولة المغول، بدأت بطموحات رجلٍ واحد، هو جنكيزخان، فلما تحسنت أحواله في قبيلته، وجَّد كل قبائل التتار والمغول، ثم استمرأ الرِّئاسة، وأعجبه إذلال الشعوب وقهرها، فراح يُسير الجيوش في الأراضي المحيطة به، ثم امتد نظره ناحية الغرب والجنوب، حيث العالم الإسلامي بزخمه وأخباره، ففكر، لما لا يكون هو أو من يهدم هذه الأسطورة الإسلامية، هكذا هداه شيطان عقله، وكأن الإسلام قائم بأشخاص ومبان، فإذا همهما هدم هذا الدين! ولكن الأيام هي التي قالت كلمتها بإرادة الله، فما ذهب من المسلمين إلا من حقت عليه كلمة الله بالهلاك، إنا لقضائه وأجله، أو عقاباً لتقصيره وجهله، وما ازداد الإسلام بهذا الغزو الغشوم الجهول إلا بريقاً وشهرة.

ولكننا لو نظرنا للأسباب الظاهرة لغزو بلاد الإسلام، لوجدنا عدة أسباب ظاهرة، غير هذا الطموح الجارف نحو تكوين امبراطورية، وتخليد الذكر

أهم أسباب الغزو المغولي للعالم الإسلامي

١ ـ الجدب الذي ساد أقاليم آسيا الشرقية: حيث كانت حاضرة جنكيز خان: قراقورم. وما ترتب عليه من قحط نشأت عنه حاجتهم الدائمة إلى الكثير من المواد الغذائية اللازمة لحياتهم وحياة دوابهم، فلقد كانوا في حاجة ماسة إلى اقتناء ما يُغطي احتياجاتهم الطبيعية من ملبس ومطعم وغيرهما، وكان لقيام علاء الدين محمد خوارزمشاه بمنع الميرة عنهم من الكسوات والأقوات وغيرها، وسده طُرق التجارة في وجوههم، أثره في توجيه أنظارهم إلى الدولة الخوارزمية [١٠].

٢ ـ حالـة الحماسـة والنشـاط المغـولي: كـان المغـول في هـذه الفـترة في حالـة حماسـة ونشـاط، يعيشـون أمجـاد انتصـاراتهم السـابقة في الصـين وغيرهـا، وبسـبب ذلـك، وضعوا لأنفسهم خطة للسيطرة على المناطق المجاورة لهم. وقد سمعوا عن سـعة الدولـة الخوارزميـة الـتي غـدت أملاكهـا مجـاورة لهـم. وعـن ثـراءهـا الضـخم وحضارتها الرائعة يطلعوا إليها [١١].

٣ـ مقتل بعض تجار المغول: يُقال أن هذا هو السبب المباشر والرئيسي. بل قل: هو الحُجة الناجزة التي وضعها خوارزم شاه بيد جنكيزخان، حيث قام أحد رجال دولة خوارزم شاه بقتل بعض تجار المغول.

وكان جنكيز خان قد أرسل إلى علاء الدين محمد خوارزمشاه عند عودته إلى مـا وراء النهـر، بعـد محاولتـه الفاشـلة لغـزو بغـداد سـنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، وفـداً مـن ثلاث تجار مسلمين هم: محمود الخوارزمي من خوارزم، على خواجة البخـاري مـن بُخـارى، يوسـف كنكـا الأتـراري مـن أتـرار، مُحملـين برسـالة يعـرض فيهـا المسـالمة والموادعة، وعقد اتفاق تجاري بين البلدين، علاوة على بعض الهدايا من منتجـات آسيا الوسطى، مـن نقـر المعـادن، ونصـب الختـو، ونـوافج المسـك، وأحجـار اليشـب، والثيـاب الـتي تُسـمى طرقـوا وتتخـذ مـن وبـر الجمـال البـيض يبـاع الثـوب منهـا بخمسين ديناراً وأكثر. رغبة في قيام علاقات تجارية وطيدة تخدم الطرفين [١٢].

وكـان نـص رسـالت جنكيزخـان: لـيس يخفـي علـي عظـم شـأنك وسـعة سلطانك، ولقد علمت بسطة ملكك ونفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض. وأنـا أرى مسالمتك من جملة الواجب، وأنت عندي مثـل أعـز أولادي وغير خـاف عنـك أيضـا أنـني ملكـت الصـين ومـا يليهـا مـن بلاد الـترك وقـد أذعنـت لـي قبايلهم وأنـت أخبر الناس أن بلادي مثارات العساكر ومعادن الفضة وأن فيها لغنية عن طلـب غيرهـا فإن رأيـت أن تفتـح للتجـار في الجهتين سبيل الـتردد، عمـت المنـافع وشملـت الفوائد [١٣].

عود السلطان إلى بلاد ما وراء النهر

لما سَمِع السلطان خوارزم شاه الرسالة صَرف الرُّسل، ثم استدعى محمود الخوارزمي ليلاً بمفرده، بوصفه أحد رعايا خوارزم شاه، نظراً لمولده في خوارزم، وقال له: أنت رجل خوارزمي، ولا بد لك من موالاة فينا وسبيل إلينا، ووعده بالإحسان إن صدقه فيما يَسأله عنه، وأعطاه جوهرة نفيسة من معضدته علامة للوفاء بما وعده، وشرط عليه أن يكون عينا له على جنكزخان. فأجابه إلى ذلك رغبة أو رهبة ثم قال: أصدقني فيما يقول جنكزخان أنه ملك الصين واستولى على مدينة طوغاج أصادق فيما يقول أو كاذب؟ قال: بل صادق ومثل هذا الأمر لا يَخفى. ثم قال له: أنت تَعرف ممالكي وبسطتها وعساكري وكثرتها، فمن هذا اللعين حتى يُخاطبني بالولد؟ وما مقدار ما معه من العساكر؟ فلما شاهد محمود الخوارزمي آثار الغيظ على وجه السلطان أعرض عن النُّصح، وقال: ليس عسكره بالنسبة إلى عسكرك إلا كفارس في خيل، أودخان في جُنح ليل [١٤]

يقول بارتولد: إنه من المشكوك فيه كثيراً أن يكون جنكَيزخان قد دبَّر ذلك الأمر لإسخاط خوارزمشاه بحيث يجعل الحرب بينهما أمراً لا مفر منه، ومهما يكن من أمر، فإن القطيعة بين الحاكمين لم تكن بسبب هذا الحادث وحده. اهـ. ولا يمكن أن نتخيل أن جنكيزخان الذي أخضع جزأ كبيراً من الصين، وأباد كما جاء في بعض الروايات خمسين مليوناً منهم، سوف يتوقف أو يردعه رادع عن خوض غمار الحرب من كل شعوب الأرض، وأولهم جيرانه المسلمين [١٥].

ذهاب رُسل جنكيز إلى خوارزم شاه

استقر الحال على المسالمة، بين الدولة الخوارزمية والمغول، بعد حضور التجار الثلاث لدى علاء الدين خوارزم شاه، ثم ذهابهم بما يُفيد قبوله راجعين إلى جنكيزخان، إلى أن وصل من بلاد التتار تجار إلى أترار، وهم: عمر خواجه الأتراري، والجمال المراغي، وفخر الدين الدنزكي البخاري، وأمين الدين الهروي. وكان ينال خان ابن خال السلطان علاء الدين خوارزم شاه، ينوب عن السلطان

بأترار بصحبته عشرين ألف فارس، فشرهت نفسه في أموال أولئك التجار فكاتب السلطان يقول: إن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار في زي التجار وليسوا بتجار، وإنما هم أصحاب أخبار، وإنهم إذا خلوا بأحد من العوام يهددونه، ويقولون إنكم لفي غفلة عما وراءكم، وسيأتيكم ما لا قِبل لكم به. فأَذِن له السلطان في الاحتياط عليهم إلى أن يَرى فيهم رأيه. فقَبضَ ينال خان عليهم، وانقطع خبرهم، وأخذ ما كان معهم من الأموال والأمتعة [١٦]

وصول رُسل جنكيز إلى خوارزم شاه

مرة فترة على تلك الفعلة من أمير أترار، وصل خلالها خبر ما فعله بالتجار، أو قُل جواسيس المغول، وفي كل الحالات فأي صاحب عقل لابد أن يتوقع أن الأمر لن يمر مرور الكرام، وبالفعل هاج جنكزخان وماج، وهجره النوم وصمم على الأخذ بالثأر، وقال غاضباً: لا تجتمع شمسان في سماء واحدة، ولا يجوز أن يَبقى خاقانان على أرض واحدة، فأرسل ابن كفرج بغرا، وكان أبوه من أمراء السلطان تكش، ومعه رجلان من التتار يقولون للسلطان: إنك قد كتبت خطك وأمَانك للتجار بأن لا تتعرض إليهم بسوء، وقد غدرت ونكثت، والغدر قبيح على الملوك، خاصة من سلطان المسلمين، فإن زعمت أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمْرِك، فسلّمه إليَّ لِأُجازيه على فعلته، حقناً للدماء، وتسكيناً للفتن، وثورة الدهماء. وإلا فأذن بالحرب ترخص فيها الأرواح الغالي، وتتعضد معها عوامل الرِّماح [١٧].

فلم امتنع خوارزم شاه أن يُرسل ينال خان، وخشي إن سلمه أن يثور عليه الجيش، وقد كان معظم جيشه من عشيرة والدته تركان خاتون، التي ينتمي إليها هذا النائب المفسد ينال خان، وظن أنه إن لاطف جنكزخان، أطمعه، وأمر بقتل رُسله، فقُتلوا، وقيل بل قتل واحداً منهم فقط، وترك الاثنين لتوصيل ما حصل إلى جنكيزخان،. فيالها من قتلة هدرت دماء الإسلام، وأجرت بكل قطرة سيلاً من الدم الحرام. فعند ذلك تجهز جنكزخان لقصده [١٨] .

الاستيلاء على مدينة أترار

في عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، بدأ الغزو المغولي شرق الدولة الإسلامية، فقد وصل جغتاي، ابن جنكيزخان، إلى حافة نهر سيحون على مقربة من مدينة أترار، على رأس جيش قوامه نحو ستمائة ألف من خيرة جنده، وكانت غاية الجيش في المرحلة الأولى الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، المحصورة بين نهر سيحون في الشرق، وجيحون في الغرب، لذا وضع خِطته على أساس الإطباق على هذه البلاد من أربعة جوانب، بحيث يتعذر على الجيش المدافع صد الهجوم، وكان جنكيز خان يُعبيء جيشاً كبيراً، ويلقي في جنده عند بداية الزحف غرباً هذه الأوامر الصارمة: سيروا معي لنمحق بقواتنا الرجل الذي ازدرى بنا واحتقرنا، إنكم ستشاركونني في انتصاراتي، وليكن قائد العشرة آمر الحظيرة منكم منتبهاً مُطيعاً، كقائد العشرة آلاف: قائد الفرقة، ومن يخالف أو يفشل في إنجاز واجبه سيفقد حياته ونساءه وأولاده [١٩].

سوء تدبير السلطان لما قصده التتار

لقد كانت الأمور كلها تتضافر ضد علاء الدين خوارزم شاه، ذلك أنه لما رجع خوارزم شاه من المعركة السابقة، عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥- ١٢١٦م، بَلغه خبر التتار وقصدهم البلاد، عزم أن يبتني سوراً على مدينة سمرقند على كبرها ودورها، حوالي اثني عشر فرسخاً، ثم يشحنها بالرجال، لتكون سداً بينه وبين الترك. ففرَّق عُماله في سائر أقاليم مملكته، وأمرهم أن يستسلفوا خراج سنة ٦١٥هـ، برسم عمارة السور، فجبى خراجاً كاملاً، وأعجله التتار فلم يتمكن من عمارته، ثم بعث الجُباة مرة ثانية إلى سائر الممالك، وأمرهم بجباية خراج ثالث في سنتهم، وهي سنة ٦١٤هـ،وأن يستخدم بذلك رجالة ورماة، من كل بلد بقدر ما يتحصل منها من المال. ثم فرَّق عساكره بمدن ما وراء النهر وبلاد الترك، كالتالي: [٢٠]

تَرك ينال خان بأترار: في عشرين الف فارس. وقتلغ خان في جماعة أخرى: في

عشرة آلاف فارس بشهر كنت، إحدى مدن أطراف تركستان، والأمير اختيار الدين كشكي أمير آخور- وأمير الأخوار أي أمير العلف، أي أمير اسطبلات السلطان. واغل حاجب الملقب باينانج خان: في ثلاثين ألف فارس ببخارى. وطغانخان خاله وأمراء الغور، مثل جر ميخ، وحرور، وابن عز الدين كت، وحسام الدين مسعود، وغيرهم: في اربعين ألف فارس، وقيل خمسين ألفاً، بسمرقند. وفخر الدين حبش المعروف بعنان النسوي وعسكر سجستان بترمذ. ويلخمورخان: بوخش إحدى مدن نواحي بلخ. وأبا محمد خال أبيه ببلخ. وأسرك بهلوان: بخندروذ، إحدى مدن فارس. وعلجق ملك: بجيلان، وهي مجموعة بلدان وراء طبرستان. والبرطاسي بقندز. ولم يترك بلداً مما وراء النهر خالياً من عسكرٍ كبير، فكان ذلك من أعظم الأسباب التي استولى بها جنكزخان على البلاد الإسلامية، ولو جمع عساكره ولقي التتار لهزمهم [٢١]

وقد عوَّل ابن الأثير على تصفية الخوارزميين للدول التي كانت تحيط بدولتهم، واستيلائهم على جميع المدن الإسلامية، التي كانت تُشكل من قبل دولاً إسلامية تُحيط بدولتهم، فجعل ذلك سبب انهيار البلاد الإسلامية الشرقية كله بيد التتار، بل والوصول إلى بغداد وأسيا الصغرى وغيرها، فقال: إنما استقام للتتار هذا الأمر لعدم المانع، وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمداً كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً [٢٢].

خطة الجيوش المغولة المهاجمة للمسلمين

لقد قسَّم جنكيز خان جيوشه إلى اربعة أقسام، جَعل على رأس كل جيش منها أحد بنيه، فقد أراد أن يهاجم أكبر عدد من المدنُ الإسلامية في وقت واحد، فلا يترك إليهم فرصة للتوحد ضده.

وبالفعل تحركت الجيوش الجنكزخانية نحو بلاد خوارزم شاه، في عام ٦١٥هـ/١٢١٨م، وكان هذا التحرك حسب خطة مرسومة مُحكمة، ونظام حربي

وضعه جنكيز خان صوب عينيه، وبعد أن استولى على مابين نهري سيحون وجيحون، قصد بلاد خوارزم شاه بعدة جيوش.

الجيش الأول لأترار

كان الجيش الأول تحت قيادة: جغتاي وأجتاي ابني جنكيز خان، تحت قيادة جوجي أكبر أبناء جنكيز خان، وهذا الجيش مكون من سبعة تومانات، والتمون عدد مغولي يساوي عشرة آلاف، أي أن تعداد هذا الجيش كان حوالي ٧٠٠٠٠ جندي، وقد ترك جنكيز خان لهذا الجيش مهمة فتح أترار. ولما شارفا تخوم البلاد الإسلامية توجها صوب أترار، وكانت مدينة محصنة تحصيناً قوياً، وبها حامية قوامها خمسون ألف رجل، يعاونها جيش آخر بنحو عشرة آلاف على رأسهم قراجة، وزير الأمير محمد خوارزمشاه، ودام الحصار خمسة أشهر، مما ترتب عليه عجز الجيش الخوارزمي عن المقاومة، ثم هزيمته، وبذلك تيسر لقوات المغول الاستيلاء على مدينة أترار التي تعد مفتاح ما وراء النهر [٢٣].

لقد كان هجوم المغول على هذه المدينة عنيفاً، فقد كانوا يتوقون للثأر من ينال خان، حاكم هذه المدينة، الذي قتلَ إخوانهم التجار، الذي يَعلم أن عقابه سيكون أليماً إن وقع في أيديهم، ولكن مقومته لم تجد طويلاً، فلقد استولوا على هذه المدينة عنوة سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م.

لقد فقدَ ينال خان أثناء فترة الحصار معظم رجاله، ومع ذلك ظل يُدافع دفاع اليائس المستميت، ولما وجد نفسه مُحاصراً من كل جانب قَذفَ بنفسه إلى سقف أحد المنازل، فتبعه جنديان مغوليان وهو لا يملك أن يدافع عن نفسه إلا بقذفهما بالحجارة التي كان يُناوله إياها بعض النسوة، وأخيراً تم القبض عليه، ودخل المغول المدينة؛ فنهبوها وطاردوا سكانها وقادو ينال خان إلى معسكر جنكيز خان الذي كان في ذلك الوقت أمام مدينة سمرقند، وكان جنكيز خان مصراً على التنكيل به، فأمر أحد رجاله أن بصهر الفضة وسكبها في عينيه وأذنيه، وهكذا انتقم جنكيز خان لقتل تجاره ورسله، وبسقوط أترار سقط مفتاح بلاد ما وراء النهر [٢٤].

الوقيعة بين السلطان وأمه وإخواله

لما استولى جنكزخان على أترار، حضر عنده بدر الدين العميد، نائب الصفي الأقرع وزير علاء الدين خوارزم شاه ببلاد الترك، وكان بين بدر الدين العميد وخوارزم شاه شحناء دفينة وأحقاد، بسبب قتل خوارزم شاه لجماعة من عائلة بدر الدين العميد، وبعد أن فهم جنكيز خان أن خوارزم شاه لا يؤتى وجهاً لوجه، فله من الأرض والرجال والقوة ما يُمكنه أن يَجمع من الفُرسان والجيوش، ما يَعجز عن مُلاقاته المغول،ولكن الحل للتغلب عليه هو إشاعة الفُرقة والفتنة بينه وبين رجاله ووالدته، فاتفق معه جنكزخان على أن يزوركُتباً، على لسان الأمراء أقارب والدة السلطان إلى جنكزخان، يَبذلون له الدخول في طاعته، ويقولون:

إنا تسحبنا من بلاد الترك بعشائرنا ومن يلوذ بنا إلى السلطان، رغبة في خدمة والدته، فلما نَصَرْناه على كافة ملوك الأرض، وذلت له الجبابرة وخَضعت له الرقاب، فها هو الآن تتغير نيته في حق والدته، عتواً منه وعقوقاً، وهي تأمرنا بخذلانه، فنحن على انتظار وصولك واتباع أمرك. وكان هذا تدبير نايب الوزارة المذكور. وسَلّم جنكزخان الكُتب إلى بعض خواصه، وأَمَره أن يتوجه بها إلى السلطان، ويُظهر له أنه قد هرب من صاحبه إليه، ففعل ذلك. فلما وصل إلى السلطان ووقف على الكُتب لم يَشك في صحة ذلك، ونفر من هؤلاء الأمراء، ونأى عنهم وبددهم [٢٥]

لما فَعل خوارزم شاه بأقارب والدته تركان خاتون غضبت لذلك، وكَتب جنكزخان إليها على يد دانشمند الحاجب، وهو من خواصه، وهي إذ ذاك بخوارزم، يقول: قد عرفت مقابلة ابنك حقوقك بالعقوق، وقد قصدته بمواطأة من أمرائه، ولست بمعترض إلى ما تحت يدك من البلاد، وأسلم لك خوارزم وخراسان وما يتاخمهما من قاطع جيحون. فكان جوابها عن هذه الرسالة: أن خرجت عن خوارزم. واستصحبت ما أمكنها من حرم السلطان وصغار أولاده ونفايس خزائنه، وأَمرَت بقتل من كان بخوارزم من الملوك المعتقلين، وأبناء الملوك، وأكابر الصدور، فقتلت زهاء اثنين وعشرين نفساً منهم إبنا السلطان غياث الدين

الغوري وابن طغرل السلجقي وعماد الدين صاحب بلخ، وابنه بهرام شاه صاحب ترمذ، وعلاء الدين صاحب باميان، وجمال الدين عمر صاحب وخش، وابنا صاحب سقتاق من بلاد الترك، وبرهان الدين محمد، وصدرجهان وأخوه افتخار جهان، وابناه ملك الإسلام وعزيز الإسلام. واستصحبت معها عمر خان صاحب يازر، فصحبها إلى بلاده، وخدمها أتم خدمة، حتى إذا قاربت تخوم يازر خافت أن يُفارقها، فأمرت بضرب عنقه فقُتل صبراً [٢٦]

استيلاء التتر المغرية على مازندران

لما أيس التتر المغرية الذين خرجوا خلف خوارزم شاه للقبض عليه، لما عجزوا عن إدراكه، عادوا فقصدوا بلاد مازندران، فملكوها في أسرع وقت، مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها، وامتناع قِلاعها، فإنها لم تزل ممتنعة قديمة الزمان وحديثة، حتى إن المسلمين لما ملكوا بلاد الأكاسرة جميعها، من العراق إلى أقاصي خُراسان، بقيت أعمال مازندران يؤخذ منهم الخراج، ولا يَقدرون على دخول البلاد، إلى أن مُلكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين، ثم ملكها التتار صفواً عفواً لأمر يريده الله تعالى. ولم يُلاقوا في الاستيلاء عليها سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م مقاومة تُذكر [٢٧].

ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا، وسبوا، ونهبوا، وأحرقوا البلاد، ولما فَرَغوا من مازندران سلكوا نحو الري، وكانت تركان خاتون، والدة السلطان علاء الدين خوارزم شاه في سنة ٦١٥هـ، رحلت من إقليم خوارزم بغية الالتجاء إلى العراق العجمي، ثم اعتصمت وهي في الطريق بإحدى قلاع مازندران الحصينة، فأقامت بها، وأمرت بتحصين القلعة، فَحُصنت، ثم حُوصِرت أربعة أشهر القائد المغولي سوبوتاي في أثناء مطاردته علاء الدين خوارزمشاه، وكان من الاتفاق العجيب والسيء أيضاً أن القلعة نفذ ماؤها، وكانت العادة أن تلك القلعة دائمة الأنواء، فقدَّر الله عز وجل أن صحت السماء في زمن الحصار حتى نفد الماء، فألجأها ذلك إلى طلب الأمان، فأُجيبت إليه، ونَزلت من القلعة ومعها الوزير محمد بن صالح. فلما نزلت من القلعة فاضت الصهاريج في هذا اليوم، حتى نزل السيل من

باب القلعة، فأخذوها وما معها قبل وصولهم إلى الري، فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم، وما لم يُشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع، ونفيس من الجواهر، وغير ذلك، وسيَّروا الجميع إلى جنكزخان بسمرقند. فكانت تحضر سماط جنكزخان فتَحمل منه ما يقوتها مدة، بعد أن حكمت في أكثر البلاد، وبقت هناك حتى ماتت سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م [٢٨]

وأما أبناء علاء الدين الصغار، الذين كانوا مع تركان خاتون، فقد قتلهم جنكيز خان رغم حداثة سنهم، كما أعطى ابنه جغطاي اثنتين من بنات علاء الدين، فتزوج واحدة وأعطى الثانية لأحد رجاله المقربين، كما أعطى جنكيز خان ابنة ثالثة من بنات علاء الدين لحاجبه دانشمند، هذا ما كان من أمرها وأمر من معها بعد وفاة ابنها، وهكذا خلا إقليم خوارزم من الحكام الخوارزميين وبات ينتظر مصيره المحتوم على أيدي المغول [٢٩].

الجيش الثاني يستولي على مدينة جند

كان الجيش الثاني لجنكيز خان بقيادة ابنه الأكبر: جوجي، وقد ترك جنكيز خان لهذا الجيش مهمة فتح المدن الواقعة على نهر سيحون، وسُرعان ما وصلوا إلى مشارف سقناق، على مسافة أربع وعشرين فرسخاً من أترار، وقد أرسل جوجي: حسن حاجي، والذي كان تاجراً ثم التحق بخدمة جنكيزخان، أرسله جوجي برسالة إلى أهالي سقناق يدعوهم فيها إلى التسليم، ولكنهم قتلوه. فسار إليهم جوجي على رأس جيشه، وحاصر المدينة سبعة أيام، ثم سقطت في يده، فنصَّب ابن حسن حاجي حاكماً عليها. ثم كانت قبلته مدينة: جند، إحدىَ معاقل المسلمين على نهر سيحون، وقد وصل هذا القائد إلى هذه المدينة بعد أن استولى على كثير من المعاقل والمدن الواقعة على نهر سيحون، وتمكن بذلك من السيطرة على كل مجرى هذا النهر تقريباً، فلما اقترب من مدينة جند، غادرها حاكمها ليلاً تاركاً لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم، وقد نصب المغول المجانيق حول المدينة، استعداداً لتحطيم أسوارها [٣٠].

وإزاء هذا الاستعداد من قبل المغول انقسم الأهالي على أنفسهم، فرأى فريق منهم ضرورة الدفاع عن المدينة، ورأى فريق آخر لا فائدة من الدفاع وآثر أن يُسلم المدينة في الحال، لعل الأهالي يجدون في ذلك خير شفيع يُنجيهم من الوقوع تحت سيوف المغول، والظاهر أن هذا الرأي كان يُناصره أكثرية السكان، بدليل أن المغول لم يجدوا أي مقاومة داخل المدينة، وقد دكوا أسوارها من جميع جهاتها، وأخيراً سلمت المدينة، وسلم من سلم من أهلها، وقُتل من قَتله المغول، وبعد أن وضع جوجي على المدن المفتوحة حُكاماً مخلصين، أصدر أوامره لجنوده بالعبور إلى إقليم خوارزم [٣١].

الجيش الثالث للمغول يستولي على بنكَت

كان وجهة الجيش الثالث من الجيوش الجنكيز خانية التي سيَّرها جنكيز خان، إلى بلاد ما وراء النهر، وقد ترك جنكيز خان لهذا الجيش مهمة فتح مدينة بنكَت، وخُجندة، وهما من أهم المعاقل والمنافذ على نهر سيحون، وهي شمال خجندة، وقد تمكن المغول من دخول مدينة بنكت بعد أن سلّمها الأهالي، وكان المغول قد أمَّنوهم على حياتهم، لكن هؤلاء كانوا لا يَعرفون معنىً للعهود والمواثيق، ولما دخلوا المدينة فصلوا الجند عن المدنيين واعملوا فيهم القتل، واختاروا من المدنيين خيرة شبابهم لينتفعوا به في أعمالهم الحربية. ثم سارت هذه الفرقة المغولية نحو الجنوب ناحية شطر مدينة خجندة الواقعة على نهر سيحون، وهي مدينة جَميلة اشتهرت بحدائقها وانتعاش التجارة فيها، كما اشتهرت بشجاعة أهلها وقوة بأسهم [٣٢].

وكان تيمور ملك قائد الحامية الخوارزمية في مدينة خجندة، فضَّلَ أن يُغادر المدينة مع ألف من جنوده إلى جزيرة صغيرة في وسط النهر، بعيد عن شاطئيه، حتى يكون في مأمن من غارات المغول، وعلى بُعد كافٍ من مرمى سهامهم، وقد سار ما يزيد على عشرين ألف جندي مغولي، من أولئك الذين انتصروا انتصاراً مُبيناً على الخوارزميين في مدينة أترار وغيرها من المدن، يتبعهم خمسين ألفاً من خيرة شباب الخوارزميين، لمساعدة هذه الفرقة المغولية التي كانت تحاصر تيمور

ملك، وقد كُلفت هذه الجموع بإحضار الأحجار من الجبال المجاورة وإلقائها في النهر، ليكونوا بذلك طريقاً يستطيع المغول أن يَعبروا منها إلى هذا الخوارزمي الذي كان معتصماً في جزيرته، على أن تيمور ملك، وكان رجلٌ جريئاً مقدماً، صمم على إفساد خطة المغول، فصنع اثني عشرة سفينة كبيرة غطى جدرانها بالجلود، وكان يُرسل في كل يوم ستاً من هذه السفن للإغارة على المغول، الذين كانوا يَعملون في هذا الطريق الموصل إلى الجزيرة، فيرمونهم بسهامهم [٣٣].

ولكن تيمور ملك وجد في النهاية أن مقاومته لن تجدي نفعاً فصمم على الهرب، وبعد أن شحن جنوده وأمتعته في سبعين مركباً، سار في النهر متجهاً نحو الشمال، على أن المغول كانوا يُراقبونه من جانبي النهر، وقد علم وهو يسير في النهر أن جوجي بن جنكيز خان حشد قوة كبيرة من المغول على مَقرُبة من جند على جانبي نهر سيحون؛ وأنه سد هذا النهر بقنطرة من السفن، واضطر تيمور ملك أن يَترك النهر إلى الساحل، حيث امتطى جواده وقاتل أعداءه قتال اليائس، ومع ذلك استطاع أن يَخدع مُطارديه، وأن يَصل في النهاية إلى مدينة خوارزم، حيث انضم إلى قوات السلطان في شهرستان، حيث كان يُرَابطُ جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزمشاه، وبعد فترة هدأت الفتن وعاد هذا القائد إلى فرغانة، ولكنه قتل على يد رجل مغولي [٣٤].

الجيش الرابع للمغول يستولي على بخارى

خرج جنكيز خان بنفسه على رأس الجيش الرابع من جيوشه، وكان معه في قيادته ابنه تولوي، وكانت غالبية القوات المغولية في هذا الجيش، فقصدوا مدينة بخارى، وكانت من بين مدن بلاد ما وراء النهر التي طمع المغول في الاستحواذ عليها، فنزل جنكيز خان بظاهرها في أواخر عام ٦١٦هـ/١٢١٩م، وقد استولى في طريقه إليها على كل مر عليه من بلاد، وبدأ لتوه يَضرب حصاراً مُحكماً عليها، وكانت القوة الإسلامية التي وكل إليها أمر الدفاع عنها تتكون من عشرين ألفاً [٣٥].

ولقد استمر الهجوم على بُخارى والتي هي الآن إحدى مدن جمهورية أوزبكستان، ثلاثة أيام، وهي بلدة الإمام الجليل والمحدث العظيم محمد إسماعيل البخاري صاحب صحيح البخاري. وبعد ثلاثة أيام ظهر للجيش الخوارزمي المدافع ضعفه وقِلة حيلته، وعندئذ قرر التقهقر إلى خراسان، التماساً للنجاة، ولكن كيف السبيل إلى الانسحاب مع هذه الصفوف المتراصة من الجيش المغولي؟ لقد عوَّل الجيش الإسلامي على مواصلة الحرب، وحقق شيئاً من النجاح، لكنه أُرغم أخيراً على الارتداد، ولم يزل يطاردهم المغول على مقربة من نهر جيحون حتى أنزلوا بهم هزيمة ساحقة، ولم يَنج من القتل إلا شرذمة يسيرة [٣٦].

وأحسَّ الخوارزميون الذين بقوا في المدينة إثر ذلك أن قوتهم ضعفت، وبدأ اليأس يدب في نفوسهم وهم يرون خِيرة الجُند يغادرها، فأرسلوا قاضي المدينة بدر الدين قاضي خان يَعرض تسليم المدينة ويَطلب الأمان، فأجابه جنكيز خان إلى ذلك، وفتحت أبوابها رابع ذي الحجة سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م [٣٧].

ودَخلَ جنكيز خان المدينة بنفسه، ومرَّ أمام مسجد هاشم فدخله ممتطياً جواده، وسأل عما إذا كان هذا هو قصر السلطان، فلما قيل له إن هذا إنما هو بيت الله، نزل إلى أرض المسجد وصَعد المنبر، وصاح قائلاً بأعلى صوته: لقد قطع العلف، أعط الخيل طعاماً. وقد فهم المغول من هذه العبارة، أن جنكيز خان يشير إلى جنده بأن ينهبوا المدينة، وقد حمل المغول إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوي نسخاً كثيراً من القرآن الكريم، وقعت تحت حوافر الخيل [٣٨].

وقد اعتبر بعض المؤرخين المسلمين أن المغول أهانوا الدين الإسلامي، بتمزيقهم المصاحف، وبإحضارهم قِرب الخمر إلى المسجد، وإحضار المغنيين من المدن المختلفة، وقيامهم بشرب الخمر وممارسة المجون والغناء بالمساجد!؟ وهذا ظن قاصر، وحكم خاطيء، فما تلك التصرفات بالتي تُسيء للدين الإسلامي، وإنما هي تُسيء بالتأكيد لفاعليها، وبالتبعية لمن تسبب في وقوعها، خاصة إن كان من المسلمين، لسوء تصرفهم، أو تخاذلهم حتى يكونوا في موضع الضعيف

المخذول، الذي يضعف عن حماية أعز ما لديه، وهو مسجده وكتابه!؟ أما الدين الإسلامي نفسه فهذا شيء معنوي لا يملك أحد الإساءة إليه، لأنه ليس شيئاً مادياً ملموساً، فالدين عقيدة وعمل، ولا يملك أحد النيل من عقيدة أحد مهما فعل، فهي في قلبه، وأيضاً عمل الإنسان بخصوص الدين، هو في أدائه مادياً، إلا أنه يتم بعقيدة وتصديق عقلي خارج السيطرة، فلا يملك أحد الإساءة إليه، في الناحية العقائدية، وهذا جوهر الدين.

وقد كان أعيان البلد من المسلمين، وكبار الأئمة، يقومون بخدمة الجند في مجالس الشراب، أو يؤدون لهم الرقصات وفق رسم المغول على توقيع الآلات الموسيقية، وكان من هؤلاء الفقهاء الأجلاء من دفع به كذلك ليسوس البغال [٣٩].

وخرج جنكيز خان بعد ذلك وجَمعَ سكان المدينة وطَلَب منهم أن يُعيِّنوا لهم أكثر هذا الجمع ثراء، فعيَّنوا له مائتين وعشرين بينهم ثمانون من الأغراب، فطلب منهم أن يقتربوا منه، وأخذ يتحدث إليهم، وبعد أن بَيَن لهم أن الغرض من حملته هو أن يثأر من السلطان الخوارزمي قال:

لقد ارتكبتم خطأً فاحشاً، وإن الرؤساء هم المجرمون، وإذا سألتموني عن نفسي قلت لكم إنني نقمة الله على الأرض، فإذا لم تكونوا مجرمين فإن الله ما كان يَسمح لي بأن أعاقبكم [٤٠].

وبعد أن فرغ جنكيز خان من حديثه أمرهم أن يُخرجوا كنوزهم المدفونة، وألا يبالوا بما ليس مدفوناً، لأنه يستطيع أن يعثر عليه، وقد ترك جنكيز خان كل رجل من هؤلاء الأغنياء في حراسة رجل مغولي، على أنه وجد أن هناك أربعمائة فارس خوارزمي لم يَخرجوا من المدينة مع سائر رجال الحامية، فأرغمهم على الالتجاء إلى القلعة، وقد جنَّد المغول من سكان المدينة من يقدر على حمل السلاح وساروا إلى القلعة وحاصروها، وأحاط بالقلعة ونادى في البلدان أن لا يتخلف أحد ومن تخلف قُتل. فأُحضروا بأجمعهم وأمرهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والتراب وغير ذلك، حتى كان التتار يأخذون المنابر وربعات القرآن

فيلقونها في الخندق، وبعد أن أحدثوا في حوائطها عدة ثغرات دخلوها، وحينئذ لم يتركوا فيها شخصاً واحداً على قيد الحياة، على أن هذه الحامية الصغيرة دافعت عن نفسها بكل شجاعة أحد عشرة يوماً، وقَتلت عدداً كبيراً من المغول، كما قَتلت عدداً كبيراً من السكان الذين استُخْدموا في الحصار [٤١].

ثم قاتل هؤلاء الفرسان حتى قُتلوا عن آخرهم، وملك جنكزخان القلعة، فلما فَرَغ من أمر القلعة أمر بجمع رؤساء البلد، فجُمعوا وعُرضوا عليه فقال لهم: أريد منكم النقرة التي باعدم خوارزم شاه فإنها لي وأُخذت من أصحابي فأحضر كل من كان عنده شيء منها ما عنده، ثم أمرهم بالخروج من البلد مُجردين فخَرجوا، ليس مع أحدٍ منهم غير ثيابه التي عليه [٤٢].

ثم دَخل المغول المدينة فأعملوا فيها النهب وقتلوا من صادفهم من السكان، فقَتلوا من أهلها خلقاً لا يَعلمهم إلا الله عز وجل. فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، وأحاط جنكيز خان بمن بقي من المسلمين، فأمر أصحابه أن يقتسموهم، فاقتسموهم، فكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرقوا في أيدي المغول عبداً وإماءً [٤٣].

وأشعل المغول النار في المدينة فاحترقت بأسرها، إذ أن معظم مبانيها كانت من الخشب، ولم يبق من مباني المدينة إلا تلك المبنية من الآجر، وأخيراً نزح من بقي من أهلها إلى إقليم خُراسان، وهكذا شرد المغول أهالي مدينة بخارى الذين اشتهروا بولعهم بالعلوم والفنون، ومما هو جدير بالذكر أن أحد سكان هذه المدينة لما وصل إلى إقليم خُراسان، عبَّر عما أحدثه المغول في مدينته في هذه العبارة القصيرة التي الصادقة: أتوا فخربوا وأحرقوا وقتلوا ونهبوا ثم ذهبوا [٤٤].

وقد تحولت مدينة بخارى إلى أطلالٍ بالية، واستمرت على هذا النحو حتى أخذ جنكيز خان نفسه في إصلاحها وإعادة بنائها، قبل موته بزمن قصير [٤٥].

اجتياح المغول لسمرقند ٦١٧هـ

بعد أن دمر التتار مدينة بُخارى العظيمة، وأهلكوا أهلها وحرقوا ديارها ومساجدها ومدارسها انتقلوا إلى سمرقند، وهي أيضاً في دولة أوزبكستان الحالية، واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من أسرى المسلمين من مدينة بخارى، فساروا بهم على أقبح صورة، فكل من أعيى وعجز عن المشي قُتل [٤٦].

وكان التتار يصطحبون الأسارى معهم لأسباب كثيرة منها:

١. كانوا يعطون كل عشرة من الأسارى عَلماً من أعلام التتار يَرفعونه، فإذا رآهم أحد من بعيد ظن أنهم من التتار، وبذلك تكثر الأعداد في أعين أعدائهم بشكل رهيب، فلا يتخيلون أنهم يحاربونهم، وتبدأ الهزيمة النفسية تدب في قلوب من يواجهونهم.

٢ـ كانوا يُجبرون الأسارى على أن يُقاتلوا معهم ضد أعدائهم، ومن رفض القتال أو لم يُظهر فيه قوة قُتلوه.

٣ـ كانوا يجعلونهم دروعاً بشرية، عند لقاء المسلمين، فيضعونهم في أول الصفوف، ويختبئون خلفهم، ويُطلقون من خلفهم السهام والرماح وهم يحتمون بهم.

٤. كانوا يقتلونهم على أبواب المدن لبث الرعب في قلوب أعدائهم، وإعلامهم أن هذا هو المصير الذي ينتظرهم إذا قاوموا التتار.

٥ـ كانوا يبادلون بهم الأسارى في حال اسر الرجال من التتار في القتال، وكان هذا قليل، لقلة الهزائم في جيش التتار[٤٧].

كانت سمرقند من أكبر مدن بلاد ما وراء النهر وأعظمها على الإطلاق، فهي حاضرة هذا الإقليم، وكانت إلى جانب ذلك مركزاً مهماً للتجارة، ولذلك أُحيطت بأسوار ضخمة، يعلوها عديد من الأبراج، للدفاع عنها، وكانت حاميتها عندما فر منها محمد خوارزمشاه غرباً، تتألف من خمسين ألف مقاتل من الخوارزمية، وقيل اربعين ألفاً [٤٨].

وكان جنكيز خان على علمٍ بكل هذه الاستعدادات الدفاعية، لذا وضع خطته الأصلية على أساس أنه سيخوض عند أسوارها حرباً شديدة قاسية، فرتب أموره على أن تلتقي كل قواته، والتي بدأ بها غزو بلاد ما وراء النهر من شرق أترار، عند سمرقند، واصطحب معه عدداً كبيراً من أسرى بُخارى ليستعين بهم في عملية الحصار [٤٩].

ولما بلغ مشارف سمرقند وجد أن جنوده من الكثرة بحيث أنه استغنى عن ثلاثين ألف منهم، عهد إليهم بمطاردة الأمير علاء الدين محمد خوارزم شاه. ومهَّد جنكيز خان للاستيلاء على سمرقند بإخضاع جميع المناطق التي كانت تحيط بها إخضاعاً يتعذر معه أن يستفيد خصومه منها أثناء حصاره لها، ونَجح في تحقيق هذه الغاية [٥٠].

وكان الخان المغولي يقدر أن حصن المدينة لن يتيسر له فتحه قبل بضعة سنوات، مستنداً في هذا الاعتقاد إلى ما أبداه قائدا حاميتهما من ضروب الشجاعة، فضلاً عما أنزلاه بقوات المغول من خسائر، لكنه رأى أن يتولى بنفسه قيادة الهجوم على هذه المدينة [٥١].

فحالفه النجاح في الاستيلاء على بعض أبوابها، فبينما رأت أكثرية الحامية التي تنحدر من أصل تركي ضرورة التسليم، رأى الفريق الآخر ضرورة القتال، وارتدوا إلى القلعة محاربين [٥٢].

ووافق جنكيز خان على فكرة التسليم، ووعد هؤلاء الأتراك بأنهم سيدخلهم في جيشه، لذا خرجوا إليه مع عائلاتهم، وانضموا إلى عسكر المغول، وأراد جنكيز خان أن يؤكد وعوده، فأمر بحلق شعورهم على عادة المغول، غير أنهم ما كاد المساء يُقبل حتى قتلوا مُنهم ثلاثين ألفاً من أبرزهم أمراؤهم [٥٣].

وكان من أكثر ذلك أن أيقن أهل المدينة ومن بقي من أفراد حاميتها بالهلاك، فأوفدوا في اليوم الرابع للقتال قاضي المدينة وبعض علمائها، يَعرضون على جنكيز خان التسليم، مشترطين أن يُأمنهم على حياتهم، فأجابهم الخان إلى ما طلبوا، وحينئذ فُتحت الأبواب، على أن المغول لم يرعوا عهدهم، فقد نادوا في

البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه! فخرج جميع من به من الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل سمرقند كفعلهم مع أهل بخارى، من النهب والقتل والسبي والفساد، ثم وضعوا السيف فيمن لم يَخرج، ونهبوا ما في البلد، ثم أحرقوا الجامع وتركوا البلد على حاله، وذلك في العشر من المحرم سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، وأرغم جنكيز خان القادرين من أهل سمرقند على حمل السلاح جنوداً في صفوف المغول، وبَعث مهرة البستانيين من أهلها إلى قراقورم، لتزيينها بمنتزهات على نحو مغاني سمرقند [٥٤].

كما ألحق مهرة الصناع وبخاصة نساجو الحرير والقطن بخدمة زوجات جنكيز خان وأقربائه كرقيق، وسيَّر بعضهم مع الخان إلى خُراسان. وسَمَح لخمسين ألفاً من السكان بالعودة إلى المدينة، بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية، وقدها ابن العبري الفدية بمائتي ألف دينار، قام بجمعها اثنان من كبار رجال سمرقند، وهكذا تم استيلاء المغول على هذه المدينة في المحرم سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م [٥٥].

ولكي نُدرك ما حلَّ بحاضرة بلاد ما وراء النهر إثر الغزو المغولي نورد ما ذكره شانج شون، وهو أسقف صيني صحب جنكيز خان في غزواته وكتب مؤلفاً بالصينية عن هذه الرحالة، فقد ذكر أن مدينة سمرقند كانت قبل اكتساح الدولة الخوارزمية تضم أكثر من مائة ألف أسرة، ولكن بعد استيلاء المغول على هذه المدينة لم يَبق فيها سوى ربع عدد سكانها، وذكر أن كثيرين من العمال الصينيين انتشروا في هذه المدينة، ورغم أن الممتلكات ظلت في أيدي المسلمين فإن إدارتها كانت تحت إشراف جيش الاحتلال المغولي [٥٦].

وبعد سقوط عاصمة السلطان محمد، سمرقند، وهروب الشاه الخوارزمي من وجه القوات المغولية، أصبحت أراضي الأسرة الخوارزمية مفتوحة على مصراعيها دون حامٍ ضد قوات جنكيز خان التي أصبحت حرة تسير عبرها طولاً وعرضاً دون أن تجد مُعارضاً لها، لذلك فلا عجب أن نجد المدن والمقاطعات تتساقط، واحدة تلو الأخرى في أيدي القوات المغولية المنتصرة الزاحفة. وما أن قارب فصل ربيع

ذلك العام حتى أكمل المغول فتحهم لجميع أراضي السلطان محمد في إقليم ما وراء النهر، من مدينة جند في الشمال إلى بخارى وسمرقند في الجنوب، فبناكت وخنجد في الوسط [٥٧].

وهكذا بانهيار جميع بلاد ما وراء النهر انهارت خطوط الدفاع التي اعتمد الجيش الإسلامي عليها، وتيسر للمغول بعد ذلك الاستيلاء على أقاليم شرق الدولة الإسلامية الباقية من غير عناء [٥٨].

مواصلة علاء الدين خوارزم شاه للهروب

لما ملك جنكزخان سمرقند، اتصل الخبر بالسلطان وهو مُقيم بحدود كتلف وأندخوذ، يَنتظر وصول الجموع المتفرقة إليه من الجهات. فعَبرَ جيحون وقد أيس من بلاد ما وراء النهر، وفارقه إلى التتار من الأتراك عشيرة أخواله زهاء سبعة آلاف من الخطايية، واتصل علاء الدين صاحب قندز وغيره بجنكزخان وأخذ الناس في التخاذل والتسلل، فلما اتصلت هذه الجموع بجنكزخان عرَّفوه بمكان السلطان علاء الدين خوارزم شاه، وبما هو عليه من الوجل، وبما داخله من الخوف [٥٩].

ورَحل السلطان علاء الدين خوارزم شاه، من حافة جيحون إلى نيسابور، إحدى مدن خُراسان، وتسلل عنه الناس فلم يُقم بنيسابور إلا ساعة من نهار، إذ بلغه أن المغول قد عبروا نهر جيحون، وأصبحوا على مقربة منه، وأنهم يجدون في البحث عنه، فلم يكن في وسعه حينئذ إلا أن يغادر نيسابور ويأخذ طريقه شطر العراق العجمي، واستطاع المغول على مقربة من الري أن يوقعوا بجيش خوارزمشاه الرئيس، الأمر الذي جعل الأمير الخوارزمي يفكر في الالتجاء إلى خليفة بغداد رغم ما بينهما من عداء، فسار حتى نزل بمرج دولت أباد، وهي من أعمال همذان [٦٠].

وأقام السلطان علاء الدين خوارزم شاه، أياماً يَسيرة ومعه زهاء عشرين ألف فارس، فلم يَرعه إلا صيحة الغارة وإحداق خيول التتار به، فقاتلهم بنفسه، وشمل

القتل كل من كان في صحبته، ونجا السلطان في نفر يسير من خواصه إلى وقصدوا نيسابور، فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر، فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها [٦١].

ما فعلته طائفة المغربة من التتار

لما ملك جنكزخان سمرقند جهز ٣٠٠٠٠٠ الف فارس من أصحابه، في طلب خوارزم شاه حيث كان. وقال لهم: اطلبوا خوارزم شاه أين كان، ولو تعلق بالسماء، حتى تدركوه وتأخذوه. وهذه الطائفة تسميها التتار المغربة، لأنها سارت نحو غرب خُراسان لِيَقع الفرق بينهم وبين غيرهم، لأنهم الذين أوغلوا في البلاد وكان المقدم على هذه الطائفة سبطى بهادر ويمنويه، فساروا وقصدوا موضعاً يُسمى بنج آب ومعناه خمس مياه، فلم يجدوا سفينة، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار، وألبسوها جلود البقر، ووضعوا فيها أسلحتهم وأمتعتهم. وألقوا الخيل في الماء، وأمسكوا أذنابها وشدوا تلك الحياض إليهم، فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض، وفي شهر ربيع الأول من سنة ٦١٧هـ/ مارس ١٢٢٠م، عَبرت الجيوش المغولية كلها نهر جيحون دَفعة واحدة، فلم يَشعر خوارزم شاه إلا وقد صاروا معه في أرض واحدة. وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعباً وخوفاً، وحصل بينهم اختلاف، فكان ثباتهم بسبب أن نهر جيحون فاصل بينهم وبين التتار [٦١].

لقد كان للضربات التي أنزلها المغول ببعض أجزاء الدولة الخوارزمية، والتي انتهت بسقوط حصون ومدن أترار وبجند وبنكت وخجندة وبخارى، وغيرها، كان لها تأثير بالغ في نفس علاء الدين محمد خوارزمشاه، لذلك فإنه بعد وصوله إلى سمرقند من بخارى، عزم على الرحيل إلى مكان أمين، يرتب فيه أوراقه، ويَبحث في إمكانية التصدي لهذا العدو، لذا عقد في سمرقند مجلساً ضم وزراءه وكبار قواده، للبحث فيما يمكن عمله تجاه وقف تقدم هذا العدو في بلادهم، فأظهر هذا الاجتماع اتجاهان: الأول يَرى عدم جدوى الدفاع عن بلاد ما وراء النهر، ويجب أن يركز الخوارزميون اهتمامهم على حماية الأقاليم التي تقم

غربي جيحون. وثانيها يُفضل الإنسحاب جنوباً إلى غزنة، وقد استصوب خوارزم شاه الرأي الأخير [٦٢].

وأقام السلطان علاء الدين خوارزم شاه، أياماً يَسيرة ومعه زهاء عشرين ألف فارس، فلم يَرعه إلا صيحة الغارة وإحداق خيول التتار به، فقاتلهم بنفسه، وشمل القتل كل من كان في صحبته، ونجا السلطان في نفر يسير من خواصه إلى وقصدوا نيسابور، فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر، فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها.

وكانوا لا يتعرضون في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل، كما أمرهم جنكيز خان، بل جدوا في السير طلبا لخوارزم شاه علاء الدين، فلا يُمهلونه حتى يَجمع لهم رجاله، فلما سَمع بقربهم منه رحل منها إلى الاستنداد، وهي أمنع ناحية في مازندران، ذات دربندات ومضايق، فلما رأوا خوارزم شاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر، فلما أيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا، فهم الذين قصدوا الري وما بعدها، أما علاء الدين حوارزم شاه، فقد انتقل من الاستنداد إلى حافة البحر، وأقام عند الغرضة بقرية من قُراها، يَحضر إلى المسجد فيُصلى به إمام القرية الصلوات الخمس ويَقرا له القرآن، وهو يبكي وينذر النذور ويُعاهد الله تعالى بإقامة العدل. ولم يزل كذلك إلى أن كبسه التتار فحين هجموا الضيعة ركب السلطان المركب، وخاضت خلفه طائفة فصدهم عمق الماء عن لحوقه، فلم يُدركوه وابتلعهم البحر [٦٣].

وكان السلطان علاء الدين خوارزم شاه، لما ركب المركب وساق به أصحابه كان به علة ذات الجنب، فكان ذلك مما آيسه من الحياة، وهو يُظهر الاكتئاب، ويقول: سبحان الله مالك الملوك، لم يبق لنا من مملكتنا مع سعتها قدر ذراعين ندفن فيها، فاعتبروا يا أولي الأبصار. فلما وصل الجزيرة سُر بذلك فرح بذلك كثيراً، وكأنه كان لا يصدق أن يصل إلى البر، فأقام بها فريداً طريداً والمرض يزداد به.

وكان في أهل مازندران ناس يتقربون إليه بالمأكول والمشروب وما يُشبهه،

فقال في بعض الأيام: أشتهي أن يكون عندي فرس يرعى حول خيمتي هذه - وقد ضربت له خيمة صغيرة - فلما سمع تاج الدين حسن وكان من جملة سرهنكيته أهدى إليه فرساً أصفر قال: وكانت جشارات خيله تنيف على ثلاثين ألف جشار متفرقة في ممالكه! [٦٤].

وكان هذا السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه في أيام مجده، قد ضم إليه ثلاثين ألف فارس، فكان يقول: إن المرتب معي ثلاثون ألف فارس ولو شئت جعلتها ستين ألفاً، من غير أن أتكلف صرف دينار أو درهم، وذلك أنني أستدعي من كل جشار من جشارات خيل السلطان جوباناً واحداً، فينيفوا على ثلاثين ألفاً، وها هو الآن في القلة والذلة وسبحان الله، رب مصير غيره أرذل من مصيره، فهذا آل إلى السوء من هجوم أعدائه، ولا نعفيه من المسئولية والتقصير، وإن كان الطوفان أكبر من قوته، أما غيره فقد انتقم الله منه بيد شعبه بعد أن فقد القدرة على تحمل جبروت وفساد وظلم هذا الحاكم الجبار، وصدق الشاعر العظيم بشار بن برد:

إن الملك الجبار إذا صعَّر خَده　　　مَشينا إليهِ بالسيوفِ نُعاتبه

وكان من حَمل إلى خوارزم شاه شيئاً من المأكولات وغيره في تلك الأيام المريرة، كَتب له توقيعاً بمنصب جليل وإقطاع طايل، فربما كان الرجل يتولى كتابة التوقيع لنفسه لعدم من يكتب عند السلطان. وكانت هذه التَّواقيع تُسمى التواقيع الجزيرية. فلما ظهر أمر جلال الدين أُحضرت إليه التواقيع فأمضاها بكمالها، ومن كان معه منديل أو سكين علامة من السلطان بإقطاع أو غيره قَبلها جلال الدين وأَمضى حكمها [٦٥].

وظل خوارزم شاه في هذه القرية إلى أن انكشف أمره، وهاجم التتار موضعه، وعندئذ ركب البحر إلى قلعة أمينة في إحدى جزر بحر الخزر تدعى جزيرة: أوغر تشالي، أو جيركن الحالية، وقد رمى المغول زورقه بالسِّهام، فلما أخطأته تحمس بعضهم فسبح خلفه حرصاً على أخذه، فغَرقوا، ووصل خوارزمشاه لمأمنه عليلاً [٦٦].

وفاة السلطان علاء الدين خوارزم شاه

كانت وفاة السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش بالجزيرة في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م. وذلك أنه لما استقر بالجزيرة اشتدت به علة ذات الجنب فمات، وغَسّله شمس الدين محمود بن يلاغ الجاوش، ومقرب الدين مهتر مهتران مقدم الفراشين، ولم يكن عنده ما يكفن فيه فكفنه شمس الدين محمود المذكور بقميصه، ودفن بالجزيرة، فكانت مدة سلطنته إحدى وعشرين سنة.

ولما أحس علاء الدين أن المرض يشتد عليه يوماً بعد يوم، وأن أمه تركان خاتون قد وقعت أسيرة في أيدي المغول، استدعى أبناءه جلال الدين منكبرتي وأزلاغ شاه، وآق شاه، ووكل أمور دولته إلى ابنه جلال الدين، بعد أن أعلن أنه الوحيد الذي يستطيع حماية الدولة الخوارزمية [٦٧].

وكان له من الأولاد خمسة وهم جلال الدين منكبرتي، وقطب الدين أزلاغ شاه، وآق شاه، وركن الدين غور شايجي، وكان بالعراق، وغياث الدين بير شاه [٦٨].

مرور المغول على الري وهمذان وقزوين

وصلت القوات المغولية إلى الري، على حين غفلة من أهلها، وكانت الحالة الداخلية فيها خير مُعين لهم للإستيلاء عليها، فقد اختلف أصحاب المذاهب الإسلامية الأربعة في تفسير بعض نصوص القرآن الكريم، لضيق أُفقهم وقلة ورعهم، وانضم أصحاب المذهبين الحنفي والشافعي بعضهما إلى بعض، ووقفا في وجه أنصار المذهب الحنبلي والمذهب المالكي، وقد أراد قاضي قُضاة الشافعية، الذي لا أظنه قاضياً بل بلطجياً وزنديقاً، هو وبقية هؤلاء المدّعون الفقه، أراد هذا المدّعي أن ينتقم من خصومه، ففتح بابين منابواب المدينة للتتار فدخلوا منهما، فقتلوا أعداءه الذين يمثلون نصف أهل البلد، ثم ما لبثوا أن تحولوا بالقتل على أصحاب القاضي الشافعي، وقالوا إنهم لا يمكنهم التعاون مع من خانوا إخوانهم

في الدين، ووالله ما أساء التتار في قولتهم، واستولوا على مدينة الري، فعاثت فيها نهباً وسلباً، فكان لسقوط هذه المدينة من الأثر النفس السلبي ما لا يُقدر على المسلمين عامة، وعلى الخوارزميين خاصة [٦٩].

ولم يقم المغول في الري بعد استيلائهم عليه، بل أسرعوا في أثر خوارزمشاه ينهبون ويقتلون، ولا يُبقون على شئ فيها، وفعلوا في الجميع أضعاف ما فعلوا في الري، وأحرقوا، وخربوا ووضعوا السيف في الرجال والنساء والأطفال، ومضوا في طريقهم لمطاردة خوارزم شاه، فلما قاربوا همذان خَرج رئيسها ومعه الحمل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك، يَطلب الأمان لأهل البلد، فأمنوهم. ثم فارقوها، ومرو بزنجان فاكتسحوها، ثم اتجهوا إلى مدينة قزوين فتصدى لهم أهلها، واعتصموا بمدينتهم، وأخذوا يذودون عنها في قتال عنيد، واقتتل التتار وأهل البلد في باطنه حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين، وقُتل من الفريقين ما لا يُحصى، فزادت القتلى من أهل قزوين على أربعين ألف قتيل ثم فارقوا قزوين [٧٠].

ثم اتجه المغول إلى إقليم أذربيجان، وقبل أن يصلوا إلى عاصمة الإقليم، مروا مروا بمدينة سنجار فنهبوها وقتلوا كثيراً من أهلها، ثم ساروا إلى قوس فامتنع أهلها عنهم، ولم يزالوا يحاصرونها حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها. ولما وصلوا إلى مدينة تبريز عاصمة أزربيجان، صانعهم صاحبها أوزبك بن البهلوان، وقدَّم لهم كثيراً من الهدايا، متمثلة في المال والثياب والدواب، وأعلن تبعية بلاده لهم [٧١].

مسير التتار إلى أذربيجان وقتالهم مع الكرج

لما هجم الشتاء على التتار بهمذان وبلد الجبل، وترادفت الثلوج ساروا إلى أذربيجان، وعاثوا في طريقهم ونَهبوا وخربوا ما مروا عليه من المدن الصغار والقرى، على عادتهم، ثم توجهوا يريدون ساحل البحر. لأنه يكون قليل البرد، ليشتوا عليه والمراعي به كثيرة لأجل دوابهم، فوصلوا إلى موقان وتطرقوا في مسيرهم إلى بلاد الكرج، فجاء إليهم من الكرج نحو عشرة آلاف، فالتقوا واقتتلوا

فانهزمت الكرج، وقُتل أكثرهم [٧٢].

فأرسل الكرج إلى أزبك صاحب أذربيجان يَطلبون منه الصلح، والاتفاق على دَفع التتار، فاتفقا على أنه إذا انحسر الشتا لقوهم. وراسلوا الملك الأشرف بن العادل صاحب خلاط وديار الجزيرة في ذلك، وظنوا جميعهم أن التتار لا يتحركون إلى انقضاء فصل الشتاء، وحددوا بدء الهجوم بفصل الربيع، وظنوا جميعهم أن التتر يصبرون في الشتاء إلى الربيع، فلم يفعلوا ذلك، بل تحركت جيوش التتار وساروا نحو بلاد الكرج، مأملين وممنين أنفسه بالغنائم العظيمة من إقليم جرجَية، فقد فطنوا إلى ما يُدبر ضدهم، وعَمدوا إلى القيام بهجوم على هذه القرى، وانضاف إليهم مملوك تركي من مماليك أوزبك، اسمه أقوش، وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم، فاجتمع معه خلق كثير.

وراسل أقوش هذا أُمراء التتر في الانضمام إليهم، فأجابوه إلى ذلك، ومالوا إليه للجنسية، فاجتمعوا وساروا في مقدمة التتر إلى الكرج، فملكوا حصناً من حصونهم وخرَّبوه، ونهبوا البلاد وخربوها، وقتلوا أهلها، ونهبوا أموالهم، حتى وصلوا إلى قرب تفليس، فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها إليهم، فلقيهم أقوش الاً فيمن اجتمع إليه، فاقتتلوا قتالاً شديداً صبروا فيه كلهم، فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير، وأدركهم التتر وقد تعب الكرج من القتال، وانهكتم رجال أقواش، وقُتلوا منهم الكثير، فلم يثبتوا للتتر، وانهزموا أقبح هزيمة، وركبهم السيف من كل جانب، فقُتل منهم ما لا يُحصى كثرة، واستولوا على حصون جورجيا وخرَّبوها، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م [٧٣].

ملك التتر لمدينة مراغة

في صفر سنة ٦١٨هـ، ملك التتر مدينة مراغة، بعد خروجهم من أذربيجان، وقد انقضت سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، وهم في بلاد الكرج، فلما دخلت سنة ٦١٨هـ، ساروا من ناحية الكرج لأنهم رأوا أن بين أيديهم شوكة قوية، ومضايق تحتاج إلى قتال

وصراع، فعدلوا عنهم، وهذه كانت عادتهم، إذا قَصَدُوا مدينة ورأوا عندها امتناعاً عدلوا عنها، فوصلوا إلى تبريز، فصانعهم صاحبها بمال وثياب ودواب، وتعهدوا بدفع جزية كبيرة، فساروا عنه إلى مدينة مراغة، وهي من أكبر مدن هذا الإقليم، فحصروها وليس بها صاحبٌ يمنعها، لأن صاحبها كانت امرأة، وهي مقيمة بقلعة رويندز.

فلما حصروها قاتلهم أهلها، فنصبوا عليها المجانيق، وزحفوا إليها. وكانت عادتهم إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يَزحفون ويقاتلون، فإن عادوا قَتلوهم، فكانوا يُقاتلون كُرهاً، وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتل في المسلمين الأسارى، وهم بنجوة منه [٧٤].

فأقاموا عليها عدة أيام، ثم ملكوا عنوة وقهراً في الرابع من صفر، سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، ووضعوا السيف في أهلها، فقتل منهم ما يَخرج عن الحد والإحصاء، ونَهبوا كل ما يَصلح لهم، وما لا يَصلح لهم أحرقوه، واختفى بعض الناس منهم، فكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم: نادوا في الدرب أن التتر قد رحلوا. فإذا نادى أولئك خرج من اختفى فيُؤخذ ويُقتل. فكانت حيلهم شيطانية، تُناسب ميولهم الدموية، وتتناسب مع هذا التخاذل العجيب، الذي سرى في أوصال العالم الإسلامي في هذا الزمان [٧٥].

ولقد وصل تخاذل المسلمين درجة أن امرأة من التتر دخلت داراً وقتلت جماعة من أهلها، وهم يظنونها رجلاً، فوَضَعت السلاح وإذا هي امرأة، فقتلها رجل أخذته أسيراً، وقيل أن رجلاً من التتر دخل درباً فيه مائة رجل، فما زال يَقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم، ولم يمد أحدٌ يده إليه بسوء، وَوُضِعت الذلة على الناس، فلا يَدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيراً، نعوذ بالله من الخذلان.

ثم رحلوا عنها نحو مدينة إربل، ووصل الخبر بذلك إلى الموصل، وبلاد الشام، فخافوا أن يتحول التتار إلى العراق العربي، حتى إن بعض الناس همَّ بالجلاء خوفاً من السيف، وجاءت كُتب مظفر الدين، صاحب إربل، إلى بدر الدين، صاحب الموصل، يَطلب منه نجدة من العساكر، فسيَّر إليه جمعاً من عَسْكَره،

وأَراد أن يَمضيَ إلى طرف بلاده من جهة التتر، ويحفظ المضايق لئلا يجوزها أحد، فإنها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر أن يجوزها إلا الفارس بعد الفارس، ويمنعهم من الجواز إلي [٧٦].

ولقد انزعج الخليفة الناصر أخيراً، حين علم بزحف المغول على مدينة إربل، بعد أن أخذ المغول مدينة مراغة ودمروها، وكان يلي إمارة إربل حينئذ مظفر الدين كوكبري من قبل خليفة بغداد، فقد خشي الناصر أن يتجه قواد المغول إلى العراق العربي عن طريق دقوقا بدلاً من إربل، بعد أن يكتشفوا وعورة مسالكها، وصعوبة الوصول إليها، لذا بعث برسل تحمل أوامره إلى كل من مظفر الدين كوكبري صاحب إربل، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، يَأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر، فإنهم ربما عدلوا عن جبال إربل، لصعوبتها، إلى هذه الناحية، فيطرقون العراق، فسار مظفر الدين من إربل في صفر، وسار إليهم جمعٌ من عسكر الموصل، وتبعهم من المتطوعة كثير، فمهما يبدوا من تخاذل، لم يكن العالم الإسلامي قد فرغ تماماً من الشجعان الشرفاء [٧٧].

وارسل الخليفة أيضاً إلى الملك الأشرف موسى، (٥٧٨ - ٦٣٥ هـ = ١١٨٢ - ١٢٣٧ م)، أحد ملوك الدولة الأيوبية بمصر والشام. يَأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقِتالهم، فقال له: إن العدو قوي، وليس لي من العسكر ما ألقاه به، فإن اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد، فأمره بالمسير، ووعده بوصول العسكر، واتفق أن الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الأشرف وهو بحران، يستنجده على الفرنج الذين بمصر، وطَلب منه أن يحضر بنفسه ليسيروا كلهم إلى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج، فاعتذر إلى الخليفة بأخيه، وقُوة الفرنج، وإن لم يتداركها خرجت هي وغيرها ليد الفرنج، وشَرع يتجهز للمسير إلى الشام ليدخل مصر [٧٨].

فسير بدر الدين بعض فرق جيشه إلى دقوقا، وغادر مظفر الدين إربل في صفر

سنة ٦١٨هـ١٢٢١م، مع عساكره وتبعهم جمع كثير من العساكر المتطوعة، أما الملك الأشرف فاعتذر عن الحضور بنفسه في عسكره إلى دقوقا، كما أشرنا [٧٩].

فلما اجتمع مظفر الدين والعساكر بدقوقا سيَّر الخليفة إليهم مملوكه قشتمر، وهو أكبر أمير بالعراق، ومعه عشرة من الأمراء، في نحو ثماني مائة فارس، فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقي عسكر الخليفة. وأسند الخليفة إلى الأمير مظفر الدين كوكبري قيادة القوات الإسلامية، ووعده بمده بالعسكر. فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر. ولم ير المخاطرة بنفسي وبالمسلمين. ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رَجعوا القهقرى، ظناً منهم أن العسكر يتبعهم، فلما لم يَروا أحداً يَطلبهم أقاموا، وأقام العسكر الإسلامي عند دقوقا، فلما لم يروا العدو يقصدهم، ولا المدد يأتيهم، فتَفرقوا، وعادوا إلى بلادهم، سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م [٨٠].

وقَضى المغول الفترة التالية مُتنقلين بين المدن الإسلامية المختلفة في العراق العجمي وأذربيجان وأران وجورجيا، مدمرين مخربين ما بقي من مُدنها، حاملين ما يستطيعون حمله من خيراتها، ثم عَبر القائدان المغوليان المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى بلاد القفجاق وروسيا، وسار المغول بقيادة هذين القائدين إلى بلغاريا وأوصلوا الرعب إلى أقصى حدود أوروبا [٨١].

ملك التتر همذان وقتل أهلها

لما تفرَّق العسكر الإسلامي عاد التتر إلى همذان، فنزلوا بالقُرب منها. وكان لهم بها من يحكم فيها باسمهم، وحسب رأيه وحده، فأرسلوا إليه ليطلب من أهلها مالاً وثياباً، وكانوا قد استنقذوا أموالهم في طول المدة. وكان رئيس همذان شريفاً علوياً، وهو من بيت رئاسة قديمة لهذه المدينة، وهو الذي يَسعى في أمورهم أهل البلد مع التتر، ويوصل إليهم ما يَجمعه من الأموال، فلما طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل همذان ما يَحملونه إليهم. فحضروا عند الرئيس ومعه إنسان فقيه قد قام في اجتماع الكلمة على الكفار قياماً مُرْضياً، فقالوا لهما: هؤلاء الكفار قد أفنوا أموالنا، ولم يَبقَ لنا ما نُعطيهم، وقد هَلكنا من

أخذهم أموالنا، وما يَفعله النائب عنهم بنا من الهوان.

فقال الشريف: إذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة؟ فليس لنا إلا مُصانعتهم بالأموال. فقالوا له: أنت أشد علينا من الكفار! وأغلظوا له في القول، فقال: أنا واحد منكم، فاصنعوا ما شئتم. فأشار الفقيه بإخراج نائب التتر من البلد والامتناع فيه، ومُقاتلة التتر، فوثب العامة على نائب التتار فقتلوه وامتنعوا في البلد، فتقدم التتر إليهم وحصروهم، وكانت الأقوات مُتعذرة في تلك البلاد جميعها، لخرابها، وقَتل أهلها، وجلاء من سَلِم منهم، فلا يقدر أحد على الطعام إلا قليلاً، وأما التتر فلا يبالون بعدم الأقوات لأنهم لا يأكلون إلا اللحم، ولا تأكل دوابهم إلا نبات الأرض، حتى إنها تحفر بحوافرها الأرض عن عروق النبات فتأكلها [٨٢].

فلما حصروا همذان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه يتقدمونهم، فَقُتل من التتر خلق كثير، وجُرح الفقيه عدة جراحات، وافترقوا، ثم خَرجوا من الغد فاقتتلوا أشد من القتال الأول، وقُتل أيضاً من التتر أكثر من اليوم الأول، وجُرح الفقيه أيضاً عدة جراحات وهو صابر. وأرادوا أيضاً الخروج، اليوم الثالث، فلم يُطق الفقيه الركوب، وطلب الناس الرئيس العلوي فلم يَجدوه، كان قد هرب في سرداب صنعه إلى ظاهر البلد هو، وأهله إلى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها [٨٣].

فلما فقده الناس بقوا حيارى لا يَدرون ما يَصنعون، إلا أنهم اجتمعت كلمتهم على القتال إلى أن يموتوا، فأقاموا في البلد ولم يَخرجوا منه.

وكان التتر قد عَزموا على الرحيل عنهم لكثرة من قُتل منهم، فلما لم يَروا أحداً خَرج إليهم من البلد طمعوا واستدلوا على ضعف أهله، فقصدوهم وقاتلوهم في رجب من سنة ثماني عشرة وستمائة، ودَخلوا المدينة بالسيف، وقاتلهم الناس في الدروب، فبطل السلاح للزحمة، واقتتلوا بالسكاكين، فقُتل من الفريقين ما لا يُحصيه إلا الله تعالى، وقوي التتر على المسلمين فأفنوهم قتلاً، ولم يَسلم إلا من كان عمل له نفقاً يَختفي فيه، وبقي القتل في المسلمين عدة

أيام، ثم ألقوا النار في البلد فأحرقوه ورَحلوا عنه إلى مدينة أردويل [٨٤].

مسير التتر إلى أذربيجان وأردويل

لما فرغ التتر من همذان ساروا إلى أذربيجان، فوصلوا إلى أردويل فملكوها وقَتلوا فيها وأكثروا، وخرَّبوا أكثرها، وساروا منها إلى تبريز، وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائي، وجَمع كلمة أهلها، وقد فارقها صاحبها أوزبك بن البهلوان، وكان أميراً متخلفاً، لا يزال منهمكاً في الخمر ليلاً ونهاراً، يَبقى الشهر والشهرين لا يظهر، وإذا سمع هيعة طار مجفلاً له، وله جميع أذربيجان وأران، وهو أعجز خلق الله عن حفظ البلاد من عدو يريدها ويقصدها [٨٥].

فلما سمع بمسير التتر من همذان فارق هو تبريز وقصد نقجوان، وسيَّر أهله ونساءه إلى خوي ليبعد عنهم، فقام هذا الطغرائي بأمر البلد، وجَمع الكلمة وقوى نفوس الناس على الامتناع، وحَذَّرهم عاقبة التخاذل والتواني، وحصَّن البلد بجهده وطاقته، فلما قاربه التتر، وسمعوا بما عليه أهل البلد من اجتماع الكلمة على قتالهم، وأنهم قد حصنوا المدينة، وأصلحوا أسواها وخندقها، أرسلوا يَطلبون منهم مالاً وثياباً، فاستقر الأمر بينهم على قدر معلوم من ذلك، فسيَّروه إليهم، فأخذوه ورَحلوا إلى مدينة سراو فنهبوها، وقَتلوا كل من فيها [٨٦].

ثم رحل التتار عن مدينة سرو إلى بيلقان، من بلاد أران، فنهبوا كل ما مروا به من البلاد والقُرى، وخَرَّبوا، وقتلوا من ظَفروا به من أهلها، فلما وصلوا إلى بيلقان حصروها، فاستدعى أهلها منهم رسولاً يُقرون معه الصلح، فأرسلوا إليهم رسولاً من أكابرهم ومُقدميهم، فقتله أهل البلد، فزحف التتر إليهم وقاتلوهم، ثم إنهم ملكوا البلد عنوة في شهر رمضان سنة ٦١٨هـ، ووضعوا فيهم السيف فلم يُبقوا على صغيرٍ ولا كبيرٍ ولا امرأة، حتى إنهم كانوا يشقون بطون الحبالى، ويَقتلون الأجنة، وكانوا يَفجرون بالمرأة ثم يقتلونها، وكان الإنسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة، فيقتلهم واحداً بعد واحدٍ حتى يَفرغ من الجميع لا يمد أحد منهم إليه يداً.

فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها بالنهب والتخريب، وساروا إلى مدينة كنجة، وهي أم بلاد أران، فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة ذريتهم بقتال الكرج، وحصانتها، فلم يقدموا عليها، فساروا إلى أهلها يَطلبون منهم المال والثياب، فحملوا إليهم ما طلبوا، فساروا عنهم [٨٧].

قصد التتر ببلاد الكرج

لما فرغ التتار من بلاد المسلمين بأذربيجان وأران، بعضه بالملك، وبعضه بالصلح، ساروا إلى بلاد الكرج من هذه الأعمال أيضاً، وكان الكرج قد أعدوا لهم، واستعدوا، وسيَّروا جيشاً كثيراً إلى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها، فوصل إليهم التتر، فالتقوا، فلم يثبت الكرج بل ولوا منهزمين، فأخذهم السيف، فلم يَسلم منهم إلا الشريد.

فبلغ عدد القتلى منهم نحو ثلاثين ألفاً، ونَهبوا ما وصلوا إليه من بلادهم، وخَرَّبوها، وفَعلوا بها ما هو عادتهم، فلما وصل المنهزمون إلى تفليس، وبها ملكهم جمعوا جموعاً أخرى وسيَّرهم إلى التتار أيضاً ليمنعوهم من توسط بلادهم، فرأوا التتار وقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك، فلما رأوا فعلهم عادوا إلى تفليس، فأخلوا البلاد، ففعل التتار فيها ما أرادوا من النهب، والقتل، والتخريب، ورأوا بلاداً كثيرة المضايق والدربندات، فلم يتجاسروا على الوغول فيها، فعادوا عنها، وداخل الكرج منهم خوف عظيم.

قال ابن الأثير: سمعت عن بعض أكابر الكرج أنه قال: من حدثكم أن التتار انهزموا أو أُسروا فلا تُصدقوه، وإذا حُدثتم أنهم قُتِلوا فصدقوا، فإنهم قوم لا يَفرون أبدا، ولقد أَخذنا اسيراً منهم فألقى نفسه عن الدابة وضَرب رأسه بالحجر حتى مات، ولم يُسلم نفسه للأسر [٨٨].

وصولهم إلى دربند شروان

لما عاد التتر من بلد الكرج، وهي تقع في شمالي أرمينية، على البحر الأسود، وكانت تدعى (كرجستان)، قَصدوا دربند شروان، فحصروا مدينة شماخي

وقاتلوا أهلها، فصبروا على الحصر، ثم إن التتار صَعدوا سورها بالسلاليم، وقيل بل جمعوا كثيراً من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك، ومن القتلى منهم ومن غيرهم، وألقوا بعضه فوق بعض، فصار مثل التل، وصعدوا عليه فأشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها، فصبروا، واشتد القتال ثلاثة أيام، فأشرفوا على أن يؤخذوا، فقالوا: السيف لا بد منه، فالصبر أولى بنا نموت كراماً.

فصبوا تلك الليلة، فأنتنت تلك الجيف وانهضمت، فلم يبق للتتار على السور استعلاء، ولا تسلط على الحرب، فعاودوا الزحف وملازمة القتال، فضجر أهلها، ومسهم التعب والكلال والإعياء، فضعفوا، فملك التتار البلد، وقتلوا فيه فأكثروا، ونهبوا الأموال فاحتازوها [٨٩].

فلما فرغوا من دربند شروان، أرادوا عبور الدربند، فلم يَقدروا على ذلك، فأرسلوا رسولاً إلى شروان شاه ملك دربند شروان يقولون له أن يُرسل إليهم رسولاً يَسعى بينهم في الصلح، فأرسل عشرة رجال من أعيان أصحابه، فأخذوا أحدهم فقتلوه، ثم قالوا للباقين: إن أنتم عرفتمونا طريقاً نعبر فيه فلكم الأمان، وإن لم تَفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا. فقالوا لهم: إن هذا الدربند ليس فيه طريق البتة، ولكن فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق، فساروا معهم إلى ذلك الطريق، فعبروا فيه، وخلفوه وراء ظهورهم.

ما فعلوه باللان وقفجاق

لما عبر التتر دربند شروان ساروا في تلك الأعمال، وفيها أمم كثيرة منهم: اللان واللكز، وطوائف من الترك، فنهبوا، وقتلوا من اللكز كثيراً، وهم مسلمون وكفار، وأوقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد، ووصلوا إلى اللان، وهم أمم كثيرة، وقد بلغهم خبر التتار وأفعالهم، فحذروا، وجَمعوا عندهم جمعاً من قفجاق، فقاتلوهم، فلم تَظفر إحدى الطائفتين بالأخرى، فأرسل التتار إلى قفجاق يقولون: نحن وأنتم جنس واحد، وهؤلاء الآن ليسوا منكم حتى تَنصروهم، ولا دينكم مثل دينهم، ونحن نعاهدكم أننا لا نتعرض لكم، ونحمل إليكم من الأموال والثياب ما شئتم وتتركون بيننا وبينهم [٩٠].

فاستقر الأمر بين التتار و قفجاق على مال حمله التتار إليهم، من ثياب وغير ذلك، فحَملوا إليهم ما استقروا عليه، وفارقهم قفجاق، فأوقع التتر باللان، فقتلوا منهم وأكثروا ونَهبوا، وسبوا، وساروا إلى قفجاق وهم آمنون متفرقون لما استقر بينهم من الصلح، فلم يسمعوا بهم إلا وقد طرقوهم ودَخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الأول فالأول، وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم، وسَمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر، ففروا من غير قتال، وأَبعدوا، فبعضهم اعتصم بالغياض، وبعضهم بالجبال، وبعضهم لحق ببلاد الروس.

وأقام التتر في بلاد قفجاق، وهي أرض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف، وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى، وأماكن حارة في الشتاء كثيرة المرعى، وهي غياض على ساحل البحر، ووصلوا إلى مدينة سوادق، وهي مدينة قفجاق التي منها مادتهم، فإنهم على بحر الخزر، والمراكب تصل إليها وفيها الثياب، فيشتري قفجاق منهم ويبيعون عليهم الجواري، والمماليك، والبرطاسي، والقندر، والسنجاب، وغير ذلك مما هو في بلادهم، وبحر الخزر هذا هو بحر متصل بخليج القسطنطينية.

ولما وصل التتر إلى سوادق ملكوها، وتَفرق أهلها منها، فبعضهم صعد الجبال بأهله وماله، وبعضهم ركب البحر وسار إلى بلاد الروم التي بيد المسلمين من أولاد قلج أرسلان السلجوقي [٩١].

ما فعله التتر بقفجاق والروس

لما استولى التتر على أرض قفجاق، وتفرق قفجاق، سارت طائفة كثيرة منهم إلى بلاد الروس، وهي بلاد واسعة طويلة عريضة، تجاورهم، وأهلها يعتقدون بالنصرانية، فلما وصلوا إليهم اجتمعوا كلهم، واتفقت كلمتهم على قتال التتار إن قصدوهم، وأقام التتار بأرض قفجاق مدة، ثم إنهم ساروا سنة ٦٢٠هـ، إلى بلاد الروس،فسمع الروس وقفجاق خبرهم، وكانوا مستعدين لقتالهم، فساروا إلى طريق التتار ليلقوهم قبل أن يَصلوا إلى بلادهم ليمنعوهم عنها، فبلغ مسيرهم إلى التتار، فعادوا على أعقابهم راجعين، فطمع الروس وقفجاق فيهم،

وظنوا أنهم عادوا خوفاً منهم وعجزاً عن قتالهم، فجدوا في اتباعهم، ولم يزل التتار راجعين، وأولئك يقفون أثرهم، اثني عشر يوماً [٩٢].

ثم إن التتار عطفوا على الروس وقفجاق، فلم يَشعروا بهم إلا وقد لقوهم على غِرة منهم، لأنهم كانوا قد أمنوا التتار، واستشعروا القدرة عليهم، فلم تتكامل عدتهم للقتال إلا وقد بلغ التتار منهم مبلغاً عظيماً، فصبر الطائفتان صبراً لم يُسمع بمثله.

ودام القتال بينهم عدة أيام، ثم إن التتار ظفروا واستظهروا، فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة، بعد أن أثخن فيهم التتار، وكثر القتل في المنهزمين فلم يَسلم منهم إلا القليل، ونُهب جميع ما معهم، ومن سَلم وصل إلى البلاد على اقبح صورة لِبُعد الطريق والهزيمة، وتبعهم التتار يقتلون وينهبون ويُخربون البلاد، حتى خلا أكثرها من أهله، فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس وأغنيائهم وحملوا ما يَعز عليهم، وساروا يَقطعون البحر إلى بلاد الإسلام في عدة مراكب.

فلما قاربوا المرسى الذي يُريدونه انكسر مركب من مراكبهم، فغرق إلا أن الناس نجوا، وكانت العادة جارية أن السلطان له كل مركب يَنكسر، فأخذ من ذلك شيئاً كثيراً، وسلم باقي المراكب، وأخبر من بها بهذه الحال [٩٣].

عود التتر إلى ملكهم

لما فعل التتار بالروس ما سبق ذكره، عادوا عنها وقَصدوا بلغار في أواخر سنة ٦٢٠هـ. فلما سَمع بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدة مواضع، وخَرجوا إليهم فلقوهم واستجروهم إلى أن جاوزوا مواضع الكُمناء، فخَرجوا من وراء ظهورهم. وبقي التتار في وسطهم، وأخذهم السيف من كل ناحية، فقُتل أكثرهم ولم ينج منهم إلا قلة تبلغ نحو أربعة آلاف رجل، فساروا إلى سقسين وعادوا إلى ملكهم جنكزخان. وكانت الطُرق منقطعة تتخللهم في البلاد. فلما خلت البلاد منهم اتصلت الطرق وحَمل التجار الأمتعة على عادتهم.

هذا ما فعله التتار المغربة منذ مفارقتهم جنكزخان، وإلى أن عادوا إليه في مدة أربع سنين، فلنذكر أخبار غير هذه الطائفة ممن سيَّرهم جنكزخان [٩٤].

أخبار المغول مع السلطان جلال الدين

تعريف بالسلطان منكبرتي

هو السلطان جلال الدين منكبرتي خوارزم شاه، آخر شاه في خوارزم، تولى من سنة ٦١٧ إلى ٦٢٨هـ، ابن السلطان علاء الدين أبي الفتح محمد ابن تكش، بن ألب أرسلان بن اتسز بن محمد بن انوشتكين. مَلكَ بعد وفاة أبيه في سنة ٦١٧هـ، وذلك أن والده السلطان لما اشتد مرضه بالجزيرة، وبلغه أن والدته قد أُسرت، خلع قطب الدين أزلاغ شاه وآق شاه [١].

وأَحضر ابنه جلال الدين وأخويه الحاضرين بالجزيرة: أزلاغ شاه، وآق شاه، وقال: إن عُرى السَّلطنة قد انفصمت، والدولة قد وهت قواعدها وتَهدمت، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه وتشبثت بالممالك أظفاره، وتعلقت أنيابه، وليس يأخذ ثاري منه إلا ولدي منكبرتي، وهأناذا موليه ولاية العهد. فعليكما بطاعته والانخراط في سلك تباعته. وشد سيفه بيده في وسط جلال الدين، ثم مات بعد ثلاثة أيام [٢].

عودة السلطان جلال الدين إلى خوارزم

لما دُفن السلطان علاء الدين خوارزم شاه بالجزيرة، عبر أولاده الثلاثة جلال الدين منكبرتي، وأزلاغ شاه، وآق شاه، عبروا البحر إلى إقليم خوارزم، ومعهم زهاء سبعين نفساً لقصد خوارزم، فلما قاربوها التقوهم منها بالدواب والأسلحة والأعلام، وتَباشر الناس بمقدمهم واستقبلوا بمظاهر الفرح والسرور إذ كانت حاضرة هذا الإقليم في فوضى مستمرة منذ غادرتها تركان خاتون التي انشغلت بنفسها، وفاتها أن تُعين حاكماً على هذا الإقليم، واجتمع عندهم من العساكر ممن أضمرته البوادي ونقضتهم المجالس والنوادي زهاء سبعة آلاف فارس،

أكثرهم البياووتية ومقدمهم توخى بهلوان الملقب بقتلغ خان، فمالوا إلى أزلاغ شاه للقرابة التي بينهم، وعَزموا على القبض على جلال الدين وقتله أو سمله. فعَلم إينانج خان بما دبَّروه، فأَعلم بذلك جلال الدين وأَشارَ عليه بالرحيل، فرَحل صوب خُراسان في ثلثمائة فارس، مقدمهم دمر ملك، وقَطع المفازة الحاجزة بين خوارزم وخراسان وهي ست عشرة مرحلة في ستة عشر يوماً، وصل بعدها إلى الأراضي القريبة من مدينة نسا [٣].

وكان جنكزخان لما بَلغه عود أولاد السلطان إلى خوارزم وجَّه إليها عسكراً كثيفاً، وتقدم إلى من بخُراسان من عساكره بالتفرق على حافات تلك البرية مترصدين، فضربوا على البرية المذكورة حلقة من تخوم مرو إلى حدود شهرستان، حتى إذا همَّ أولاد السلطان بالمسير إلى خُراسان عند إزعاجهم من خوارزم يَقبضون عليهم. وكان بحافة برية نسا منهم سبعماية فارس، فلما خَرج جلال الدين من البرية صادفهم أمامه، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً كان الظفر فيه لجلال الدين عليهم، فعمَّهم بالقتل، وغَنم ما معهم، ولم يُفلت منهم إلا الشارد. وكان هذا أول مصاف كان بين جلال الدين وبينهم فتقوى بما غنمه منهم ووصل إلى نيسابور، وأما أخواه، فإنهما أقاما بعدهُ بخوارزم ثلاثة أيام [٤].

مقتل أبني السلطان علاء الدين

لم يمر غير ثلاثة أيام على خروج السلطان جلال الدين ابن السلطان علاء الدين خوارزم شاه إلى نيسابور، وتخلف أخوايه بخوارزم، حتى أتاهما الخبر بحركة التتار نحوهم، فخرجا بمن معهما مجفلين إلى صوب خراسان. فلما انتهوا إلى مرج سابغ ونزلوا به، وافتهم الأخبار أن طائفة من التتار أقبلت في طَلبهم، فركب أزلاغ شاه ومن معه ورَحل والتتار في طلبه إلى استوى، بلد خيوشان، وهي كورة يتبعها عدة قرى، فأدركه التتار بقرية تُسمى وشت، فوقف لهم واقتتلوا قتالاً شديداً، كان الظفر أزلاغ شاه عليهم، فَسُرُّوا بذلك، وظَنوا أنه لم يكن من التتار بتلك الناحية غير هذه الطائفة التي انهزمت أمامهم،

واستقروا بتلك المنزلة مطمأنين، فلم يُرعهم إلا وخيول التتار قد أحدقت بهم إحداق الأسورة بالمعصم، فانقلب اليسر عسراً وترادف النصر كسراً [٥].

ولكي يُحاصر جنكيز خان أبناء علاء الدين أزلاغ شاه، وآق شاه ومن معهما، من كل جهة، أمر جيوشه في خُراسان بأن تقف على الحدود الجنوبية للصحراء، التي تَفصل خوارزم عن خُراسان، وقد عسكر سبعمائة فارس بالقرب من مدينة نسا، ولما أرادا الاشتباك معهم حلت بهما الهزيمة، ثم وقعا في الأسر، وقد قطع المغول رأسيهما ورشقوهما في سهمين، ثم طافوا بهما في أنحاء هذه المقاطعة إمعاناً في السخرية بالخوارزميين، وإرهاباً للأهالي المتمردين، وفي هذه الأثناء، وفي ذي القعدة سنة ٦١٧هـ / مايو سنة ١٢٢٠م كان الجيش المغولي يتقدم نحو مدينة خوارزم، حاضرة الإقليم المسمى بهذا الاسم، وتَقع مقربة من مصب نهر جيحون في إقليم صحراوي، إذ لا تجد فيما عدا هذه المدينة وما يُحيط بها من مدن صغيرة وقرى متناثرة إلا أراضٍ صحراوية [٦].

مسير جلال الدين من نيسابور إلى غزنة

أقام السلطان جلال الدين بنيسابور شهراً، بعد خروجه، أو قُل هروبه من خوارزم، يُتابع الرُسل إلى الجهات في الاحتشاد والاستمداد، إلى أن عَلم به المغول فأسرعوا نحوه وأعجلوه عن مُراده، فخَرج من نيسابور في مَنِ انضوىَ إليه من الخوارزمية، إلى أن وصل إلى القلعة القاهرة، وهي التي بناها مؤيد الملك صاحب كرمان بزوزن، فهمَّ أن يتحصن بها، فبَعث إليه عين الملك ختن مؤيد الملك، وهو مستحفظها، يُحذره ذلك، ويقول: إن ملكاً لا يَحسن به أن يتحصن بقلعة، ولو بُنيت على قرن الفرقد أو هامة الجوزاء بل أعلا وأبعد، وحصون الملوك متون الحصن، وما للضراغم وللمدن، ولو تحصنت بالقلعة لأفنت التتار أعمارهم إلى أن ينالوا الغرض [٧].

فأمر السلطان جلال الدين عند ذلك بإحضار ما في القلعة من الذهب فأُحضر، وفَرَّق أكياسه على من صحبه من خواصه، وفَارَق القلعة القاهرة، وجَدَّ

السير إلى تخوم بست فأُعلم أن جنكزخان مقيمٌ بالطالقان بجيوش عظيمة، فتحير في أمره لا يَدري ما يَصنع. ثم خاطر بنفسه واستمر في السير، فبلغه أن أمين ملك وهو ابن خالة متولى هراة ومقطعها بالقُرب منه، وقد أخلى هراة ومعه زهاء عشرة آلاف فارس، والأتراك الذين سلموا من النكبة، فبعث جلال الدين إليه يُعلمه بقُربه ويَحثه على سرعة الوصول إليه، فاجتمعوا واتفقا على كبس التتار المُحاصرين قلعة قندهار، فنَهضا إليهم واوقعا بهم، فلم يَسلم من التتار إلا من وصل بخبرهم إلى جنكزخان وهم نفرٌ يسير، عادوا إليه وهو بالطالقان [٨].

عَرف جنكزخان بما تم على عسكره، فغضب لذلك، وقامت قيامته. وأما جلال الدين فقد ساق حتى أتى غزنة، وكان بها كربر ملك، يَنُوب عنه منذ جَعلها والده له، وقد ضبطها. فوصل إليها جلال الدين في سنة ٦١٨هـ، فَسُرَّ الناس بوصوله، واتصل به: سيف الدين بغراق الخلجي، وأعظم ملك صاحب بلخ، ومظفر ملك صاحب الأيغانية، والحسن قزلق، وهم في زهاء ثلاثين ألف فارس ومعه عسكرهم وعسكر امين ملك مثلها، فاجتمع عنده من الجيوش نحوا من ستين الفاً [٩].

الحرب بين جلال الدين وتولى خان

لما انهزم التتار بقندهار، أرسل جلال الدين إلى جنكزخان رسولاً يقول له في أي موضع يختار أن تكون الحرب حتى يأتي إليه، ولما بَلغ جنكزخان ما حلَّ بعسكره بقندهار، ووصله من أفلت من رجاله من الموت، جرَّد ابنه تولي خان في عسكر كثيف، قوامه نحو إثني عشر الفاً، فلما وصلوا إلى أعمال غزنة، استقبله جلال الدين بنية في الجهاد قوية، وهمة في الإسلام أبيَّة. إلى موضع يُقال له بلق، فلما تراءى الجمعان حَمل جلال الدين بنفسه على قلب تولى خان، فبدَّد نظامه ونثر تحت قوائم الخيل اعلامه، ودامت الحروب بينهم ثلاثة أيام، فانتصر المسلمون وانهزم التتار ثانياً، وألجأه جلال الدين إلى الانهزام، وقتلهم المسلمون كيف

شاؤوا، وتَحكمت في التتار سيوف الانتقام وقُتل تولى خان فيمن قُتل، وكَثُر الأسر في التتار حتى كان الفَراشون يُحضرون أساراهم إلى بين يديه فيدقون الأوتاد في آذانهم تشفياً بهم، وعاد من سلم منهم إلى ملكهم بالطالقان. وكانت شرذمة من التتار قد حاصرت قلعة ولج وضايقتها، فلما بلغهم ما حل بأولئك رَجعوا عنها، وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثيرٌ فاستنقذوهم وخلصوهم [١٠].

الحرب بين جلال الدين وجنكيزخان بجردين

لما عاد من سلم من المعركة التي دارت بين تولي خان وجلال الدين خوارزم شاه إلى جنكزخان، قام بنفسه وعساكره لقصد حرب جلال الدين. واتفق أن العساكر الخلجية فارقوا جلال الدين في ذلك الوقت، صُحبة سيف الدين بغراق، وأعظم ملك، ومظفر ملك. وسبب ذلك أنهم لما كسروا ابن جنكيزخان ببيروان، التي تقع على بعد مسيرة يوم واحد من غزنة، زاحمهم الأتراك فيما أفاء الله عليهم من الغنائم، فاتفق أن بعض الأتراك الأرمينية نازع أعظم ملك في فرس من خيل التتار. وطال بينهما التنازع فضَرَبه التركي بمقرعة، فاشمأزت لذلك نفوسهم ونَفرت قلوبهم، وفارقوا جلال الدين. وساروا إلى الهند، فتبعهم من العسكر ثلاثون ألفاً كلهم يُريدونه، فاستعطف جلال الدين أعظم ملك بكل طريق، وسار بنفسه إليه، وذَّكره الجهاد، وخوفه من الله تعالى، وبكى بين يديه، فلم يَرجع، وسار مُفارقاً، وازداد في عناده، ولم يَنظروا إلى ما يترتب على خلافهم من سوء العواقب فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا [١١].

ولما بَلغ جلال الدين أن جنكزخان قد قاربه بجيوشه، عَلم أنه لا طاقة له بملاقاته بعد مُفارقة هذه الجيوش له، فرأى أن يتأخر إلى حافة ماء السند، ثم يستأنف مُكاتبة من فَارقه، فإن رَجعوا إليه لقيَ جنكزخان بهم وبمن معه من الأتراك. فعاجله جنكزخان عن إمضاء ما دبَّره، وكان جلال الدين قد أصابه قولنج شديد عند خروجه من غزنة ولم يُرد مع ذلك الجلوس في المحفة، ففارق غزنة، ورَكب الفرس تجلداً، فمنَّ الله عليه بالعافية، فورد عليه الخبر أن مُقدمة

جنكزخان نزلت بجردين، فرَكب ليلا وكبس المقدمة فقتلهم ولم يَفته إلا من نجا به فرسه. فلما بلغ جنكزخان هذا الخبر هاله، وجاء جلال الدين إلى مخيمه بحافة ماء السند، وضاق عليه الوقت عما كان يعتزمه من جمع المراكب واسترجاع الكتائب [١٢].

حرب جنكيزخان وجلال الدين بماء السند

وصل جنكزخان إلى حافة ماء السند، وقبل ان يتم لجلال الدين ما يَسعى إليه من استرجاع الأمراء المنشقين عليه، برزت الجيوش الجنكزخانية، فلقيهم جلال الدين واقتتلوا قتالاً شديداً، فحَمل جلال الدين بنفسه على قلب جنكزخان فمزقه، وانهزم جنكزخان وكادت الدائرة تكون عليهم، لولا أن جنكزخان كان قد كمن كميناً فيه عشرة آلاف فارس، فخرجوا على ميمنة جلال الدين: وفيها أمين ملك، فكسروها وطرحوها على القلب، فتبدد نظامه، وتزعزعت صفوفه، وانجلت المعركة عن قتلى مدرجين في دمائهم، وغرقى غاطسين في الماء، فكان الرجل يأتي إلى الماء يهوى بنفسه في تياره، وهو يَعلم أنه غريق لا محالة. وأُسر ولد جلال الدين وهو ابن سبع أو ثماني سنين، فقُتل بين يدي جنكزخان [١٣].

ولما عاد جلال الدين إلى حافة ماء السند كسير النفس، رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يَصحن بأعلى أصواتهن: بالله عليك اقتلنا وخَلصنا من الأسر، فأمر بهن فغُرقن في ماء السند. وأما العساكر الخلجية المفارقة لجلال الدين، فاستنزلهم جنكزخان بعد فراغه من جلال الدين من عصم الجبال والحصون، وقَتلهم أجمعين [١٤].

حال جلال الدين بعد عبوره ماء السند

لما وصل جلال الدين إلى حافة ماء السند اقتحم بفرسه ذلك الماء العظيم، فخلص إلى البر، وخلص معه أربعة آلاف رجل من عسكره حُفاة عراة، وفيهم ثلثمائة فارس كانوا قد تقدموا جلال الدين، وقد رمى به الموج ومعهم من خواصه ثلاثة نفر، وهم: قلبرس بهادر، وقابقج، وسعد الدين على الشربدار، ورَمى

بهم الماء إلى جهة بعيدة عن القوم، ولم يَعلموا ما كان منه، فاتصل بهم في اليوم الثاني، فكأنما ارتدوا من الموت للحياة، من السعادة بعودته [١٥].

وكان في الزردخانا الجلالية، وهي دار السلاح، شخص يُعرف بجمال الزراد، وقد انتبذ قبل الوقعة بما كان له من المال إلى بعض الجهات، فوصل إذ ذاك بمركب فيه ملبوس ومأكول، فوقع ذلك عند جلال الدين موقعاً عظيماً وولاه أستاذ داريته، ولَقَّبهُ اختيار الدين [١٦].

ولما علم فجاء زانه شنزه صاحب جبل الجودي بما كان من أمر جلال الدين وانهزامه، وأنه في قِلة من أصحابه، رَكب في ألف فارس وخمسة آلاف راجل. فاغتم جلال الدين لذلك، وعبر الماء إلى جهة التتار ليَختفي مع من يَسلم معه في الخياض، ويَعيشون بالغارات، لعلمه أن الجنود إن ظفروا به قتلوه، وقتلوا من معه. فحين تواتروا على ذلك توجهت الرجالة لهذا القصد، بعد أن اجهزوا على جرحاهم، فلا قُدرة لهم على حملهم وعبور الماء، ولا تطاوعهم نفوسهم على تركهم في جراحاتهم حتى الموت، أو تأكلهم الحيوانات والطيور أحياءً، وتأخر عنهم جلال الدين بمن معه من أصحاب الخيل على رسم الترك، فجاء زانه شنزه، ومعه أعيان أصحابه وخيالته. فلما رأى جلال الدين حمل عليه بمن معه، فلما قاربه رماه جلال الدين بنشابة في صدره فقتله، وانهزم عسكره وتحمل جلال الدين فيما غنمه من خيله وعدته، وما أفاء الله عليه من أمواله وأسلحته.

ولما سمع قمر الدين نائب قباجة بدبدبة وساقون، تقرب إلى جلال الدين بهدايا جليلة والطاف، وفي جملتها الدهلين، فوقع ذلك من جلال الدين موقعاً عظيماً [١٧].

رجُوع التتار إلى غزنة بعد هروب جلال الدين

لما كان من الغد على عبور جلال الدين نهر السند، عاد التتار إلى غزنة، أواخر سنة ٦١٩هـ، ١٢٢٢م، وقد قويت نفسوهم بعبور المسلمين الماء إلى جهة الهند وبعدهم، فلما وصلوا إليها ملكوها لوقتها لخلوها من العسكر والمحامي، فقَتلوا

أهلها، ونهبوا الأموال، وسبوا الحريم فألحقوهن بخُرسان، ولم يُبقُ أحد، وخرّبوها وأحرقوها، وفعلوا بسوادها كذلك، ونهبوا وقتلوا وأحرقوا، فأصبحت تلك الأعمال جميعهاً خالية من الأنيس، خاوية على عروشها كأن لم تَغن بالأمس، فظلت خالية من السكان خمس سنوات [١٨].

وكان إقليم غزنة آخر أقطار شرق الدولة الإسلامية، وآخر حصون الخوارزميين التي غزاها المغول في عهد الخليفة العباسي، الناصر لدين الله - (٥٥٣ - ٦٢٢ هـ = ١١٥٨ - ١٢٢٥ م)، وبعد أن اطمأن جنكيز خان إلى تمكنه من السيطرة على هذه البلاد، وانتقم من قاتلي تُجاره ورسله في مدينة أترار، عند ذلك فكر جنكيز خان في العودة إلى بلاده، ولكنه قبل الرجوع إلى منغوليا قضى فترة ليست بالقصيرة، يجوب الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية، ونصَّب بعض المدنيين على بعض البلاد التي خضعت له، وفي ربيع الأول سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، عزم على الرجوع إلى منغوليا عن طريق بلاد الهند وهضبة التبت، وقد أكد المغول سيطرتهم على المناطق الإسلامية الشاسعة ما بين الصين والعراق، ثبَّتوا أقدامهم في كل بقاع الدولة الخوارزمية، وهذا يشمل الآن أسماء الدول الآتية من الشرق إلى الغرب:

١ ـ كازخستان، ٢ـ قيرغيزستان، ٣ـ طاجيكستان، ٤ـ أوزبكستان، ٥ـ تركمنستان، ٦ـ باكستان، باستثناء المناطق الجنوبية فيها والمعروفة بإقليم كرمان، ٧ـ أفغانستان، ٨ـ معظم إيران، باستثناء الحدود الغربية لها مع العراق، والتي يسكنها الإسماعيلية، ٩ـ أذربيجان، ١٠ـ أرمينية، ١١ـ جورجيا، ١٢ـ الجنوب الغربي لروسيا [١٩].

حصار مدينة خوارزم

كان جنكيزخان بعد أن اطمأن إلى هروب محمد بن خوارزم شاه زعيم البلاد في اتجاه الغرب، وانتقاله من مدينة إلى أخرى هرباً من الفرقة التترية المُطاردة له، ثم غياب أخباره تماماً، بدأ، أي جنكيزخان يَبسط سيطرته على المناطق

المحيطة بسمرقند، وعلى الأقاليم الإسلامية الضخمة الواقعة في جنوب سمرقند وشمالها.

وقد وجد جنكيزخان أن أعظم الأقاليم وأقواها في هذه المناطق، هو إقليم خوارزم، وإقليم خُراسان.

أما إقليم خُراسان فإقليم شاسع، به مدن عظيمة كثيرة مثل: بلخ ومرو ونيسابور وهراة وغزنة وغيرها، وهو الواقع الآن في شرق إيران وشمال أفغانستان، وخوارزم، هي المكز، وهي مستقر عائلة خوارزم شاه، وبها تجمع ضخم جداً من المسلمين، وحصونها من أشد حصون المسلمين بأساً وقوة، وهي تقع مباشرة على نهر جيحون، وكانت تمثل للمسلمين قيمة اقتصادية واستراتيجية وسياسية كبيرة [٢٠].

وإقليم خوارزم كان هو الإقليم النواة للدولة الخوارزمية، واشتُهر غير ما سبق، بالثروة العديدة، والمهارة القتالية، وهو يقع إلى الشمال الغربي من سمرقند، ويمر به نهر جيحون، وهو الآن في دولتي أوزبكستان وتركمنستان. ولكن جنكيزخان أراد القيام بحرب معنوية أولاً، تؤثر في نفسيات المسلمين قبل اجتياح هذه الأقاليم، ومن ثم تؤثر على مقدرتهم على المقاومة، فبدء في عمليات إبادة وتدمير تبث الرعب في قلوب المسلمين من سكان الإقليمين الكبيرين خوارزم وخُراسان، فأخرج من جيشه ثلاث فرق:

فرقة لتدمير إقليم فرغانة، وموقعه الآن في أوزبكستان، وهو على بعد حوالي خمسمائة كيلومتر إلى الشرق من سمرقند. وفرقة لتدمير مدينة ترمذ وموقعه الآن في تركمنستان، وهي مدينة الإمام الترمذي صاحب السنن رحمه الله، على بعد حوالي مائة كيلومتر جنوب سمرقند. والفرقة الثالثة لتدمير قلعة كلابة، وهي من أحصن قلاع المسلمين على نهر جيحون [٢١].

وقد قامت الفرق الثلاث بدورها التدميري كما أراد جنكيزخان، فاستولت على كل هذه المناطق، وأعملت فيها القتل والأسر والسبي والنهب والتخريب والحرق، مثلما اعتادوا أن يَفعلوا في الأماكن الأُخرى، ووصلت الرسالة التترية

إلى كل الشعوب المحيطة: التتار طُلاب دماء وخراب وتدمير، وأنهم لا يُهزمون. وكانت هذه رسالة كافية لإيقاع الرعب، ونسف أي نية للمقاومة في قلوب الجيوش النظامية لتلك الدول، علاوة على المقاومات الشعبية لها.

وعندما فرغت تلك الجيوش من مهمتها، بدأ جنكيزخان يعد للمهمة الأكبر في مشروع دولته، فبدأ يُعدُّ لاجتياح إقليمي خُراسان وخوارزم [٢٢].

استعدادات القوات المغولية

كانت الجيوش المغولية تحت قيادة جوجي واغتاي من أبناء جنكيز خان، ولكن القيادة العُليا كانت في يد جوجي أكبر أبنائه، كما سيَّر معهم كبار قادة المغول: طولون جربي، واستوان نوين، وقاضان نوين، وكان أول من وصل إلى خوارزم منهم، باجي بك في عسكر كثيف، وهكذا كان المغول أقوياء بروحهم المعنوية وبرجالهم وبمؤازرة جنكيز خان لهم، أما الجيوش الخوارزمية، فكانت لا ضابط لها، خاصة فرار جلال الدين منكبرتي وأخواه، علاوة على أن غالبية هذه الجيوش من قبيلة كانكالي التركية، وهي تُعدو من الجيوش المرتزقة التي لا يُهمها في كثير أو قليل أن تُدافع عن الأراضي الخوارزمية، أو تحافظ عليها، وصل القوات الثلاثة إلى المدينة فطَلبوا من أهلها التسليم، ووعدوهم بحُسن المعاملة، وأعلن لهم جوجي أن أباه أعطاه إقليم خوارزم ليحكمه، وأنه حَريصٌ على أن يحفظ حاضرة هذا الإقليم من التخريب، كما أخبرهم أنه حذَّر جنوده من أن يمسوا هذا الإقليم بأذى [٢٣].

وكان السلطان المتوفى علاء الدين خوارزم شاه، قد أرسل إلى أهالي هذه المدينة على إثر تقهقره وفراره يَنصحهم بالتسليم وعدم المقاومة، صوناً لأرواحهم، وقد جاء في رسالته لهم ما يأتي: إن لأهل خوارزم علينا وعلى سلفنا من الحقوق المتلاحقة والسوالف الحاضرة والسابقة ما يجب علينا النُّصح لهم، والإشفاق عليهم، وهذا العدو عدو غالب، فعليكم بالمسالمة والطريق الأرفق ودفع الشر بالوجه الأوفق [٢٤].

ورغم تحذير جوجي ونُصح السلطان الخوارزمي لهم قبل هروبه، بأن يُعلنوا طاعتهم للتتار، إلا أن السكان انقسموا إلى معسكرين: فريق منهما يؤمن بضرورة التسليم، وفريق آخر يَرى ضرورة المقاومة والدفاع عن وطنهم، وقد انتصر أصحاب الرأي الثاني ووقفت المدينة موقف الدفاع، واستعد السكان للمقاومة، ولما أدرك المغول عزم الخوارزميين على المقاومة استعدوا بدورهم للقتال، فنَصبوا حول المدينة آلات الحرب من مجانيق ومتاريس وغيرها، ولما كانت الأراضي المحيطة بالمدينة فقيرة من الأحجار، التي يحتاج إليها المغول في أعمال الحصار التي يقذفونها على المدن المحاصرة بواسطة المجانيق، فقد اقتلعوا عدداً كبيراً من أشجار التوت وقطَعوا سيقانها قطعاً مستديرة، تركوها فترة من الزمن في الماء حتى ازدادت قوة، واستطاعوا بعد ذلك ان يستعملوها في مجانيقهم لتحطيم أسوار المدينة [٢٥].

وبينما كانت استعدادات المغول قائمة على قدمٍ وساق، وصَلَ كثير من أسرى البلاد الخاضعة للمغول، والذين يستغلهم المغول في حفر الخنادق حول المدينة، فأنجزوا هذا العمل في غضون عشرة أيام [٢٦].

الهجوم الأول للقوات المغولية على خوارزم

لما اطمأن المغول إلى استعداداتهم الحربية قام ثلاثة آلاف منهم بالهجوم على المدينة، فكان النصر في هذه الهجمة حليف الخوارزميين، فظنوا أن انتصارهم أصبح من الأمور المحققة، وساعد ذلك على تقوية روحهم المعنوية، على أن هزيمة المغول في هذه المرة تَرْجع إلى تلك الفوضى التي حلت بالجيوش المغولية، نتيجة لخلاف نشأ بين جوجي وجغتاي ابني جنكيز خان، ورغم هذا النزاع، استمر حصار هذه المدينة ستة أشهر، أرسلت قوات المغول في خلالها إلى جنكيز خان، وكان إذ ذاك أمام مدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون، يَطلبون منه مدداً يُعوض ما خسروه أمام مدينة خوارزم، كما نَقَلوا إليه أنباء الخلاف الذي نشأ بين ابنيه، وما أدى إليه من شقاق وفساد وفوضى في صفوف الجيش المغولي.

وقد استاء جنكيز خان عندما سمع هذه الأنباء، فأرسل المدد، وبَعث أوامره بإسناد قيادة الجيش إلى ابنه الثالث أجتاي، وأمره أن يُصلح من أمر أخويه، ولما أعاد القائد الجديد تنظيم جيشه، وقَضى على تلك الفوضى التي انتشرت في صفوف الجيش أمر جُنده بالهجوم على المدينة، وقد استطاعوا في النهاية أن يخترقوا أسوارها، وأن يَرفعوا أعلام النصر على هذه الأسوار، ثم أشعل المغول النار في منازل المدينة ومبانيها، وعلى الرغم من نجاح المغول في اختراق حصون المدينة، إلا أن الخوارزميين صمموا على الاستماتة في الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم، وقد ساهم النساء والأطفال في هذا الجهاد [٢٧].

تدمير خوارزم وإبادة أهلها

فعند ذلك ساق إليها دوشي خان، وأخذ يطويها محلة محلة، فكلما أخذ واحدة منها التجأ الناس إلى أخرى، وهم يحاربون أشد حرب إلى أن أعضل الأمر، واستمرت مقاومة الخوارزميين على هذا النحو سبعة أيام، وأخيراً وجد السكان أنفسهم قد تجمعوا في أحياء ثلاثة، وقد تراكمت الناس فيها متزاحمين، فأرسلوا إلى دوشي خان الفقيه علاء الدين الخياطي محتسب خوارزم، وكان من أهل العلم والعمل، مستعطفاً له، فأمر دوشي خان باحترامه، وأن تنصب له خيمة خاصة به [٢٨].

ثم أُحضر الفقيه علاء الدين الخياطي، أمام حضرة القائد المغولي دوشي خان فأدى رسالته فقال في جملة ما قال: إننا قد شاهدنا هيبة الخان، وقد آن أن نُشاهد مرحمته. فاستشاط القائد المغولي غضباً وقال: ماذا رأوا من هيبتي وقد أفنوا رجالي ؟ فأما أنا فشاهدت هيبتهم، وها أنا أُريهم هيبتي. وأَمرَ بإخراج الناس، ونودي فيهم بانفراد أرباب الصنائع وانعزالهم على حدة، فمنهم من فَعل ونجا، ومنهم من اعتقد ان أرباب الحرف تُساق إلى بلادهم، وغيرهم يُترك في وطنه فلم يَنفرد، ثم وُضع السيف في العامة من أهل خوارزم، فقُتلوا جميعاً [٢٩].

ودار القتل على أشده فيهم، وبدأ المسلمون في الهروب والاختفاء في السراديب

والخنادق والديار، فقام التتار بعمل بشع إذ قاموا بهدم سد ضخم كان مبنياً على نهر جيحون، وكان يمنع الماء عن المدينة. وبذلك أطلقوا الماء الغزير على خوارزم، فأغرق المدينة بكاملها. ودخل الماء في كل السراديب والخنادق والديار، وتهدمت ديار المدينة بفعل الطوفان الهائل. ولم يسلم من المدينة أحد البتة!! فمن نجا من القتل قتل تحت الهدم أو أغرق بالماء. وأصبحت المدينة العظيمة خراباً، وتركها التتار وقد اختفت من على وجه الأرض وأصبح مكانها ماء نهر جيحون. ومن مر على المدينة الضخمة بعد ذلك لا يَستطيع أن يرى أثراً لحياة سابقة. وهذا لم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه، اللهم ما حدث مع قوم نوح، ونعوذ بالله من سوء القضاء. وكانت هذه الأحداث الدامية أيضاً في عام ٦١٧ من الهجرة!! ثم عاد التتار إلى جنكزخان وهو بالطالقان [٣٠].

وقد صدقت نبوءة الخوارزميين عن رحيل أصحاب المهن والحرف إلى بلاد المغول، وكذبت نبوءتهم الثانية، إذ أعمل المغول السيف في رقاب من بقي من السكان، لقد بقو بالفعل في خوارزم، ولكن أمواتاً، وكان على كل جندي من المغول أن يقتل أربعة وعشرين رجلاً خوارزمياً. فإذا علمنا أن الجيش المغولي كان يتكون من مائة ألف رجل، أدركنا ذلك العدد الغفير من السكان الذين كان نصيبهم الهلاك. وأخيراً لم يَبق من السكان في المدينة إلا الفتيات الصغيرات والأطفال الذين استرقهم المغول [٣١].

ومن الطريف المؤلم أن جنكيز خان لما استولى على مدينة ترمذ أمر بإخراج جميع السكان من المدينة وأمر جنده بقتلهم جميعاً، وقد حدث أن همّ أحد المغول بقتل امرأة عجوز، فأرادت هذه المرأة أن تَفتدي نفسها بجوهرة ثمينة كانت تمتلكها، فلما طالبها المغول بهذه الجوهرة ذكرت أنها ابتلعتها في جوفها. فشق المغولي بطن المرأة وأخرج الجوهرة من جوفها، وقد انتَشر الخبر سريعاً بين المغول فظنوا أن السكان جميعاً قد خبأوا الجواهر في بطونهم. لذلك أمر جنكيز خان بشق جميع بطون الموتى للبحث عما عسى أن يكون فيها جواهر، وبعد استيلاء المغول على إقليمي ما وراء النهر وخوارزم، استطاعوا أن يحيطوا تماماً بإقليم

خُراسان. كما سنفصله، حيث وجهوا ضربتهم التالية، فاستولوا على مدن هذا الإقليم المدينة تلو الأخرى، ولم يقف في طريقهم عائق أو يمنعهم مانع [٣٢].

ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارى وسمرقند

كان جنكزخان لما جهز هذه الطائفة المغَرِّبة، وسيرهم إلى خوارزم شاه، وبَلغه انهزام خوارزم شاه من خراسان، قسَّم جيوشه إلى عدة أقسام، جهَّز طائفة إلى بلاد فرغانة، وطائفة إلى ترمز، وطائفة إلى كلانة، وهي قلعة حصينة إلى جانب جيحون، فسارت كُل طائفة إلى الجهة التي أمرت بقصدها ونازلتها، واستولت عليها، وفَعلت من القتل والنهب والأسر والسبي والتخريب وأنواع الفساد كما فَعل أصحابهم. فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جنكزخان، وهو مقيم بسمرقند، فجَهز جيشاً إلى خوارزم مع أحد أولاده، وجَهز جيشاً آخر فعبروا نهر جيحون إلى خراسان [٣٣].

اجتياح التتار لخُراسان

اجتياح التتار لإقليم خراسان

خُراسان Khurasan

إقليم واسع وممتد، يقع حاليًا في الشرق والشمال الشرقي لإيران، وخُرسان تسمية قديمة كانت تشمل بلادًا واسعة، منها نيسابور وهراة ومرو وبلخ وبخارى وغزنة وخوارزم. وكلها بلاد تَدخل تحت بلاد فارس وأفغانستان والتركستان، وكانت هذه البلاد منضمة إلى خُراسان قديمٌ، ويجمعها هذا الاسم، وقد دَخلت كلها في الإسلام في القرن الأول الهجري. ومساحة بلاد خُراسان واسعة، وكانت تشتمل على عدة مراكز ثقافية مهمة لعبت دورًا كبيرًا في خدمة الإسلام والحضارة الإسلامية.

معظم سكان خُراسان من المسلمين، ينتسب أكثرهم إلى المذهب الشيعي، وبها قِلة من المسيحيين والأرمن واليهود. وينتمي إلى خُراسان بعض علماء الإسلام المشاهير منهم: الإمام البخاري والإمام مسلم، والبيروني والنيسابوري وابن سينا والغزالي والإمام الجويني والخوارزمي والثعالبي. وغيرهم كثيرون [١].

صدرت الأوامر إلى تولوي بن جنكيز خان بالسير إلى إقليم خُراسان. في خريف عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠/ ويبدو أن جنكيز خان كان ينوي غزو هذا الإقليم بنفسه، فقد عَبرَ إلى الضفة الغربية لنهر جيحون، وسار إلى مدينة بلخ، إحدى المدن الغنية الواقعة على الضفة الغربية لنهر جيحون، ابتغاء الاستيلاء عليها [٢].

اجتياح مدينة بلخ وما حولها

بلخ إحدى مدن دولة أفغانستان الحالية، تقع قريبًا من منطقة مزار شريف، في شمال أفغانستان، وجنوب مدينة ترمذ التي دمرها التتار منذ أيام قلائل، وقد فُتحت هذه المدينة في خلافة عثمان بن عفان، بقيادة الأحنف بن قيس. وتَرجع شهرة هذه المدينة إلى أنها كانت من أمهات المدن الخوارزمية، فضلاً عن قيمتها التجارية بسبب وقوعها على إحدى الممرات التجارية الهامة في وسط آسيا، وكانت هذه المدينة عامرة بمبانيها الآهلة بسكانها، حتى قيل أنه كان بها ألف ومئتان من المساجد الكبيرة، ومثلها من المساجد الصغيرة، كما كان بها حمامات عديدة خاصة بالأجانب والتجار الذين يَفِدون على المدينة.

ولا شك أن أخبار مدينة ترمذ قد وصلت إليهم. وكان في قلوب أهل هذه البلدة رعب شديد من التتار، لم تكن مدينة بلخ مُحصنة تحصيناً يكفلُ لها الصمود أمام الجيوش المغولية، وفي أوائل سنة ٦١٨ هـ /١٢٢١م، سلمت هذه المدينة إلى جنكيز خان [٣].

لما سار الجيش المنفذ إلى خُراسان عبروا جيحون، وقصدوا مدينة بلخ، فطلب أهلها الأمان، فأمَّنوهم، فَسُلّم البلد في محرم من سنة ٦١٧هـ، ولم يَتعرضوا له بنهب ولا قتل، بل جَعلوا فيه حامية تحكم باسمهم، فلما وصلت جيوش التتار بقيادة تولوي، إلى مدينة بلخ طلبوا منهم الأمان، وعلى غير عادة التتار فقد قبلوا أن يُعطوهم الأمان، ولم يَتعرضوا لهم بالسلب أو النهب، فكان ذلك شيئاً مستغرباً منهم، ولكن سرعان ما زال ذلك عندما مرت الأيام وطلب جنكيز خان من أهل بلخ أن يَخرُجوا معه ليعاونوه في فتح باقي مدن خُرسان، وبالفعل خرج أهنها معه لمحاربة أهل مرو الإسلامية. ويبدو أن الهزيمة النفسية الرهيبة التي كان يُعاني منها أهل بلخ، نتيجة الأعمال البشعة التي تمت في مدينة ترمذ المجاورة لهم جعلتهم ينصاعون لأوامر جنكيزخان، حتى وإن كانوا سيقتلون إخوانهم، وبذلك يكون جنكيزخان قد وفّر قواته لمعارك أخرى، وضرب المسلمين بعضهم ببعض [٤].

لقد توقف جنكيز خان عن الزحف عند هذه المدينة، وقام بإرسال ابنه تولوي لاستكمال الاستبلاء على مدن وقُرى خُراسان، على رأس جيش مكون من سبعين

ألفاً، ويبدو أن جنكيز خان رسم خطته الحربية على أساس تأمين أملاكه وجيوشه في هذه النقطة، ومنها تخرج الجيوش إلى نواحي الإقليم [٥].

فساروا فقصدوا الزوزان، وميمند، واندخوي، وقاريات، فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة، ولم يتعرضوا لأهلها بسوء ولا أذى، سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم، حتى وصلوا إلى الطالقان، وهي ولاية تشتمل على عدة بلاد، وفيها قلعة حصينة يُقال لها منصوركوه، لا ترام علواً وارتفاعاً، وبها رجال يقاتلون، شُجعان، فحصروها مدة ستة أشهر يُقاتلون أهلها ليلاً ونهاراً ولا يَظفرون منها بشيء [٦].

فأرسلوا إلى جنكيزخان يُعرفونه عجزهم عن ملك هذه القلعة، لكثرة من فيها من المقاتلة، ولامتناعها بحصانتها، فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه إليهم، وحصرها، ومعه خلق كثير من المسلمين اسرى، فأمرهم بمباشرة القتال وإلا قتلهم، فقاتلوا معه، وأقام عليها أربعة أشهر أخرى فقتل من التتر عليها خلقٌ كثير، فلما رأى ملكهم ذلك أَمر أن يُجمع له من الحطب والأخشاب ما أمكن جمعه، ففعلوا ذلك، وصاروا يَعملون صفاً من خشب، وفوقه صفاً من تراب يغطيه، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلاً عالياً يوازي القلعة، وصعد الرجالة فوقه ونصبوا عليه منجنيقاً فصار يرمي إلى وسط القلعة وحملوا على التتر حملة واحدة فسلم الخيالة منهم ونجوا، وسلكوا تلك الجبال والشعاب. وأما الرَّجالة فقتلوا، ودَخل التتر القلعة وسبوا النساء والأطفال، ونَهبوا الأموال والأمتعة [٧].

اجتياح مدينة مرو وإهلاك أهلها

مرو مدينة كبيرة جداً في ذلك الوقت، وتقع الآن في دولة تركمنستان المسلمة، على بُعد اربعمائة وخمسين كيلومترًا تقريباً غرب مدينة بلخ الأفغانية، جَمعَ لهم جنكيزخان أهل البلاد الذين أعطاهم الأمان، كبلخ وغيرها، وسيَّرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو، وتحرك الجيش التتري الرهيب الذي لم تذكر الروايات عدده، ولكنه كان جيشاً هائلاً يقدر بمئات الألوف. هذا غير المسلمين من شمال أفغانستان، وعلى أبواب مرو وجد التتار أنه قد اجتمع بها من الأعراب

والأتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين، ما يَزيد على مائتي ألف رجل، وهم مُعسكرون بظاهر مرو، وهم عازمون على لقاء التتار، ويُحدثون أنفسهم بالغَلَبة، والاستيلاء عليهم، فلما وصل التتار إليهم التقوا واقتتلوا، فصَبر المسلمون، وأما التتار فلا يَعرفون الهزيمة، حتى إن بعضهم أُسر، فقال وهو عند المسلمين: إن قيل إن التتار يُقتلون فصدقوا، وإن قيل إنهم انهزموا فلا تصدقوا [٨].

فلما رأى المسلمون صَبْر التتار وإقدامهم، ولو منهزمين، وحدثت المأساة العظيمة، ودارت الدائرة على المسلمين، فَقَتَل التتار منهم وأسروا الكثير، ولم يَسلم منهم إلا القليل، ونُهبت أموالهم، وسلاحهم، ودوابهم، وفتح الطريق لمدينة مرو ذات الأسوار العظيمة، وكان بها من السكان ما يزيد عن سبعمائة ألف مسلم من الرجال والنساء والأطفال [٩].

وفي اليوم التالي أول محرم سنة ٦١٨هـ - ٢٥ فبراير سنة ١٢٢١م، سار تولي في خمسمائة من الخيالة لاختيار حصون المدينة، وأرسل ابن جنكزخان إلى ما حوله من البلاد، وأمرهم بجمع الرجال لحصار مرو، ولم يمض أسبوع حتى تجمعت الجيوش المغولية، فتقدموا إلى مدينة مرو وحصروها، وجَدوا في حصرها، ولازموا القتال. وكان أمَام المُحَاصَرين منفذان للنجاة، ولكن المغول فطنوا إلى هذين المنفذين وقَضوا الليل على حراسة الأسوار والمنافذ، ليحولوا دون خروج الأهالي والجيوش الخوارزمية منها [١٠].

وحاصر التتار المدينة الكبيرة، وقد دب الرعب في قلوب أهلها بعد أن فني جيشهم أمام عيونهم، ولم يفتحوا الأبواب للتتار مدة أربعة أيام، وفي اليوم الخامس أرسل قائد جيش التتار تولوي ابن جنكيزخان رسالة إلى قائد مدينة مرو، يقول فيها: لا تُهلك نفسك وأهل البلد، واخرج إلينا ونحنُ نَجعلكَ أمير هذه البلدة، ونَرحل عنك [١١].

وكان أهل البلد قد ضعفت نفوسهم بانهزام ذلك العسكر، وكثرة القتل والأسر فيهم، فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل حاكم المدينة، وكان يُطلق عليه: مدير الملك، كبار رجال الدين إلى تولوي يَعرضون التسليم، بشرط أن يؤمن من في داخل المدينة، فوَعَدهم المغول بتلبية مطالبهم، حتى أن مدير الملك خَرج بنفسه إلى معسكر المغول يَحمل الهدايا إلى تولوي، فخَلَع عليه ابن

جنكزخان، واحترمه، وقال له: أريد أن تُعرض علي أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه، وأعطيناه إقطاعاً، ويكون معنا، وطلب منه أحضار كبراء المدينة وأعيانها، ليخلع عليهم الخلع ويمنحهم الهبات، فأرسل مدير الملك في استدعاء معاونيه وكبار وزرائه وجنده، ولما حضروا إلى معسكر المغول ربطهم تولوي بالحبال! ومعهم مدير الملك، وطلب منهم أن يعدوا له قائمتين طويلتين: [١٢].

الأولى: تضم أسماء كبار التجار وأصحاب الأموال في مدينة مرو.

الثانية: وتضم أسماء أصحاب الحرف والصناع المهرة.

ففعلوا ما أمرهم، فلما وقفَ تولوي ابن جنكيز خان على النسخ، أمر أن يأتيَ المغول بأهل البلد أجمعين، فخرجوا جميعاً من البلد، حتى لم يبق فيها أي أحد، ثم جاءوا بكرسي من ذهب فقعد عليه تولوي ثم أصدر الأوامر الآتية:

١- ان يأتوا بأمير البلاد وبكبار القادة والرؤساء، فيُقتلوا جميعاً أمام عامة أهل البلد، وبالفعل جاءوا بالوفد الكبير وبَدءوا في قتله واحداً واحداً بالسيف، والناس ينظرون ويبكون.

٢- إخراج أصحاب الحِرف والصناع المهرة، وإرسالهم إلى منغوليا، للاستفادة من خبرتهم الصناعية هناك.

٣- إخراج أصحاب الأموال وتعذيبهم حتى يُخبروا عن كل مالهم، ففعلوا ذلك، ومنهم من كان يموت من شدة الضرب ولا يجد ما يكفي لافتداء نفسه.

٤- دُخُول المدينة وتفتيش البيوت بحثاً عن المال والمتاع النفيس، حتى إنهم نَبَشوا قبر السلطان سنجر، أملاً في وجود أموال أو ذهب معه في قبره، واستمر هذا البحث ثلاثة أيام.

٥- أمرَ ابن جنكيز خان، أن يُقتل أهل البلاد أجمعون، وبدأ المغول يَقتلون كل سكان مرو، الرجال والنساء والأطفال، وقالوا إن المدينة عصت علينا وقاومت، ومن قاوم فهذا مصيره [١٣].

وهكذا أصبحت مدينة مرو أثراً بعد عين، وهَلك سكانها أجميعن، الذين

قدرهم ابن الأثير بسبعين ألفاً، وأما الجويني فقدَّر هذا العدد في كتابه تاريخ جهان كشاي، فذكر أنه بلغ مليوناً وثلاثمائة ألف رجل، عدا الجثث التي كانت في أماكن خفية [١٤].

احتلال نسا والقضاء على أهلها

كانت طلائع جيش تولوى قد تقدمت إلى خُراسان في أواخر سنة ٦١٧ هـ - ١٢٢٠م، وكانت تتكون من عشرة الآلف جندي، بقيادة توجاش زوج ابنة جنكيز خان، وقد سار القائد إلى مدينة نسا، وعندما قربت إحدى كتائبه من المدينة، وقد خصصوا لها هذه الكتيبة لصغر حجم نسا، وما إن اقتربوا منها حتى سلَّط المسلمون سهامهم عليهم، فقُتل عدد كبير، كما قُتل بلكوش قائد هذه الكتيبة. ولما وصل توجاش بجيوشه، أمر بأن يُنصب حول المدينة عشرون منجنيقاً.

وبعد خمسة عشر يوماً استطاع المغول أن يُحدثوا ثغرة في حوائطها واحتلوها ليلاً، ولما طلع النهار بدأوا يثأرون لمقتل القائد بلجوش، فأَخرجوا جميع السكان، ولم يمد التتار أيديهم إلى سلب ونهب إلى أن ساقوهم إلى فضاء وراء البساتين، كأنهم قطعان الضأن تسوقها الرعاة، ولم يمد التتار أيديهم إلى سلب ونهب إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسعة، بالصغار والنساء والضجيج يشق جلباب السماء والصياح يسد منافذ الهواء، ثم أمروا، بأن يكتفوا بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلانا، وأَمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر، كما أَمروا بربط ذراعي كل رجل وراء ظهره، ثم قَتل المغول جميع النساء والرجال والأطفال، حتى قيل إن عدد من قُتل من سكان هذه المدينة بلغ أكثر من سبعين ألفاً [١٥].

ولو تفرقوا وطلبوا الخلاص عدواً من غير قتال والجبل قريب، لنجا أكثرهم، فحين كتفوا جاءوا إليهم بالقوس وأضجعوهم على العدى وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهوى، فمن دماء مسفوكة وستور مهتوكة وصغار على ثدى أمهاتها المقتولة متروكة وكان عدة من قتل بلسان أهلها ومن انضوى إليها من الغرباء ورعية بلدها سبعون ألفاً [١٦].

وقد انتشروا في خُراسان، وكانوا كلما حلُّوا ببلد جَمَعوا الفلاحين، وقادوهم

كالأغنام لمساعدتهم في حصار الأماكن التي يرغبون في الاستيلاء عليها، وقد استولى الرعب والفزع على النفوس، حتى كان الأسير أحسن حالاً ممن أقام في منزله، لأنه أصبح لا يَعرف شيئاً عن المصير الذي سيؤول إليه، وكان المغول يُرغمون حكام المقاطعات وأتباعهم على الاشتراك في أعمال الحصار، ومن أبى منهم قُتل شر قتله

الانتقام من أهالي مدينة نيسابور

نيسابور مدينة كبيرة أخرى من مدن إقليم خراسان، وهي من أحصن البلاد الإسلامية، وكانت مدينة كبيرة جداً كذلك، وهي تقع الآن في الشمال الشرقي لدولة إيران، والشمال الغربي لأفغانستان، واتجه إليها التتار بعد ان تركوا خلفهم مدينة مرو، ومذبحة نسا، وقد خُرِّبتا تماماً، سار توجاشر إلى مدينة نيسابور سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، وعزم على الاستيلاء عليها، فحصروها خمسة أيام، وبها جمعٌ صالح من العسكر الإسلامي، إلا أن أخبار مرو كانت قد وصلت إلى نيسابور، فدب الرعب والهلع في أوصال المسلمين، وما استطاعوا أن يقاوموا التتار، ودخل التتار المدينة، فلم يكن لأهلها أي قوة لدفعهم، فملك التتار المدينة، فلم تسلم من المصير الذي قابلته مدينتا مرو ونيسابور، فأخرجوا أهلها إلى الصحراء فقتل كل الرجال، وسبوا حريمهم، وعاقبوا من اتهموه بالمال، كما فَعلوا بمرو، وأقاموا خمسة عشر يوماً يخربون، ويفتشون المنازل عن الأموال [١٧].

وبعد مقتل أهالي مدينة مرو، تحرك تولوي إلى مدينة نيسابور، على مسيرة اثني عشر يوماً من مدينة مرو. وأراد تولوي أن يثأر لموت توجاشر، الذي قُتل أمام أسوار مدينة نسا، عندما حاول الاستيلاء عليها قبل وصول تولوي بجيوشه. وأما الأهالي فقد أساءوا إلى فصائل المغول التي كانت تَظهر تباعاً بالقرب من المدينة، ثم أخذوا أهبة الاستعداد عندما علموا أن المغول سيهاجمون المدينة. ولما رأى الأهالي المحاصرون وقواد الجيوش الخوارزمية، كثرة الجيوش المغولية، وقد أحاطت بالمدينة من كل جانب، فَقدوا رباطة جأشهم وأَرسلوا نواباً عنهم من الأئمة وكبار رجال المدينة، وعلى رأسهم قاضي القضاة في خراسان إلى المعسكر المغولي، فعَرضوا على تولوي التسليم، وتَعهدوا بأن يؤدوا للمغول ضريبة سنوية،

ولكن تولوي الذي كان صدره يغلي، ونفسه تتحرق شوقاً للانتقام لمقتل زوج شقيقته توجاشر، رفض كل العُروض التي عرضها عليه أهالي هذه المدينة [١٨].

وفي اليوم التالي تفقد تولوي جنده الذين كانوا يرابطون حول المدينة وأخذ يُشجعهم، حتى إذا ما حل اليوم الثاني عشر من شهر صفر سنة ٦١٨هـ/٧ أبريل سنة ١٢٢١م أمر بمهاجمة مدينة نيسابور من كل مكان، واستمر القتال طول النهار والليل، ثم استطاع المغول أن يخترقوا الحصون ويُحدثوا في حوائطها ثغرات عديدة مكَّنتهم من دخول المدينة من جميع جهاتها، وأصبحت شوارعها ومنازلها مسرحاً للحروب، وأخيراً تمكن المغول من احتلال مدينة نيسابور، وأخذوا يثأرون بمقتل القائد توجاشر زوج ابنة جنكيز خان، وقد دَخلت زوجة ذلك القائد، ابنة جنكيز خان المدينة يَصحبها عشرة آلاف رجل، فقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال، ولم يَتْركوا حتى القطط والكلاب. ومما يدل على أن المغول كانوا يتحرقون شوقاً للتنكيل بسكان نيسابور، أن تولوي رأى بعض السكان يَلتمسون النجاة بالرقاد بين جثث القتلى، فأبى أن يَترك فرصة لأحد منهم للنجاة، وأمر بقطع جميع رؤوس القتلى ووضع هذه الرؤوس في جانب والأجساد في جانب آخر [١٩].

وقد استمر تخريب المدينة خمسة عشر يوماً، زالت فيها معالمها، ولم يُبق المغول إلا على أربعمائة رجل من أصحاب الحرف والمهن للانتفاع بهم، ولكي يطمئن تولوي إلى القضاء على جميع سكان المدينة، ترك بعد رحيله عنها عدداً من الجنود لقتل السكان الذين قد يَظهرون بعد رحيل الجيش المغولي، وقد ظَهر فعلاً عدد منهم أجهز عليهم الجيش المغولي،، ومما هو جدير بالذكر أن سقوط هذه المدينة حدث بعد وفاة علاء الدين خوارزمشاه بشهرين [٢٠].

وكانوا لما قَتلوا أهل مرو قيل لهم إن قتلاهم سَلم منهم كثير، ونجوا إلى بلاد الإسلام، فأمروا بأهل نيسابور أن تُقطع رؤوسهم لئلا يَسلم من القتل أحد، فلما فَرغوا من ذلك سيَّروا طائفة منهم إلى طوس، ففعلوا بها كذلك أيضاً، وخرَّبوها وخرَّبوا المشهد الذي فيه علي بن موسى الرضى، والرشيد، حتى جَعلوا الجميع خراباً.

خضوع مدينة هراة

سار الجيش المغولي بعد الإجهاز على نيسابور إلى مدينة هراة، إحدى مدن خراسان الهامة، ووجه قائده، وهو في طريقه إليها، طائفة من جنده إلى مدينة طوس فدمرتها، وخرّبت مشهد علي بن موسى الرضي وهارون الرشيد [٢١].

وأرسل تولوي عندما وصل إلى مشارف هراة ينذر أهلها بالتسليم فأجابوه، بقتل رسوله إليهم، واستعدوا للدفاع عن مدينتهم التي ما لبثت أن هوجمت من جميع جهاتها في وقتٍ واحد، وبعد حصار دام عشرة أيام، وقيل ثمانية أيام فقط [٢٢].

وطلب أهلها التسليم على أن يُؤّمن المغول حياتهم، ووافق تولوي على هذا الطلب مُكرهاً، لأن إنقساماً خطيراً حدث في جيشه، ومع ذلك لم يف بوعده للأهالي، فقد قَتل منهم نحو اثني عشر ألفاً، ثم ولى عليها حاكماً عسكرياً مسلماً، وغادرها بأمر من أبيه جنكيز خان ليلحق به عند مدينة الطالقان، على أن هراة ما لبثت أن ثارت على الحكم المغولي على إثر سماع أهلها خبر انتصارات جلال الدين منكوبرتي التي أحرزها على المغول في إقليم غزنة، الأمر الذي جَعل المغول يجردون عليها حملة قاسية، افتتحتها عنوة، وأنزلت بها كثيراً من السلب والنهب، ثم جعلتها طعاماً للنيران [٢٣].

وبسقوط هراة يكون إقليم خراسان قد سقط بكامله في أيدي التتار، ولم يبقوا فيه على مدينة واحدة [٢٤].

الأحداث حتى وفاة جنكيز خان

في سنة ٦٢٠هـ، توغل المغول في بلاد روسيا وحققوا انتصارات عدة، ولكنهم في نهاية المطاف التقوا بطائفة من الروس تُدعى طائفة البلغار وهي في: روسيا وليست في بلغاريا، وحدثت بينهم موقعة عظيمة هُزم فيها التتار للمرة الأولى في هذه المناطق، وقُتل منهم خلق كثير، وتوقف الزحف التتري في أرض روسيا، بل وقلت أعدادهم للدرجة التي فَقَدوا فيها السيطرة على كل المناطق الواقعة في غرب بحر قزوين: روسيا وجورجيا وأرمينيا والشيشان وداغستان وأذربيجان

وشمال إيران. وكانت هذه فرصة للمسلمين لكي يُعيدوا ترتيب صفوفهم، وتجهيز عدتهم ليقابلوا التتار وهم في حال الاضطراب بعد الهزيمة من البلغار.

ولكن الذي حدث أن أحد أمراء المسلمين في هذه المنطقة، وتحديداً في منطقة أرمينيا، قد جَمع عدته وهجم على قبائل الكرج في جورجيا، وهذا الأمير كان تحت قيادة الملك الأشرف موسى بن العادل، صاحب ديار الجزيرة، وهو من الأكراد، وكان يحكم شمال العراق [٢٥].

والغريب أن كان بين الكرج والمسلمين حروب مستمرة إلا أنهم في شبه هدنة غير رسمية الآن، وليس من الحكمة فتح جبهات جديدة على المسلمين في وجود العدو الأكبر لهم وهو التتار، خاصة وأن الكرج أيضاً كانوا يكرهون التتار، ويُعانون منهم كما يُعاني المسلمون. فكان المتوقع من المسلمين في ذلك الوقت إما أن يتحالف المسلمون بحذر مع الكرج ضد التتار، أو على الأقل يُحيّدوا صفهم في هذا الوقت، لكي لا يستنزفوا قوة المسلمين في حروب جانبية، خاصة وأن الكرج يَعرفون خبايا هذه المناطق، ولو استمالهم التتار في حربهم ضد المسلمين لكان هذا وبالاً زائداً على المسلمين.

لقد ابتُلي المسلمون على مر التاريخ، وفي فترات كثيرة من تاريخهم بالحكام الذين يقدرون حجم المسئولة، وأرواح المسلمين التي تولوا عليها، ولما ففي أيام التتار بدلاً من التوحد لمقاومة العدو وصده، راحو يتناحرون، كل منهم يرغب في ضم أملاك الآخر إليه، في الوقت الذي يتقدم العدو ناحيتهم، وسيقضي عليهم جميعاً، ولم لا إنه قدر العالم الإسلامي، فها نحن في مصر يحكمنا رجل ٣٠ سنة يدمر البلاد ويفقرها، ويضع خيراتها بيد ابنيه وزوجته وأصدقائهم ورجاله، وفي ليبيا يضربهم الذي يدعي أنه رئيس البلاد بالطيران، وكذلك يَفعل صاحب اليمن، وصاحب سوريا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

نتيجة انهزام التتار في هذه المنطقة ظهر أحد أولاد محمد بن خوارزم في منطقة شمال إيران، وهو غياث الدين بن محمد بن خوارزم شاه، وهو أخو جلال الدين بن محمد بن خوارزم شاه الهارب في الهند.

جمع غياث الدين الرجال، واستغل الفراغ النسبي الذي تركه التتار في هذه

المنطقة فتملكها، وسيطر على مدن الري وأصبهان، ووصلت سيطرته إلى إقليم كرمان، في جنوب إيران، وهي منطقة لم يكن التتار قد وصلوا إليها [٢٦].

إذن فقد أصبحت سيطرة غياث الدين بن خوارزم شاه على مناطق شمال وغرب وجنوب إيران، أما المنطقة الشرقية والشمالية الشرقية من إيران، وهي إقليم خُراسان بكامله، فكانت تحت سيطرة التتار. وبذلك يُصبح غياث الدين بمثابة حائط صدٍّ بين التتار والخلافة العباسية.

وكان المتوقع من الخليفة العباسي الناصر لدين الله في ذلك الوقت: وليحافظ على هذا الفاصل بينه وبين التتار، أن يُساعد غياث الدين في تثبيت سيطرته على هذه المناطق، وكان المتوقع منه أن يتناسى الخلافات القديمة بينه وبين مملكة خوارزم. وذلك لأنهم الآن يواجهون عدواً مشتركاً ضخماً وهو التتار.

كان ذلك المتوقع منه. إن لم يكن بسبب دوافع الدين والأخوة والنصرة للمسلمين، فليكن بسبب الأبعاد الاستراتيجية الهامة وراء تثبيت قدم غياث الدين في هذه المنطقة. ذلك لأن غياث الدين هو الذي يقف مباشرة في مواجهة التتار. ويُعتبر البوابة الشرقية للخلافة العباسية في بغداد. وإن استطاع التتار أن يقهروا غياث الدين فستكون المحطة الثانية هي الخلافة العباسية.

لكن الخليفة العباسي الناصر لدين الله - (٥٥٣ - ٦٢٢ هـ = ١١٥٨ - ١٢٢٥ م)، لم يكن يُدرك كل هذه الأبعاد. لقد كان يعاني هو الآخر من الحول السياسي. وانعدام الوعي، الذين نعانيهما في تلك الأيام من حكامنا الذين وقع بعضهم بيد شعوبهم، وستقع البقية الباقية إن شاء الله، إلا من استوعب الدرس. وعمل بما أوجب عليه الله، لقد كان الخليفة العباسي الناصر لدين الله كما وصفه المؤرخون: رجلاً ظالماً مستبداً، فرض المكوس والضرائب على كل شعبه. في كل أزمة اقتصادية يَفرض ضريبة جديدة، ويَعتمد في الخروج من الأزمة على قوت الشعب وكدِّه وكدحه.

كما اهتم بالحفلات والملذات والصيد واللعب. وعم الفساد في زمانه، وارتفعت الأسعار، وقلَّت المواد والمؤن. كما كان يفتقر إلى النظرة العميقة والفهم الثاقب

للأحداث، بل وللضمير الحي تجاه شعبه وربه، فلم يكن أبداً على مستوى الأحداث الضخمة التي حدثت في زمانه [٢٧].

ماذا فعل الخليفة الناصر لدين الله إذن؟، إنه لم يَنس خلافاته القديمة مع المملكة الخوارزمية، فأراد أن يقوض أركان السلطان هناك، ناسيًا أنهم بينه وبين التتار. فراسل خال غياث الدين، وكان اسمه: إيغان طائسي، وكان رجلاً كبيراً وصاحب رأي في الحرب يَعمل أميراً في جيش غياث الدين، وكان غياث الدين لا يَقطع أمراً دون مشورته. فراسله الخليفة الناصر لدين الله، ورغّبه في الانقلاب على غياث الدين، وهون له أمر الاستيلاء على المُلك، يقصد الخليفة بذلك أن يضمن ولاء إيغان طائسي له، ويُبعد غياث الدين عن المنطقة، ولم يُهمه تلك الفتنة التي ستدور في الأرض المجاورة له، والتي تُعتبر العمق الاستراتيجي الهام له.

وأعجبت الفكرة إيغان طائسي، وكانت تدور في رأسه من قبل، ولكن لم تكن له طاقة بها، فلما راسله الخليفة ووعده بالمساعدة قويت نفسه على ذلك، فذهب إلى بعض العسكر والقواد فاستمالهم له، ولما قويت شوكته وكثُر اتباعه، أعلن العصيان والانقلاب على غياث الدين، وأخذ من معه، ومضى في البلاد يُفسد ويَقطع الطريق، ويَنهب ما أمكنه من القرى وغيرها، والناس لا تَدري من أين تأتي الهلكة؟! أتأتي من جنود التتار أم تأتي من جنود المسلمين؟! وانضم إلى إيغان طائسي جمعٌ كبيرٌ من أهل الفساد والعنف!

كل هذا والتتار على بُعد خُطوات، والخليفة الناصر لدين الله سعيد بالفتنة الدائرة على مقرُبة منه، ثم قرر إيغان طائسي أن يُقاتل ابن أخته غياث الدين في معركة فاصلة.

الحرب بين غياث الدين وخاله

التقى الفريقان المسلمان، في جمادى الآخرة، سنة ٦٢٠هـ، ودارت مجزرة بين المسلمين، وسَقطت الأعداد الغفيرة من المسلمين قتلى بسيوف المسلمين، وانهزم إيغان طائسي خال غياث الدين، بن خوارزم شاه محمد بن تكش، وغياث الدين

هذا هو صاحب بلاد الجبل والري وأصبهان وغير ذلك، وله أيضاً بلاد كرمان. وقُتل من فريقه عدد ضخم، وأُسر الباقون، وفَرَّ هو ومن بقى معه مقبوحين إلى أذربيجان، وفي هذه السنة كان الجراد في أكثر البلاد، وأهلك كثيراً من الغلات والخضر بالعراق والجزيرة وديار بكر، وكثير من الشام وغيرها [٢٨].

عود طائفة من التتر إلى الري وهمذان

في أول سنة ٦٢١هـ، وصل طائفة من التتار من عند ملكهم جنكزخان، وهؤلاء غير الطائفة الغربية، وكان من سلم من أهل الري قد عاد إليها فعمَّروها، فلم يَشعوا بالتتار إلا وقد وصلوا إليها، فلم يمتنعوا عنهم، فوضعوا في أهلها السيف وقَتلوهم كيف شاؤوا، ونَهبوا البلد وخرَّبوه، وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك، ثم إلى قم وقاشان، (جنوب طهران الآن)، فدمروهما، وكانتا قد سلمتا من التتار أولاً، فإنهم لم يَقربوهما، ولا أصاب أهلهما أذى، فأتاهما هؤلاء ومَلكوهما، وقَتلوا أهلهما، وخرَّبوها، وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب.

ثم ساروا في البلاد يُخربون ويَقتلون ويَنهبون، ثم قَصدوا همذان، وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها، فأبَادوهم قتلاً وأسراً ونَهباً، وخرَّبوا البلد [٢٩].

وكانوا لما وصلوا إلى الري رأوا بها عسكراً كثيراً من الخوارزمية، فكبسوهم وقَتلوا منهم، وانهزم الباقون إلى أذربيجان، فنزلوا بأطرافها، فلم يَشعروا إلا والتتار أيضاً قد كبسوهم ووضوا السيف فيهم، فولوا منهزمين، فوصل طائفة منهم إلى تبريز، وأرسلوا إلى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون: إن كنت موافقنا فسلِّم إلينا من عندك من الخوارزمية، وإلا فعرفنا أنك غير موافق لنا، ولا في طاعتنا، فعمد إلى من عنده من الخوارزمية فقَتلَ بعضهم وأَسر بعضهم، وحَمل الأسرى والرؤوس إلى التتار، وأنفذ معها من الأموال والثياب والدواب شيئاً كثيراً، فكفوا عن بلاد أزبك وعادوا إلى بلاد خراسان. فعلوا هذا وليسوا في كثرة، كانوا نحو ثلاثة آلاف فارس، وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف راجل، وعسكر أوزبك أكثر من الجميع، ومع هذا فلم يُحدث نفسه ولا

الخوارزمية بالامتناع منهم [٣٠]..

وفي هذه السنة٦٢١ هـ، قلّت الأمطار في البلاد، ثم إنها كانت الأمطار تجيء في الأوقات المتفرقة، مجيئاً قريباً لا يَحصل منه الري للزرع، فجاءت الغلات قليلة، ثم خَرج عليها الجراد، ولم يكن في الأرض من النبات ما يشتغل به عنها، وكان الجرادُ كثيراً عن الحد، فغلت الأسعار في العراق والموصل وسائر ديار الجزيرة، وديار بكر وغيرها، وقلت الأقوات.

وما حدث في هذه الفترة من مصائب عن طريق الجراد والسنين ونقص الثمرات، هو أمر طبيعي جداً، وهو أمر موافق للسنن الإلهية، وليس من قبيل المصادفة.

ولكن إذا مر على المسلمين زمانٌ شَعروا فيه أن الحياة تشتد عليهم، وأن الأسعار قد ارتفعت، وأن الغلات قد قلت، وأن الاقتصاد قد تأثر، وأن الحياة قد صعبت، فليراجعوا أنفسهم، وليقفوا مع أنفسهم وقفة للمحاسبة، وليعرضوا أنفسهم على كتاب الله عز وجل. وحتماً، إن كانوا صادقين، سيجدون المرض، وسَيَعرفون العلاج.

أحداث سنة ٦٢٢ هجرية

في هاتين السنتين الأخيرتين، ٦٢١، ٦٢٢هـ، خفت قبضة جنكيز خان على غرب الدولة الخوارزمية (غرب وشمال إيران)، واكتفوا ببعض الحملات المتباعدة، واهتموا بتوطيد مُلكهم، وتثبيت أقدامهم في شرق الدولة الخوارزمية في مناطق نهري سيحون وجيحون، وفي شمال أفغانستان وشرق إيران [٣١].

ولكن حدث أمر جديد في هاتين السنتين، إذ ظَهر على مسرح الأحداث فجأة الأمير جلال الدين بن محمد بن خوارزم، والذي كان قد فرّ قبل ذلك إلى الهند منذ خمس سنوات، في سنة ٦١٧ هجرية، وذلك أنه لم يَستطع إكمال حياته في الهند، فقد كانت العلاقات أصلاً سيئة مع ملوك الهند، ثم إنه وجد أن التتار قد تركوا منطقة فارس نسبياً، وأن جنكيزخان قد عاد إلى بلاده لمعالجة بعض الأمور هناك وتَرَك زعيماً غيره على جيوش التتار، وأن أخاه غياث الدين قد

سيطر على معظم أجزاء فارس، بعد أن تقاتل مع سعد الدين بن دكلا، واتفقا في النهاية على تقسيم فارس بينهما، وكان النصيب الأكبر لغياث الدين، وتم ذلك في سنة٦٢١ هجرية.

وجَدَ جلال الدين أن الظروف الآن مواتية للعودة إلى مملكة خوارزم، للبحث عن الملك الضائع، ولكنه للأسف لم يدقق النظرة، ولم يُشَخص المرض الذي أصاب الأمة الإسلامية في ذلك الوقت، ولم يُدرك أنه الفرقة والتشتت والاستهانة بدماء المخالفين من المسلمين، كانت من الأسباب الرئيسية لهذه الحالة المخزية التي وصلت إليها أمة الإسلام.

لم يُدرك جلال الدين هذه الأمور، ومن ثم فإنه بدلاً من أن يَبذل مجهوداً لتجميع الأطراف المتناحرة والأقاليم المتصارعة، دَخل إلى مملكة خوارزم وهو يُجهز نفسه ليكون طرفاً جديداً في الصراع الإسلامي - الإسلامي [٣٢].

ماذا فعل جلال الدين

لقد تعذر عليه المقام ببلاد الهند، بعد مُقامه بها خمس سنوات، في سنة ٦١٧ هجرية، سار عنها على كرمان، وعبر نهر السند ودَخل إقليم كرمان جنوب باكستان، ووصل إلى أصفهان، وهي بيد أخيه غياث الدين، وقد تقدمت أخباره فملكها، ثم تجاوزه إلى جنوب فارس (جنوب إيران)، وكان أخوه قد استولى على بعضها، كما تقدم، فأعاد ما كان أخوه أخذه منها إلى أتابك سعد الدين بن دكلا صاحبها، وصالحه، وتحالف معه ضد أخيه غياث الدين. وسار من عنده إلى خوزستان، فحصر مدينة تستر في المحرم وبها الأمير مظفر الدين المعروف بوجه السبع، مملوك الخليفة الناصر لدين الله، حافظاً لها، وأميراً عليها، فحصره جلال الدين، وضيَّق عليه، فحفظها وجه السبع، وبالغ في الحفظ والاحتياط، وتفرَّق الخوارزمية ينهبون، حتى وصلوا إلى بادرايا وباكسايا وغيرهما، وانحدر بعضهم إلى ناحية البصرة، فنهبوا هنالك، فسار إليهم شحنة البصرة، وهو الأمير ملتكين، فأوقع بهم، وقَتل منهم جماعة، فدام الحصار نحو شهرين، ثم رحل عنها بغتة [٣٣].

وكانت عساكر الخليفة، مع مملوكه جمال الدين قشتمر، بالقرب منه، فلما رَحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه، فسار إلى أن وصل إلى بعقوبا، وهي قرية مشهورة بطريق خراسان، بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ، فلما وصل الخبر إلى بغداد تجهزوا للحصار، وأصلحوا السلاح من الجروخ، والقسي والنشاب، والنفط، وغير ذلك، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد [٣٤].

وخاف الناصر لدين الله الخليفة العباسي على نفسه، فحصن المدينة وجهز الجيوش لدفع جلال الدين، ولكن لم يكتف بذلك بل أرسل إلى التتار يستعين بهم على حرب جلال الدين! وكأنه لا يعلم ان التتار إذا قضوا على جلال الدين، فإن الخطوة التالية مباشرة هي القضاء على الخلافة العباسية؟! [٣٥].

ومع استعانة الخليفة بالتتار، إلا أن التتار كانوا مشغولين ببسط سيطرتهم في المناطق الشاسعة التي احتلوها، فلم يحدث بينهم وبين جلال الدين قتال إلا في أواخر سنة ٦٢٢ هجرية، واستثمر جلال الدين هذه الفترة في بسط سيطرته على المناطق المحيطة ببغداد، ثم شمال العراق، ثم منطقة شمال فارس، وبدأ يدخل في أذربيجان وما حولها من أقاليم إسلامية.

وكانت حروبه هو والخوارزمية الذين معه حروبًا شرسة مُفسدة، مع أن البلاد المستباحة كلها بلاد إسلامية! فكان يَفعل بهم الأفاعيل من قتل وسبي ونهب وتخريب، وكأنهُ رجع متأثراً بالتتار وطغيانهم، بدلاً من أن يتعلم الرحمة.

ثم بسط جلال الدين سيطرته على مملكة الكرج النصرانية، بعد أن أوقع بهم هزيمة فادحة، واصطلح مع أخيه غياث الدين صُلحاً مؤقتاً، أمثل بصلح الذّئاب، وأدخله في جيشه، ولكن كان كل واحد منهما على حذر من الآخر [٣٦].

وبذلك بلغ سلطان جلال الدين من جنوب فارس إلى الشمال الغربي لبحر قزوين، وهي منطقة كبيرة و مليئة أيضاً بالقلاقل والاضطرابات، بالإضافة إلى العداءات التي اورثها جلال الدين قلوب كل الأمراء في الأقاليم المحيطة بسلطانه، بما فيهم الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وهذه سياسة ورثها جلال الدين عن أبيه محمد بن خوارزم، ولم تأت إلا بالويلات والخراب والتدمر والقتل على الأمة.

وفي آخر سنة ٦٢٢ هجرية توفي الخليفة الناصر لدين الله، بعد أن حكم البلاد سبعة وأربعين عاماً متتالية، وكان قبيح السيرة في رعيته، فقد خرّب العراق، وظلم أهله، وأخذ أموالهم وأملاكهم، وطفف لهم في المكاييل، وفرض عليهم الرسوم الجائرة، والأحكام الظالمة، وفوق كل ذلك فهو متهم بشدة بمراسلة التتار، ومحاولة التعاون معهم ضد المسلمين [٣٧].

أحداث سنتي ٦٢٣ و٦٢٤ هجرية

في الرابع عشر من رجب، سنة، ٦٢٣هـ، توفي الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، وقد تقدم نسبه عند وفاة أبيه، رضي الله عنهما، فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، وكان نعم الخليفة، جمع الخشوع مع الخضوع لربه، والعدل والإحسان إلى رعيته، تولى الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله الخلافة العباسية، وكان على النقيض من أبيه تماماً، فقد كان رجلاً صالحاً تقياً أظهر من العدل والإحسان ما لم يُسبق إلا عند القليل، شبهه ابن الأثير بعمر بن عبد العزيز، فرفع الضرائب الباهظة، وأعاد للناس حقوقهم، وأخرج المظلومين من السجون، وتصدق على الفقراء، حتى قيل في حقه: إنه كان غريباً في هذا الزمان الفاسد [٣٨].

وتولى الحكم بعده المستنصر بالله، والذي ظل في كرسي الحكم حتى سنة ٦٤٠هـ، أي حوالي: سبعة عشر عاماً، وفي هذه الأثناء كان جلال الدين خوارزم شاه يستمر في حروبه في هذه المنطقة، ليس مع التتار، ولكن مع المسلمين؛ واستولى على بعض المدن والأقاليم، وكان من أبشع ما فَعل هو حصاره لأهل خلاط، أو أخلاط، وهي مدينة مسلمة في شرق تركيا الآن، فقد قتل منهم خلقاً كثيراً، وامتدت أيدي الجنود الخوارزميين إلى كل شيء في البلد بالسلب والنهب حتى سبوا الحريم المسلمات [٣٩].

وفاة مؤسس الدولة المغولية جنكيز خان

توفي جنكيزخان، عن عمر يناهز اثنتين وسبعين سنة، ملأها بالقتل والذبح وسفك الدماء والسلب والنهب والتخريب، وبنى خلال فترة حكمه مملكة واسعة من كوريا في الشرق إلى فارس في الغرب. بُنيت هذه المملكة على جماجم البشر، وعلى أشلائهم ودمائهم. ومعظمهم من المسلمين، وليس اللوم على القوي، بقدر ما هو على المتضعف، الذي ترك الظالم يَفعل في بلاد المسلمين ما يشاء [1].

وبموت جنكيزخان هدأت الأمور نسبياً في هذه المنطقة، واحتفظ التتار بما ملكوه من بلاد المسلمين إلى وسط إيران تقريباً، بينما كان جلال الدين يَبسط سيطرته على المناطق الغربية من إيران والمناطق الغربية من بحر قزوين. وكأن كل طرف قد رضي بما يملك، وآثر الاحتفاظ بما يعتقد أنه حق له [2].

وقد أمضى جنكيز خان شتاء عام ١٢٢٥ إلى ١٢٢٦م، والصيف التالي في مقره العام، عند نهر تولا من إمبراطوريته الكبيرة، وكان محاطاً برفاق موثوقين، كالوا له المديح. وقال لهم: لقد ساعتموني وجعلتموني قادراً على العمل الصحيح الذي يجب عمله، وأمسكتم بيدي بعيداً عن عمل الأمر الخطأ، وبفضل هذا السلوك من جانبكم فقد بلغت المرتبة العالية [3].

كان هناك عمل ينتظر التنفيذ، وكان ذلك معاقبة ملك الطانغوط عاهل شي ـ شيا (أوهسي ـ هسيا) المتاخمة للتيبت، لرفضه إرسال جيشه للاشتراك في الحرب ضد خوارزم، وكان جنكيز خان يوم تحرك باتجاه الغرب قد قطع على نفسه عهداً بمحاسبة الملك الطانغوطي على ذلك الرفض رغم أنه تابع له، وحشد عام ١٢٢٦م، كل جيوشه ضد الطانغوط، ولكن الثأر وحده لم يكن الدافع على محاربة أولئك القوم، بل كانت هناك أسباب وجيهة أخرى تدعو إلى إخضاع تلك المنطقة، كان صينيو إمبراطورية كين، الإمبراطورية الذهبية،

بعد مغادرة جنكيز خان للصين قد نجحوا قد استرجعوا قسماً كبيراً من أقاليمهم، وكان موخولي الجنرال المغولي العامل في الصين نيابة عن جنكيز خان، مشتبكاً في قتال مرير متواصل معهم.

وأدرك جنكيز خان أن العوامل الجغرافية تَجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، توجيه ضربة مميتة إلى الصينيين الذاهبين، بينما السُلطة المغولية غير مستقرة ووطيدة في بلاد الطانغوط، وكان اهتمامه بهذا الأمر من الشدة بحيث لم يلجأ لتحقيقه إلى اي من جنرلاته، وإنما عمد رغم تقدم سنه إلى قيادة الجيش بنفسه، ونرى من هذا القرار أنه كان لايزال مالكاً لجميع قواه البدانية والعقلية. وبدأت الحرب في خريف عام ١٢٢٦م، وكانت البداية ناجحة، غير أنه في فصل الشتاء وفي إحدى مناورات الصيد، جمح جواد جنكيز خان مرعوباً ببعض الخيول المتوحشة التي كانت وفيرة في تلك الأنحاء، وألقى بالخان المغولي أرضاً وأصيب جنكيز خان على أثر ذلك بمرض شديد، الأمر الذي دعا أولاده المرافقين له، والمتقدمين سناً من جنرالاته إلى التشاور فيما بينهم، حول ما يَجب عليهم عمله، قال أحدهم: الطانغوط شعب حضري يسكن المدن لا يُغادرها، ومن الممكن أن نعود الآن إلى الوطن، لنرجع إلى هذا المكان بعد أن يستعيد الخان عافيته، ووافق المجتمعون على هذا الرأي.

لم يُعجب هذا القول جنكيز خان ورفضه، وقال: إذا نحن ذهبنا فسيظن الطانغوط يقيناً بأننا نخاف منهم، إنني أبقي للعلاج والشفاء في هذا المكان ولن نبرحه، وسنَبدأ فنبعث إليهم برسالة، لنرى ما هو الجواب الذي سيعطونه، وقد وُجِّهت إلى ملكة طانغوط الرسالة التالية: وعدت بأن تكون يدي اليمنى، ولكنك رفضت أن تَذهب معي إلى محاربة الخوارزميين، وأضفت الإهانة إلى هذا العصيان، والآن وبعد أن افتتحت بلاد خوارزم فقد جئت أطلب منك تَرضية.

وكان جواب العاهل الطنغوطي على هذه الرسالة عبارات تحقير وإهانة، وقد غضب جنكيز خان لذلك غضباً شديداً، وهتف صارخاً: أمن الممكن بعد هذه الإهانة أن نذهب بعيداً؟ إني لن أذهب ولو كان وراء ذلك موتي. إني أقسم على هذا بالسماء الأبدية، وقد وفى بقسمه، فدمّر مملكة الطانغوط ودولتهم ولكنه

مات في سياق ذلك، كان جنكيز خان مريضاً منذ سقطته الأخيرة عن ظهر الجواد أثناء الصيد، وكان يَشعر أن المرض يمتص منه الحياة [٤].

في النصف الأول من شهر رمضان، سنة أربع وعشرين وستماية، وقيل في سنة خمس وعشرين في فصل الشتاء. حضرت جنكيز خان الوفاة، فطلَب إخوته وهم: أوتكين وبلكوتي ونوين والحاي نوين ووكوب ووكابي، وحَضر من أولاده جغطاي وأوكتاي، فكَتب لهم وصية وقال امتثلوها بعدي، وإذا أنا مت وجَاء وقت الربيع تجمعوا كلكم، وتُعمل وليمة عظيمة ثم تُقرأ هذه الوصية بحضوركم، ويُنَصب في الملك من عينته فيها، وامتثلوا أمره، ثم فرَّقهم في مشاتيهم التي قررها لهم، ففعلوا ذلك وامتثوا امره

فأوصاهم أن يخلف ابنه أوكتاي لمزية رأيه المتين، وعقله الرزين، فجَعله ولي عهده، فوافقوا على اختياره، وجاء نَص وصيته لأولاده: اعلموا يا أولادي الجياد أنه قد قرب سفري إلى دار الآخرة، ودنا أجلي، وأنا بقوة الآلهة والتأييد السماوي، استخلصت مملكة عريضة بسيطة، بحيث يسلك من وسطها إلى طرف منها مسيرة سنة من أجلكم. يا أولادي فهيأتها لكم، فوصيتي لكم أنكم تشتغلون بعدي بدفع الأعداء ورَفع الأصدقاء وتكونون جميعاً على رأي واحد، حتى تعيشوا في نعمة ودلال وتتمتعوا بالمملكة [٥].

وهناك في أقليم كان سو الصيني الحديث غير البعيد من مدينة تسن جو، اسلم جنكيز خان الروح في النصف الأول من رمضان، عام ٦٢٤هـ الموافق أغسطس ١٢٢٧م، وقد حُمل جثمانه إلى منغوليا، ودُفن في المنطقة التي يَخرج منها نهر أونون وكورلين، وبقي موضع الدفن سراً من الأسرار كما هي عادة المغول [٦].

أسرة جنكيز خان وأحفاده

وكان له من الأولاد تسعة عشر ولدا من امراة واحدة، وهي تسوجي خاتون، منهم تلي خان وهو طلوخان، وهو الذي قُتل في سنة ٦١٧هـ، في الحرب التي كانت بينه وبين السلطان جلال الدين منكوبرتي كما سبق بيانه. وكان لتلي خان من الأولاد منكوقان، وهو الذي استقر في القانية بعد، وهولاكو واريق بوكا وقبلاي،

وهو الذي جلس على تخت القانية بعد منكوقان، واستقرت القانية فيه وفي بنيه من بعده إلى آخر وقت.

وكان جنكزخان قد فوض لابنه تلي خان ترتيب العساكر والجيوش، وتدبيره في المقام في مشتاه ومصيفه، وجعل له من البلاد خُراسان والعراقين وما يليها، فقُتل قبل تمام الفتوح. ومنهم دوشي خان بن جنكزخان، وهو الذي فتح خوارزم في حياة أبيه، وفتح أيضاً بعد وفاة أبيه بلاد الشمال، واستولى على ملكها، وأباد من بها من طوائف الأتراك وقبائل القفجاق وغيرهم من القبائل: كاللان، وآلاص، والأولاق، والجركس والروس وغيرهم من سكان البلاد الشمالية. واستقر مُلك هذه البلاد بيده، ثم بيد باطوخان بن دوشي خان، ثم في صرطق بن دوشي خان، ثم في أولاد باطوخان وإخوته على ما نذكره بعد.

ومن أولاد دوشي خان بن جنكزخان: أرديوا وهو صاحب غزنة وباميان. وقد قيل إن أرديوا بن جنكزخان، وكان جنكزخان قد جَعل وظيفة دوشي خان ترتيب الصيد، وهي عندهم أكبر المراتب، وعَين له من البلاد والمياه لمشتاه ومصيفه حدود قيالق وبلاد خوارزم إلى أطراف سقسين وبلغار، إلى حيث تنتهي حوافر خيلهم من الفتوح.

ومنهم أوكتاي خان بن جنكزخان، وهو أوكتاي، وهو الذي جَلس على تخت القانية بعد وفاة أبيه جنكزخان، وكان جنكزخان. قد جَعله مُشيره وصاحب الراي وعينٌ له من البلاد آمل وقوتاق، وجُعله ولي عهده من بعده، وعَهد إليه أنه إذا انتهى الملك إليه، أن يُعطي ما بيده من البلاد لولده كيوك خان، ثم يتحول إلى مستقر الملك من بلاد الخطا والأيغور بقرا قورم وغيرها.

ومنهم جغطاي بن جنكزخان، كان أبوه قد فوَّض إليه مهمات السياسة والحكومة للياسا واليرغو، وجَعل له من البلاد للمراعي والمشاتي والمصيف، من حدود بقاع الأيغور وسمرقند وبخارى وما يتاخم ذلك من البلاد. وكان مقامه قبل ذلك بقرب المالق وما يليها.

فهؤلاء الأربعة هم المُشار إليهم من أولاد جنكزخان، وله غير هؤلاء منهم أورخان، وكلكان، والغوانوين، وجورجاي، وأولطاي خان، وأرديوا، وقد اختلف في

شأنه، هل هو ابن جنكزخان أو ابن دوشي خان. ومن أولاده: مغل بن جنكزخان. وعين جنكزخان أيضاً لأخوته وأقاربه أماكن من ملكه، فاستقرت حالهم على ما قرره لهم، وكان قد خالف جنكزخان من قبائل التتار أويرات [٧].

ولم يكن المغول يَعرفون البلاط والعاصمة في بداية أمرهم، لذا فلم تكن لديهم مراسم محددة للتتويج، ولا مظاهر الاستقبال الرسمي والمجلس الملكي العام، بل كانت مراسم هذه الرسميات تتسم بالبساطة، وبعد وفاة جنكيز خان، وعندما أراد كبار رجال العشيرة تتويج ابنه: أقطاي خان، عليهم، قاموا أولاً بتحديد يوم السعد عن طريق السحرة والمنجمين، ثم رَفعوا قلانسهم حسب عاداتهم، ثم أمسك: جغتاي، يد أخيه اليمنى وأمسك: أوتكين، شقيق جنكيز خان يد: أقطاي، اليسرى وأَجلساه على العرش، وقدم تولي له شراباً، ثم جثا الحاضرون جميعاً على الأرض ثلاث مرات احتراماً، وهنأوه وهم راكعون، وبعد انتهاء مراسم التتويج خرج: أقطاي، من المعسكر في معية سائر الأمراء، وجثوا أمام الشمس ثلاث مرات، ثم جلسوا لتناول الشراب والاحتفال، وبعد انتهاء الحفل، ظل المغول يَطهون الطعام لثلاث أيام متوالية على روح جنكيز خان، واختاروا أربعين فتاة من نسل الأمراء وأركبوهن في كامل زينتهن وألبسوهن أفخر الثياب وزينوهن بأقيم أنواع الجياد، ولكنهم قتلوهن في النهاية، كما قتلوا أجيادهن معتقدين أن في ذلك الإجراء إرضاء لروح جنكيز خان [٨].

تم بحمد الله تعالى كتاب: جنكيز خان، مؤسس دولة المغول يوم الاثنين ٤/يوليو/٢٠١١م، الموافق ٣ شعبان ١٤٣٢هـ. الصاوي محمد الصاوي

المصادر والمراجع

تنويه

هناك ملحوظتان مهمتان أُحب أن ألفت إليهما نظر القارىء الكريم، قبل أن يَقرأ ما سأثبته هنا، من أسماء كُتب، وأرقام أجزاء، وأرقام صفحات، استخدمتها كمصادر ومراجع أثناء إعدادي لهذا الكتاب، والملحوظتان هما :

١- أنني قد أضع اسم المصدر، أو المرجع فتنظر في الأصل، فلا تجد ما تقرأه عندي بالضبط مثل ما في المرجع المشار إليه، فأنا آخذ النص الأصلي، إما أضعه كما هو، أو أُعيد تدويره وإنتاجه، بما يتناسب وما يَسبقه، وما يَحلق عليه من كلام، خاصة إذا كان الأسلوب اللفظي لن يكون متسقاً، وخاصة إذا كان الأصل المنقول عنه من هؤلاء الذين يتَّبعون إسلوب السَّجع، أو لغتهم بعيدة عن تلك التي يدور بها الكلام هنا.

على كل حال فإنك ستجد النص الأصلي، إن رجعت إليه، إما بنفس اللفظ، أو باختلاف قليل، أو تجده مختلفاً في ترتيب فقراته، أو كلماته، ولعلك لا تجد منه شيئاً من لفظه، ولكنك ستجد روح النص بكل تأكيد. وهذا حقي، أن أُدَوِّر مادتي وأَسبكها وأُعيد إنتاجها، بما يَتناسب وما أود قوله، وما أَرى فيه المصلحة، من حيث توضيح المقصود، والتعبير عن وجهة نظري، مع المحافظة على الحقائق التاريخية، وعدم هضم حق أصحاب تلك الأصول التي رجعت إليها، سواء بالنقل المباشر، أو باقتباس الأفكار دون الألفاظ، وهو ما أشرت إليه، بأنك قد تجد المصدر، ولكن لا تجد النص الذي تقرأه هناك، ولكنك بالتأكيد ستجد شيئاً يُشعرك أنني كُنتُ هناك.

وإذا كانت تلك المصادر التي ستجد الإشارة إليها كثيرة خلال الكتاب، تمثل المادة الخام التي صنعت منها كتابي، فأنا أحفظ فيها حق مؤلفيها، بالإشارة إليهم في كل موضع، ثم لا أبخس نفسي حقها، من حيث إعادة إنتاجها بما

يتناسب مع الموضوع، كماً وكيفاً.

٢- كل الكُتب المستخدمة، والتي رَجعت إليها وذكرتها كمصادر، أو كمراجع خلال هذا الكتاب، هي من المكتبة الشاملة، الموجودة على الشبكة الألكترونية، إلا ما أُشير إليه وأُنوه عن كونه نُسخة ورقية.

المصادر والمراجع لكتاب/ جنكيز خان .. فاتح العالم

أصل المغول وبدايتهم وحياتهم

[1] العيني: السيف المهند ١٧٩، النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي ١١، دائرة المعارف الإسلامية ٢١٢/٩، عباس إقبال: تاريخ إيران ٣٤٥، برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي ٢٠، فامبري: تاريخ بخارى ١٦١، ستانلي لين بول: طبقات سلاطين الإسلام ١٨٦، عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران ١١، خليل أدهم الدم: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٤٦٥/٢.

[2] خليل أدهم الدم: تاريخ الدول الإسلامية ٤٦٥/٢.

[3] عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٣٤٦.

[4] تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي – (ص: ١٣). تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: د. أحمد السعيد سليمان، ص: ١٥٢. تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: د. أحمد السعيد سليمان، ص: ١٥٢.

[5] برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي ٢٠. تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي– (ص: ١٤).

[6] جوبي: لفظ مغولي معناه الصحراء الجدباء الخاوية (فامبري: تاريخ بخارى ١٦١).

[7] عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٣٤٦. المغول، د. الباز– (٢٨_٣٦). المغول في التاريخ، د. الصياد – (٢٧- ٢٨). تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي– (ص: ١٤، ١٥).

[8] العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز– (ص٢٦، ٢٧). تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي– (ص: ١٤، ١٥).

[9] المصدر السابق – (ص: ١٥). جامع التواريخ: رشيد الدين فضل الله – (ج١/ ٧٣). محمد عبد الوهاب القزويني، نقلاً عن: جامع برزين – (ج٦/ ٥٢).

[10] عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٣٤٦.

[11] تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي – (ص: ١٦). جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله – (ج١/ ٦١).

[12] العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز– (ص٢٦، ٢٧).

[13] رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ ٦١/١.

[14] عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران ١٧.

[15] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت، د. راغب السرجاني - (١/ ١٠).

[16] كتاب الحياة السياسية في العراق في عهد المغول، د. محمد صالح – (٣- ٥). العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز– (ص١٩).

[17] كتاب المغول، د. السيد الباز – (٥: ٨).

[18] كتاب الحياة السياسية في العراق في عهد

المغول، د. محمد صالح – (٣- ٥).

[١٩] تاريخ بخاري، ارمينوس، ترجمة د. الساداتي، د. الخشاب – (ص: ١٦١).

[٢٠] تاريخ الدولة المغولية في إيران، د. عبد السلام فهمي – (ص: ١١- ١٢). العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز – (ص٢٠).

[٢١] تاريخ الدولة المغولية في إيران، د. عبد السلام فهمي – (ص: ١١- ١٢).

[٢٢] المغول للعريني صـ١٣. العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٢٠

[٢٣] الحياة السياسية في العراق للدكتور القزاز صـ٥.

[٢٤] العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٢٨). المغول/ د. الباز- (ص:٣٨).

[٢٥] العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٣١).

[٢٦] البداية والنهاية لابن كثير – (ج١٣- ١١٨: ١١٩). العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٣١).

[٢٧] المصدر السابق – (ص: ٣١). [٢٨] المغول في التاريخ، للدكتور عبد المعطي الصياد –(صـ٣٣٠: ٣٣٤).

[٢٨] المصدر السابق – (صـ٣٣٠: ٣٣٤).

[٢٩] البداية والنهاية لابن كثير – (ج٧ جزء: ١٣- ٨٨). العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٢٨).

[٣٠] البداية والنهاية - (١٣ / ١٣٩).

[٣١] الحياة السياسية في العراق في العهد السيطرة المغولية د.القزاز – (ص:٢٠ . ٢١).

[٣٢] المصدر السابق – (ص:٢٠ . ٢١). العالم الإسلامي والغزو المغولي – (ص: ٣٣).

[٣٣] العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٢٨). الحياة السياسية في العراق في العهد السيطرة المغولية د.القزاز – (ص:٢٠ . ٢١).

[٣٤] العالم الإسلامي والغزو المغولي.صـ٣٤. الحياة السياسية في العراق في العهد السيطرة المغولية د. القزاز حاشية – (ص: ٢٧٦).

[٣٥] العالم الإسلامي والغزو المغولي – (ص:٣٤).

[٣٦] الدعوة إلى الإسلام، أرنولد صـ٢٥١. العالم الإسلامي والغزو المغولي – (ص: ٣٤).

[٣٧] المصدر السابق - صـ٣٥. الدعوة إلى الإسلام، أرنولد صـ٢٥١. العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٣٥

[٣٨] البداية والنهاية - (١٣ / ١٣٩).

العالم الإسلامي حتى أوائل القرن السابع الهجري

[١] المغول والأوربيون والصليبيون، محمود عمران – (ص: ١٥).

[٢] المصدر السابق – (ص: ١٦).

[٣] فتح القسطنطينية، ترجمة الدكتور حسن حبشي – (ص:١١٤). وما بعدها.

[٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت، د. راغب السرجاني - (٤/١).

[٥] المصدر السابق المصدر السابق - (٥/١)

[٦] المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس صـ١٨. العالم الإسلامي والغزو الصليبي صـ٥٧. المغول والأوربيون والصليبيون صـ١٨.

[٧] صبح الأعشى، القلقشندي - (٤ / ٤١٥).

[٨] المواعظ والاعتبار - (٢ / ٤٢٩). الأعلام للزركلي - (٨ / ٦٢).

[٩] الأعلام للزركلي - (٦ / ١٢٣). ابن خلدون ٤: ٣١٣. ابن الأثير ٨: ١٢٤ وما قبلها.

[١٠] الأعلام للزركلي - (٤ / ٢٦٨). وفيات العيان لابن خلكان - ١: ٣٦٤.

[١١] الأعلام للزركلي - (٢ / ١٨٥). وفيات العيان لابن خلكان - ١: ١٤١.

[١٢] صبح الأعشى، القلقشندي - (٤ / ٤١٦).

[١٣] المصدر السابق - (٤ / ٤١٦، ٤١٧).

[١٤] المصدر السابق - (٤ / ٤١٧).

[١٥] الموسوعة العربية العالمية - (مادة: الدولة الطاهرية/ ١). الأعلام للزركلي - (٧ / ١٢٨). ابن الأثير ٦: ١٤٨ — ١٧٩. اليعقوبي ٣: ١٩٧. الفوات ٢: ٢٧٠. تاريخ بغداد ٣: ٣٤٢. مروج الذهب ٢: ٢٦٩ — ٢٧٨. البدء والتاريخ ٦: ١١٤.

[١٦] الموسوعة العربية العالمية - (مادة: الدولة الصفرية/ ١).

[١٧] المصدر السابق - (مادة: دولة الأغالبة/ ١).

[١٨] المصدر السابق - (مادة: الدولة الرستمية/ ١).

[١٩] الموسوعة العربية العالمية - (مادة: الدولة الحمدانية/ ١).

[٢٠] المصدر السابق - (مادة: بني بويه / ١).

[٢١] المصدر السابق - (مادة: الدولة العباسية، تاريخ سوريا/ ١).

[٢٢] المصدر السابق - (مادة: تاريخ سوريا/ ٦).

[٢٣] المصدر السابق - (مادة: تاريخ سوريا/ ٧).

[٢٤] المصدر السابق - (مادة: تاريخ سوريا/ ٨).

[٢٥] المصدر السابق - (مادة: تاريخ سوريا/ ٨).

[٢٦] المصدر السابق - (مااددة: الدولة السلجوقية/ ١). الأعلام للزركلي - (٧/ ١٢٠). المنتظم ٨: ٢٣١ وما قبلها. والنجوم الزاهرة ٥: ٥ و ٧٣.

[٢٧] الموسوعة العربية العالمية - (مااددة: الدولة السلجوقية/ ١).

[٢٨] المصدر السابق - (مادة: الدولة الغزنوية / ٣:١)

[٢٩] المصدر السابق - (مادة: الدولة الغورية/١:٣).

[٣٠] المنتظم: القسم الثاني من الجزء الخامس ١١٠ — ١١٩. ابن خلدون ٤: ١١ و ٨٤ — ٨٧. ابن الأثير ٧: ١٤٧ - ١٤٩ و١٦٨ و ١٨٠. النجوم الزاهرة ٣: ١٢٨. المسعودي، طبعة باريس ٨: ٢٢٤. الأعلام للزركلي - (٥ / ١٩٤).

[٣١] عريب ٩ - ١٧ واليافعي ٢: ٢٢١ و ٢٢٢ والشذرات ٢: ٢١٥ وابن الأثير: حوادث سنة ٢٨٩ - ٢٩٧ هـ والمسعودي، طبعة باريس ٨: ٢٢٤ و ٢٤٧ والنجوم الزاهرة ٣: ١٥٩. الأعلام للزركلي - (٣ / ٤٥).

[٣٢] ابن الأثير ٨: ٢٧ وما قبلها. ومرآة الجنان ٢: ٢٣٨. الأعلام للزركلي - (٢ / ١٨٥).

[٣٣] الكامل لابن الأثير ٨: ٢٧ و ٤٥ و ٤٩ و ٥٣ و ٥٦ و ٦٥ وعريب ١١٠ - ١٦٤ وسير النبلاء - خ. الطبقة التاسعة عشرة، وفيه: (ووهم السمناني فقال في تاريخه ان الذي نزع الحجر أبو سعيد الجنابي، وانما هو ابنه أبو طاهر هذا). والنجوم الزاهرة ٣: ٢٢٥. وفوات الوفيات ١: ١٧٥. الأعلام للزركلي - (٣ / ١٢٣).

[٣٤] المقول في التاريخ للدكتور الصياد صـ٧٧ - ٧٨.

[٣٥] الكامل في التاريخ - (٤ / ٣٤٩، ٣٧٤). الأعلام للزركلي - (٢ / ١٩٣).

[٣٦] الكامل لابن الأثير حوادث سنة: ٤٩٤ وما بعدها. وتاريخ العلويين ٢٧٣ وميزان الاعتدال ١: ٢٣٢ وابن الوردي ٢: ١٣ و ٣٢ وصبح الاعشى ١: ١٢١ وتاريخ العراق ٣ الملحق الثاني ص ٦. الأعلام للزركلي - (٢ / ١٩٣).

[٣٧] الكامل في التاريخ - (٤ / ٣٧٣). سلاجقة إيران والعراق، عبد المنعم حسين ص ٨٤.

[٣٨] الأعلام للزركلي - (٢ / ٢٠٢). فيات الأعيان ١: ١٤٣. سير النبلاء - خ - المجلد ١٥. ابن العبري ٣٣٥ الكامل في التاريخ - (٤ / ٣٧٤). الروضتين ١: ٢٥.

[٣٩] الكامل في التاريخ - (٤ / ٣٧٣).

[٤٠] المصدر السابق - (٤ / ٣٧٣).

[٤١] العالم الإسلامي والغزو المغولي - صـ٥٣.

[٤٢] المصدر السابق - صـ٥٣.

[٤٣] المصدر السابق - صـ٥٤.

[٤٤] المصدر السابق - صـ٥٤. نقلاً عن سيرة جلال الدين منكبرتي صـ٥٥. تاريخ ابن خلدون - (٣ / ٥٣٤).

[٤٥] الفخري في الأداب السلطانية والدولة الإسلامية صـ٢٥ . ٢٦.

[٤٦] العالم الإسلامي والغزو المغولي - صـ٥٥.

[٤٧] السلوك لمعرفة السلوك (١ ـ ١٥٥). وفيات الأعيان لابن خلكان ٢: ٤٨. ابن إياس ١: ٧٥. مرآة الزمان ٨: ٥٩٤.

[٤٨] العالم الإسلامي والغزو الصليبي - صـ٦١.

[٤٩] المصدر السابق - صـ٦١.

[٥٠] تاريخ سلاجقة الروم في آسيا، ص ٩٦. العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٦٢. الحروب الصليبية - (٢/٤٣)، رنسيمان.

[٥١] تفسير ابن كثير، سورة المائدة الآية ٩٠ ـ ٩١.

[٥٢] العالم الإسلامي والغزو المغولي - صـ٦٩.

[٥٣] المصدر السابق - صـ ٦٩. تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني د. شوقي صـ٩٥.

[٥٤] العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٧٠).

[٥٥] تاريخ الأدب ألعربي في العصر العباسي الثاني صـ٧١.

[٥٦] العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٧٣).

[٥٧] المصدر السابق – (ص: ٧٤).

[٥٨] البداية والنهاية (١١/ ٢٩١) العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٧٥.

[٥٩] البداية والنهاية (١١/ ٢٩١، ١٣/ ١٨٧). العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل الخالدي – (ص: ٧٥). حياة الحيوان الكبرى - (١ / ٩٤).

[٦٠] العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل الخالدي – (ص: ٧٦).

[٦١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٨/١).

[٦٢] المصدر السابق - (٩/١).

جنكيزخان والدولة المغولية

[١] منتدى ليلاس www.liilas.com/vb3/t99729.html.

جنكيزخان إعصار من الشرق، ثروت عُكاشة – (ص: ٥٤).

[٢] المصدر السابق – (ص: ٢٠). الأعشى في

صناعة الإنشا، نقلاً عن مسالك الأبصار - (٤ / ٣١٠).

[٣] صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نقلاً عن مسالك الأبصار - (٤ / ٣١٠). تاريخ ابن خلدون - (٥ / ٥٢٥).

[٤] منتدى ليلاس..
www.liilas.com/vb3/t99729.html

[٥] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني - (ص: ٤٤).

[٦] المصدر السابق - (ص: ٤٥، ٤٦).

[٧] المصدر السابق - (ص: ٤٥، ٤٦). إعصار من الشرق، ثروت عكاشة - (ص: ٥٣).

[٨] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني - (ص: ٥٤). إعصار من الشرق، ثروت عكاشة - (ص: ٥٣).

[٩] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني - (ص: ٤٦).

[١٠] المصدر السابق - (ص: ٤٩).

[١١] المصدر السابق - (ص: ٣٩).

[١٢] الغزو المغولي لديار الإسلام، الفريق ركن د. محمد فتحي أمين - (ص: ٣٩).

جنكيز خان مؤسس امبراطورية المغول

[١] المصدر السابق - (ص: ٤١). إعصار من الشرق، ثروت عكاشة - (ص:٦١).

[٢] الغزو المغولي لديار الإسلام - (ص: ٤١).

[٣] المصدر السابق - (ص: ٤١). إعصار من الشرق، ثروت عكاشة - (ص:٦١: ٦٢).

[٤] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني - (ص: ٥٠).

[٥] المصدر السابق - (ص: ٥١).

[٦] المصدر السابق - (ص: ٤٢).

[٧] المصدر السابق - (ص: ٤٥).

[٨] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني - (ص: ٤٥: ٥٢). الغزو المغولي لديار الإسلام - (ص: ٤٥).

[٩] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني - (ص: ٤٥: ٥٣).

[١٠] سقوط الدولة العباسية للقحطاني - (ص: ٧٣).

[١١] المصدر السابق - (ص: ٧٦).

[١٢] جنكيز خان قاهر العالم صـ ٢٣٨. حروب المغول د. حطيط - (ص: ١٨: ٢١).

[١٣] جنكيز خان قاهر العالم صـ ٢٤٠. حروب المغول د. حطيط - (ص: ٢٤).

[١٤] حروب المغول د. حطيط - (ص: ٣٦).

[١٥] المصدر السابق - (ص:٢٦، ٣٦).

[١٦] المصدر السابق - (ص:٢٧، ٣٦).

[١٧] المصدر السابق - (ص: ٢٨).

مقومات نجاح الدولة المغولية

[١] جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا - (ص: ٢٣).

[٢] المصدر السابق - (ص: ٢٦).

[٣] المصدر السابق - (ص: ٢٧).

[٤] البداية والنهاية، لابن كثير - (١٧/ ١٦٧).

[٥] المصدر السابق - (١٧/ ١٦٧).

[٦] جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا - (ص: ٢٨).

[٧] المصدر السابق - (ص: ٢٨).

[٨] المصدر السابق - (ص: ٣٠).

[٩] المصدر السابق - (ص: ٣١).

[١٠] المصدر السابق - (ص: ٣١).

[١١] المصدر السابق – (ص: ٣٢).

[١٢] المغول للعريني صد١٥٥.

[١٣] جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا – (ص: ٣٣: ٣٥).

[١٤] تاريخ الترك في آسيا الصغرى، الترجمة العربية – (ص: ١٦٥). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٤٧).

[١٥] تاريخ الترك في آسيا الصغرى، بارتولد، الترجمة العربية – (ص: ١٦٥). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٤٧: ١٤٨).

[١٦] جامع التواريخ، رشيد الدين – (ج١/ ٣٨٦). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٤٨).

[١٧] المصدر السابق – (ص: ١٤٨).

[١٨] جامع التواريخ، رشيد الدين – (ج١/٤٣٧، ٤٣٨). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٤٩).

[١٩] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٤٩).

[٢٠] المصدر السابق – (ص: ١٥٠). جنكيزخان وجحافل المغول، هارولد لام، ترجمة متري أمين – (ص: ١٥).

[٢١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٥٠).

[٢٢] المصدر السابق – (ص: ١٥٠).

[٢٣] المصدر السابق – (ص: ١٥٠– ١٥١).

[٢٤] المصدر السابق – (ص: ١٥١).

[٢٥] المصدر السابق – (ص: ١٥١).

[٢٦] المصدر السابق – (ص: ١٥١– ١٥٢).

[٢٧] طبقات ناصري، الجوزي – (ص: ٣٧٤ ، ٣٧٥).

[٢٨] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٥٢).

[٢٩] المغول، الدكتور الباز العريني – (ص: ١٤٩). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٥٢).

[٣٠] تاريخ جهانكشاي، الجويني – (١ / ١٨).

[٣١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٥٣).

[٣٢] المغول، الدكتور الباز العريني – (ص: ١٥٠). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٥٣).

[٣٣] المصدر السابق – (ص: ١٥٣). سيرة جلال الدين منكبرتي، النسوي – (ص: ٩٣). طبقات ناصري – (ص: ٣٣).

[٣٤] جنكيزخان وجحافل المغول – (ص: ٥ من المقدمة).

دستور الدولة المغولية: (الياسا)

[١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٣٨). تاريخ المغول عباس إقبال صد١١٣.

[٢] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٣٨). انظر الدولة العربية الإسلامية صد٤٧٢. جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا – (ص: ٣٩، ١٠٤).

[٣] المصدر السابق – (ص: ٣٩، ١٠٤).

[٤] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٣٩: ٣٤٠). تاريخ جهانكشاي، للجويني – (ج١/١٧).

[٥] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٣٨).

[٦] المصدر السابق – (ص: ٣٤٠: ٣٤١). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ٢١٢).

[٧] المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي - (٢ / ٤٢٠).

[٨] المصدر السابق - (٢ / ٤٢١). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد - (ص:٣٤١؛ ٣٤٣).

[٩] تاريخ جهانكشاي للجويني (١/ ١٩ ـ ٢١). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد - (ص: ٣٤٢).

[١٠] دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ج ٧ العدد الرابع - (ص: ١٣٧). مادة جنكيز خان. المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد - (ص: ٣٤٣).

[١١] المصدر السابق - (ص: ٣٤٣).

[١٢] المصدر السابق - (ص: ٣٤٤). جنكيزخان وجحافل المغول، الترجمة العربية - (١٢٤: ١٢٥).

أخلاقيات المغول الجنكيز خانية

[١٣] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد - (ص: ٣٤٤).

[١٤] المصدر السابق - (ص: ٣٤٦).

[١٥] العرب والتتار، إبراهيم العدوي - (ص: ٣٢. ٣٣). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد - (ص: ٣٤٦).

[١٦] تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية - (ص: ٥٦١).

[١٧] صبح الأعشى - (٤/ ٣١٤). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد - (ص: ٣٤٧).

[١٨] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد - (ص: ٣٤٨).

[١٩] المصدر السابق - (ص: ٣٤٩).

[٢٠] المصدر السابق - (ص: ٣٥٠). الأعلام للزركلي - (ج ٧ / ص ٤٦).

[٢١] عجائب المقدور في أخبار تيمور - (ج ١ / ص ٣٠). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد - (ص: ٣٥١).

[٢٢] المصدر السابق - (ص: ٣٥١). تاريخ العراق بين احتلالين (١/ ١٣١. ١٣٣). معجم المؤلفين - (ج ٣ / ص ١٧٧). عجائب المقدور في أخبار تيمور - (ج ١ / ص ٣٠).

التنظيمات الإدارية للدولة الجنكيزخانية

[١] المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس - (ص: ٣٩).

[٢] المصدر السابق - (ص: ٣٩).

[٣] قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية النبراوي - (ص: ٧٢).

[٤] الغزو المغولي لديار الإسلام د. محمد فتحي - (ص: ٨٦).

[٥] المصدر السابق - (ص: ٨٦: ٨٧).

[٦] المصدر السابق - (ص: ٨٧). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد - (ص: ٣٦٢). قيام دولة المماليك الأولى في مصر، د. العبادي - (ط: ١٤٦: ١٤٧).

[٧] الغزو المغولي لديار الإسلام د. محمد فتحي - (ص: ٨٨).

[٨] المصدر السابق - (ص: ٨٨). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد - (ص: ٣٦٢).

[٩] الغزو المغولي لديار الإسلام د. محمد فتحي - (ص: ٩٠).

[١٠] المصدر السابق - (ص: ٩١).

[١١] المصدر السابق - (ص: ٩١: ٩٢).

[١٢] المصدر السابق – (ص: ٩١: ٩٢).

[١٣] المصدر السابق – (ص: ٩١: ٩٢). تاريخ جهانكشاي، الجويني - (١/ ١٨). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٦٤).

[١٤] المصدر السابق – (ص: ٣٦٥). صبح الأعشى، القلقشندي – (ج٤/ ص: ٤٢٣).

[١٥] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٦٥).

[١٦] المصدر السابق – (ص: ٣٦٥). دائرة المعارف الإسلامية – (مادة: جنكيزخان، المجلد السابع، العدد الرابع من الترجمة العربية، ص: ١٣٧).

[١٧] دائرة المعارف الإسلامية – (مادة: جنكيزخان، المجلد السابع، العدد الرابع من الترجمة العربية، ص: ١٣٧). الكامل في التاريخ - (٥ / ٣١١).

[١٨] دائرة المعارف الإسلامية – (مادة: جنكيزخان، المجلد السابع، العدد الرابع من الترجمة العربية، ص: ١٣٧). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٦٥).

[١٩] المغول تاريخ جهانكشاي، الجويني - (١/ ٨٣). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٥٤: ١٥٥).

[٢٠] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ١٥٢). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٥٥).

[٢١] جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا – (ص: ٣١٩). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٥٦: ١٥٧).

[٢٢] المصدر السابق – (ص: ١٥٧).

[٢٣] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ١٥٢). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٥٨).

[٢٤] جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا – (ص: ٣٩، ١٠٤). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٥٨).

[٢٥] جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا – (ص: ٣٢٨).

[٢٦] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ٣٥٩).

[٢٧] جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا – (ص: ١٦٧).

[٢٨] المصدر السابق – (ص: ١٦٨).

[٢٩] المصدر السابق – (ص: ١٦٩).

[٣٠] المصدر السابق – (ص: ١٧١).

[٣١] المصدر السابق – (ص: ١٧٤: ١٧٥).

العادات والتقاليد الاجتماعية عند المغول

[١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٥١: ٣٥٢).

[٢] حبيب السير، خولدمير – (٣/ ١٧٩).

[٣] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٥٢). جامع التواريخ، رشيد الدين، نشر: كاترمير – (ص: ٩٢، حاشية: ١٤).

[٤] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ٣٥٢- ٣٥٦). جنكيز خان وجحافل المغول، هارولد لام، الترجمة العربية – (ص: ٤٣).

[٥] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٥٦). محنة الإسلام الكبرى، د. مصطفى طه بدر – (ص: ٦٩).

[٦] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ٣٥٨). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد

المعطي الصياد – (ص: ٣٥٨- ٣٥٩).

[٧] المصدر السابق د – (ص: ١٤٣).

زحف جنكيزخان على العالم الإسلامي

[١] الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٠٦). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٣٦٤).

[٢] الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٠٦). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ١٩٣، ٣٦٤).

[٣] الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٠٦). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ١٩٣). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (٤٤ / ٤٠).

[٤] الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٠٦). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (٤٤ / ٤٠).

[٥] الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٠٧). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (١/١٤). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (٤٤ / ٤١).

[٦] الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٠٧). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ٩٦). سيرة جلال الدين منكبتري، المنشئي – (ص: ٤٨).

[٧] نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع – (٢٧/٢١٠). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (٤٤ / ٤١).

[٨] سيرة السلطان جلال الدين – (هامش ص: ٨٥). عودة الروح للخلافة – صـ١٨٣. المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١٠٢). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (٤٤ / ٤١).

[٩] تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي – (ص: ٥٠). قصة التتار د. راغب السرجاني – (ص: ٢٢).

[١٠] الكامل لابن الأثير (١٢ /١٤٩). عودة الروح للخلافة – (ص: ١٨٠).

[١١] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ٦٧). عودة الروح للخلافة – (ص: ١٨٠)

[١٢] المصدر السابق – (ص: ١٨١). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٦٦). الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٠٦).

[١٣] سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٨٣، ٨٤). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٦٦).

[١٤] المصدر السابق – (٢٧ / ١٦٦). تاريخ الخلفاء للسيوطي – (ص: ٤٦٩). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١٠٠). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ٦٨). تاريخ الترك في آسيا الوسطى، برتولد. الترجمة العربية – (ص: ١٥٩). سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٦٨- ٦٩).

[١٥] المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١٠٢).

[١٦] سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٨٥- ٨٦). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٦٧). كيف دخل التتار بلاد المسلمين د. سليمان العودة صـ٢٣. الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٠٦). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١٠٥).

[١٧] مختصر تاريخ العرب، سيد أمير – (ص: ٣٤٣). عودة روح الخلافة– (ص: ١٨٧، ١٨٨). سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٨٧- ٨٨). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٦٧). هارلود لام، جنكيز خان – (ص: ٩٧). الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٠٦).

[١٨] سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٨٧- ٨٨). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٦٧). تاريخ الخلفاء للسيوطي – (ص: ٣١١). تاريخ بخارى – (ص: ١٥٨، ١٥٩). عودة الروح

للخلافة – (ص: ١٨٧). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١٠٥).

[١٩] عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص١٩٤، ١٩٥). سيرة السلطان جلال الدين – (ص١٠٠). تاريخ الخميس في أحوال انفس تفيس – (٢/٣٨٦). الدولة الخوارزمية للمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٣٥٩). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢، ١١٣).

[٢١] سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٨٩-٩٠). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٦٨). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٧).

[٢٢] المصدر السابق - (١٢. ١٤٩).

[٢٣] عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ١٩٥). سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٩١). الدولة الخوارزمية للمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٣٧، ١٣٨). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢، ١١٣).

[٢٤] الدولة الخوارزمية للمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٣٩). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٧/٢١١). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٣).

[٢٥] سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٩٢-٩٣). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٦٨). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢).

[٢٦] المصدر السابق - (٢٧ / ١٦٩). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٢).

[٢٧] تاريخ الخميسي - (٢/ ٣٦٨). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٦). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٠).

[٢٨] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٦٩). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص

[٢٩] المصدر السابق – (ص: ١٦٢). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٧٠). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٠).

؛ ١٦١). سيرة السلطان منكبرتي، النسوي – (ص:٣٨).

[٣٠] المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢؛ ١١٤). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٤٠). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩).

[٣١] الدولة الخوارزمية والمغول – (ص: ١٤٠). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢).

[٣٢] الدولة الخوارزمية والمغول – (ص: ١٤٠). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢؛ ١١٥).

[٣٣] الدولة الخوارزمية والمغول – (ص: ١٤٠؛ ١٤٣). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢؛ ١١٥).

[٣٤] الدولة الخوارزمية والمغول – (ص: ١٤٤). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٥؛ ١١٦). تاريخ جها نكَشاي – (ج١/ ٧١؛ ٧٤).

[٣٥] سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ١٤٠). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ١٩٨). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢).

[٣٦] الدولة الخوارزمية للمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٤٣). نهاية الأرب، للنويري، القلقشندي - (٢٧/٢١١). سيرة السلطان جلال الدين –

(ص: ١٠١). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٦).

[٣٧] الكامل في التاريخ – (٩ . ٣٣٢). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ١٩٨). الدولة الخوارزمية للمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٤٣). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩). نهاية الأرب، للنويري، القلقشندي – (٢١٢/٢٧).

[٣٨] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٤٤). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٦).

[٣٩] تاريخ بخارى – (ص: ١٩٩). عودة الروح للخلافة – (ص: ١٩٩).

[٤٠] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٤٤).

[٤١] المصدر السابق – (ص: ١٤٥).

[٤٢] نهاية الأرب، للنويري، القلقشندي – (٢١٢/٢٧). تاريخ جها نكشاي – (ج١/ ٨٠: ٨١). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٧).

[٤٣] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٤٥). الكامل (٩ ـــ ٣٣٣). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٠). البداية والنهاية – (١٧ ــ ٨٠). نهاية الأرب، للنويري، القلقشندي – (٢١٢/٢٧).

[٤٤] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٤٥). سيرة السلطان جلال الدين، النسوي، حاشية رقم:٨ – (ص: ١٠١). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١١٨). الجويني – (ج١/ ٨٣).

[٤٥] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٤٥). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩).

[٤٦] الكامل في التاريخ نقلاً عن قصة التتار د. السرجاني – (ص: ٣٠). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٨٠). نهاية الأرب، للنويري، القلقشندي – (٢١٣/٢٧). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١١٨).

[٤٧] قصة التتار د. السرجاني – (ص: ٣١). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١١٨).

[٤٨] الكامل في التاريخ، ابن الأثير – (٩ ـ ٣٣٣). عودة الروح – (ص: ٢٠١). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١١٩).

[٤٩] الكامل في التاريخ، ابن الأثير – (٩ ـ ٣٣٣). تاريخ بخارى– (ص: ١٧٣). عودة الروح – (ص: ٢٠١).

[٥٠] تاريخ بخارى صـ١٧٣، عودة الروح – (ص: ٢٠١).

[٥١] الدولة الخوارزمية صـ١٢٤، عودة الروح – (ص: ٢٠٢).

[٥٢] الحياة السياسية في عهد السيطرة المغولية – (ص: ٣٣، ٣٤). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١١٩).

[٥٣] تاريخ بخارى – صـ١١٦، عودة الروح – صـ٢٠٢. نهاية الأرب، للنويري، القلقشندي – (٢١٣/٢٧).

[٥٤] تاريخ بخارى – (ص: ١٧٤). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٣). نهاية الأرب، للنويري، القلقشندي – (٢١٣/٢٧). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (٤٤ / ٤٣). الكامل في التاريخ (١٢ ــ ١٦٩)، الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٤٧، ١٤٨). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١١٩).

[٥٥] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٤٧). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٠). تاريخ جها نكشاي – (ج١/ ٩٥: ٩٦).

[٥٦] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٤٨).

[٥٧] سقوط الدولة العباسية ص١٢٣. المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١١٩).

[٥٨] عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٣). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٠).

[٥٩] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٧١).

[٦٠] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٧١). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٤). الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٠٩). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥٠).

[٦١] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٧١). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (٤٤ / ٢٥). الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٠٩). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٤٩، ١٥١).

[٦٢] عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٤).

[٦٣] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٧١). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (٤٤ / ٢٥). الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٠٩). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٤٩، ١٥١). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢١: ١٢٢).

[٦٤] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٧١). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (٤٤ / ٢٥). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥١).

[٦٥] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٧٢). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥١، ١٥٢).

[٦٦] سيرة السلطان جلال الدين – (ص / ١٠٦: ١٠٨). تاريخ بخارى – (ص / ١٧٧). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٥). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٤٩: ١٥٢).

[٦٧] المصدر السابق – (ص: ١٥٢). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، النسوي – (ص: ٤٨). تاريخ الخلفاء، السيوطي – (ص: ١١٣). تتمة المختصر في أخبار البشر، ابن الوردي – (ص: ١٥٥). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٧٢). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (٤٤ / ٢٥). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٢، ١٢٣).

[٦٨] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري – (٢٧ / ١٧٣). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥٢).

[٦٩] المصدر السابق – (ص: ١٥٤). نهاية الأرب، للنويري – (٢١٥/٢٧).

[٧٠] نهاية الأرب، للنويري – (٢١٥/٢٧). العبر للذهبي (٥/ ٦٤ ـ ٦٤٥). تاريخ الخميسي – (٢/ ٣٦٨). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٦، ٢٠٧). الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣١٠). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥٢، ١٥٤).

[٧١] تاريخ ابن خلدون (٥/ ٥٢٠). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٧). الكامل في

التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٠) الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٥٥).

[٧٢] نهاية الأرب، للنويري - (٢١٥/٢٧). عودة الروح للخلافة الإسلامية - (ص: ٢٠٧). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٠، ٣١١). مرآة الجنان - (٤/ ٣٧ ـ ٣٨). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٥٥، ١٥٦).

[٧٣] عودة الروح للخلافة الإسلامية - (ص: ٢٠٧). مرآة الجنان - (٤/ ٣٧ - ٣٨). نهاية الأرب، للنويري - (٢١٥/٢٧). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٠، ٣١١). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٥٥، ١٥٦).

[٧٤] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٢). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٦/٢٧). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٥٦، ١٥٧).

[٧٥] مرآة الجنان لليافعي (٤/ ٣٧ ـ ٣٨)، عودة الروح للخلافة الإسلامية - (ص: ٢٠٨). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٥٧).

[٧٦] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٢). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٦/٢٧). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٥٨). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٥٠/١، ٥١).

[٧٧] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٢). عودة الروح للخلافة الإسلامية - (ص: ٢٠٩). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٥٨).

[٧٨] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٢). تاريخ الصالحية - (١ / ص ٩٥). ووفيات الأعيان - (ج ٥ / ٢/ ١٣٨). ذيل الروضتين - (ص ١٦٥). السلوك للمقريزى - (ج ١٥ / ص ٢٥٦). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٦/٢٧).

[٧٩] مرآة الجنان (٤/ ٣٨، ٤٨). عودة الروح للخلافة الإسلامية - (ص: ٢١٠). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٥٨).

[٨٠] المصدر السابق - (ص: ١٥٨). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٢). عودة الروح للخلافة الإسلامية - (ص: ٢١٠).

[٨١]الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٥٨).

[٨٢] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٣). نهاية الأرب، للنويري - (٢١٧/٢٧). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٥٢/١).

[٨٣] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٣).

[٨٤] المصدر السابق - (ج ٥ / ص ٣١٣). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٧/٢٧).

[٨٥] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٣). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٨/٢٧).

[٨٦] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٤). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٨/٢٧).

[٨٧] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٤). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٩/٢٧). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٥٤/١).

[٨٨] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٤). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٩/٢٧).

[٨٩] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ /

ص ٣١٤). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٧/٢٢٠).

[٩٠] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٥). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٧/٢٢٠).

[٩١] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٥). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٧/٢٢١).

[٩٢] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٥). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٧/٢٢١).

[٩٣] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٥). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٧/٢٢١).

[٩٤] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٦). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٧/٢٢٢).

أخبار المغول مع السلطان جلال الدين

[١] اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، إدوارد فنديك - (١ / ١٣٠). نهاية الأرب في فنون الأدب. موافق للمطبوع - (٢٧ / ١٧٣).

[٢] المصدر السابق - (٢٧ / ١٧٤). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٦٠).

[٣] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٤). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٢٢). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٢). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٥).

[٤] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٤). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٢٦). تاريخ ابن خلدون - (١٤٠/٥).

[٥] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٥). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٣٠). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٤). تاريخ ابن خلدون - (١٤٠/٥). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٥).

[٦] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٤). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٣٠).

[٧] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٥). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٣٢، ١٣٣- ١٥٤).

[٨] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٥). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٣٣- ١٥٤).

[٩] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٦). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٣٣، ١٣٤). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٨).

[١٠] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٧، ٢٢٤). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٥٤). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٨). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٨٥).

[١١] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٧). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٥٤، ١٥٦). تاريخ ابن خلدون - (١٤٠/٥). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٨). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ

حمدي – (ص: ١٨٥).

[١٢] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري – (٢٧ / ١٧٧، ٢٢٥). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٥٦، ١٥٧). تاريخ ابن خلدون – (١٤٠/٥). الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣١٨).

[١٣] نهاية الأرب في فتون الأدب، للنويري – (٢٧ / ١٧٧). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٥٨، ١٥٩). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٨٦).

[١٤] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري – (٢٧ / ١٧٨). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٥٩). تاريخ ابن خلدون – (١٤٠/٥). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٨٦، ١٨٧).

[١٥] الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣١٩). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٦٠). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٨٧، ١٨٨).

[١٦] نهاية الأرب في فتون الأدب، للنويري – (٢٧ / ١٧٨). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٦٠).

[١٧] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري – (٢٧ / ١٧٩). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٦٠: ١٦٢). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٨٨).

[١٨] الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣١٩). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع – (٢٢٥/٢٧). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٨١).

[١٩] الدول المستقلة في المغرب الإسلامي – (ص: ١٨٨، ١٨٩). قصة التتار – (ص: ٦٥). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٩٢).

[٢٠] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٣٥/١: ٤١). الروض المعطار في خبر الأقطار – (ج ١ / ص ٢٢٥).

[٢١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٣٥/١). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٥).

[٢٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٣٦/١).

[٢٣] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٤). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، المنشئ – (ص: ١٧٠).

[٢٤] المصدر السابق – (ص: ٩٠).

[٢٥] سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، المنشئ – (ص: ١٧١). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع – (٢٢٦/٢٧).

[٢٦] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٥). تاريخ ابن خلدون – (١٣٦/٥).

[٢٧] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٦).

[٢٨] نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع – (٢٢٦/٢٧). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٦).

[٢٩] نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع – (٢٢٦/٢٧). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، المنشئ – (ص: ١٧٢). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٦).

[٣٠] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٤١/١). الكامل في التاريخ – (١٢/ ١٨٢).

[٣١] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي

- (ص: ١٦٦).

[٣٢] المصدر السابق - (ص: ١٦٧). تاريخ ابن خلدون - (١٣٧/٥).

[٣٣] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٦). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٢٢/٢٧).

اجتياح التتار لخُراسان

[١] الموسوعة العربية العالمية - (مادة: خرسان / ص ١).

[٢] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٦٧).

[٣] المصدر السابق - (ص: ١٦٦، ١٧١). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٣٩/١). الموسوعة العربية العالمية - (مادة: خرسان / ص ١).

[٤] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٦٦، ١٧١). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٣٦/١).

[٥] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٦٦، ١٧١). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٣٦/١). الموسوعة العربية العالمية - (مادة: خرسان / ص ١). الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٦).

[٦] المصدر السابق - (ج ٥ / ص ٣١٦). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٢٢/٢٧). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٣٧/١).

[٧] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٦).

[٨] المصدر السابق - (ج ٥ / ص ٣١٦). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٢٢/٢٧).

[٩] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٣٨/١). الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٧).

[١٠] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٧٤، ١٧٥). الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٧).

[١١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٣٨/١).

[١٢] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٧٤، ١٧٥). الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٧). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٢٢/٢٧).

[١٣] قصة التتار، د. راغب السرجاني - (ص: ٤٧). الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٧). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٢٣/٢٧).

[١٤] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٧٥). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٣٩/١).

[١٥] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٧٢). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، المنشئي - (ص: ١١٤).

[١٦] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٧٢). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، المنشئي - (ص: ١١٥).

[١٧] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٤٠/١). الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٧). الروض المعطار في خبر الأقطار - (ج ١ / ص ٢٢٥).

[١٨] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٧٤، ١٧٦).

[١٩] الكامل في التاريخ - (١٢/ ١٨١). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٧٧).

[٢٠] المصدر السابق - (ص: ١٧٧).

[٢١] الكامل في التاريخ - (١٢/ ٣٤٣). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي - (ص: ١٥١).

[٢٢] المصدر السابق - صـ١٥٢. عودة الروح للخلافة الإسلامية - (ص: ٢١٩). الكامل في التاريخ - (٩/ ٣٤٣).

[٢٣] عودة الروح للخلافة الإسلامية - (ص: ٢١٩). الكامل في التاريخ - (٩/ ٣٤٣). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٣٧/١).

[٢٤] المصدر السابق - (٤٠/١).

[٢٥] المصدر السابق - (٥٦/١).

[٢٦] المصدر السابق - (٥٧/١). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٢٦).

[٢٧] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٥٨/١).

[٢٨] المصدر السابق - (٥٩/١) الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٢٤).

[٢٩] المصدر السابق - (ج ٥ / ص ٣٢٥). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٦٣/١).

[٣٠] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٢٦). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٦٣/١). المختصر في أخبار البشر - (ج ١ / ص ٤٠١)

[٣١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٦٤/١)

[٣٢] المصدر السابق - (٦٥/١).

[٣٣] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٢٨).

قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٦٦/١).

[٣٤] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٢٨).

[٣٥] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٦٦/١).

[٣٦] المصدر السابق - (٦٧/١)

[٣٧] المصدر السابق - (٦٨/١).

[٣٨] المصدر السابق - (٦٨/١). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٣٩).

[٣٩] المصدر السابق - (٦٩/١).

وفاة مؤسس الدولة المغولية جنكيز خان

[١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٦٩/١).

[٢] المصدر السابق - (٧٠/١).

[٣] الدولة الخوارزمية والمغول - (ص: ٢٤٠؛ ٢٤٤). جنكيز خان - (٢٧٥/١).

[٤] جنكيز خان - (٢٧٧/١، ٢٧٨).

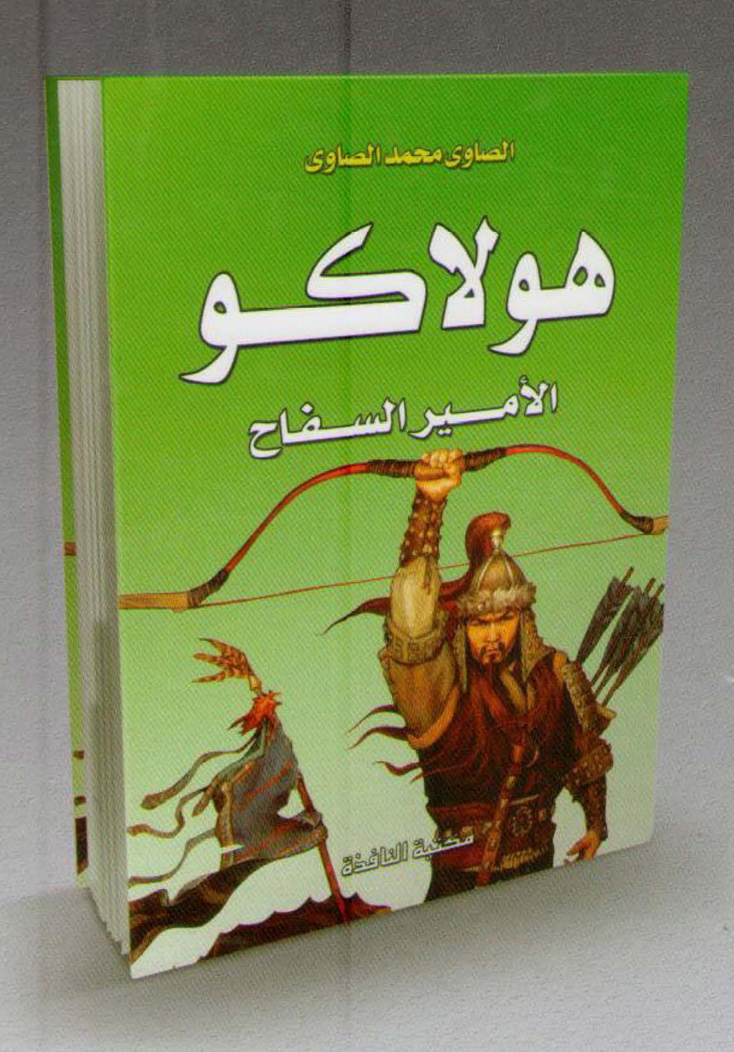
[٥] المغول في التاريخ د. العباد - (١٣٧، ١٣٨). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٢٨/٢٧).

[٦] جنكيز خان إعصار من الشرق، عكاشة - (ص: ٢٢٥). المغول في التاريخ د. العباد - (١٣٧، ١٣٨).

[٧] نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٣٠/٢٧).

[٨] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد - (ص: ٣٥٧).


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET



مكتبة النافذة